سِيرَةُ النَّبِيِّ ﷺ

صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم

في بَيْتِهِ

بقلم

صالح أحمد الشامي

المكتب الإسلامي

سِيرَةُ النَّبِيِّ

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم

فِي بَيْتِهِ

بقلم

صالح أحمد الشّامي

المكتب الاسلامي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ ـ هاتف : ٤٥٦٢٨٠(٠٥)
عمّان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ ـ هاتف : ٤٦٥٦٦٠٥

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، حمداً طيباً مباركاً فيه، وأفضل الصلاة وأتم التسليم علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

إن التعرف علىٰ سيرة سيدنا محمد ﷺ من أول واجبات المسلم، فعن طريقه وصلنا هذا الدين الحنيف الذي ارتضاه الله لنا، وعن طريق فعله وقوله كان البيان لمعالمه. وفي هذا جاء قوله تعالىٰ:

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

وقوله تعالىٰ:

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وكتب السيرة - والحمد لله - كانت وما زالت تؤدي دورها في إيصال هذه المعرفة، كل منها في الجانب الذي قصد إليه مؤلفه.

وقد رأيت أن الحديث عن «سيرته ﷺ في بيته» أمراً حسناً، حيث يقف القارئ من خلاله علىٰ صورة مما كان يجري داخل جدران بيوته ﷺ فيكون في ذلك ما يعين علىٰ التأسي به في هذا المجال.

وقد جرت العادة أن كتب السيرة تروي بعض الأخبار في هذا المجال هنا وهناك مما قد يصعب معه استكمال التصور، فكان جمعها أمراً مفيداً.

وقد سبق لي - بحمد الله تعالىٰ - أن عرضت نواة لهذا الموضوع في كتاب «من معين الشمائل» بما يتناسب مع المقام المتاح هناك.

وفي هذا الكتاب أحاول استكمال الموضوع - إن شاء الله تعالىٰ - بحيث يكون وافياً ببعض الغرض، قريب المتناول.

وإذا كان موضوعنا في هذا الكتاب «**سيرته ﷺ في بيته**» فإن البيوت - في العادة - هي مكان خصوصيات الإنسان، ومكان أسراره، ومكان ما لا يحب أن يطلع الناس عليه، حيث يأخذ المرء حريته في تصرفاته.. بعيداً عن رقابة الناس.

ولكن بيته ﷺ أو بيوته، وإن كان لها الأبواب أو الستور التي تحجبها عن الناس، فإن كل ما كان يحدث فيها، كان يُنقَل إلىٰ الناس، بما في ذلك أدق التفاصيل مما يعتبر من خصوصيات الإنسان.. لا في طريقة أكله وشربه ونومه.. وإنما في أحاديثه الخاصة مع زوجاته، وفي العلاقات الزوجية من تقبيل وملامسة.. واغتسال.. كل ذلك دون تحرُّج...

ذلك أن الله - سبحانه - جعله أسوة للناس في كل شؤون حياتهم، فكان لا بد من معرفة هذا الجانب، ولقد تكفلت زوجاته رضي الله عنهن بهذه المهمة.. فنقلن للناس كل ما كانوا يرونه أو يسمعونه، أو يجري معهن، وشاركهن في ذلك كل من كان قريباً منه ﷺ أو يدخل بيوته كعلي وابن عمر وابن عباس وغيرهم رضي الله عنهم.

وكان هذا من رحمة الله تعالىٰ بهذه الأمة، حتىٰ يصوغ الناس بيوتهم وفقاً للأنموذج الذي وضعه - عليه الصلاة والسلام - ويسيروا علىٰ المنهج الذي سلكه..

هذا وسيكون عرض الموضوع من خلال ثلاثة أبواب:

الأول: تحت عنوان: «النبي ﷺ الزوج الكريم».

والثاني: تحت عنوان: «النبي ﷺ الأب الرحيم».

والثالث: وموضوعه: «فقه التأسي به ﷺ في بيته».

هذا وأرجو الله أن يجعل هذا العمل متقبلاً خالصاً له، وكذلك سائر أعمالي، إنه سميع مجيب، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

غرة ربيع الأول ١٤٢٥هـ
٢٠٠٤/٤/٢٠م

صالح أحمد الشامي

الباب الأول

النبي ﷺ الزوج الكريم

نحاول في هذا الباب التعرف علىٰ سيرته ﷺ في بيته مع زوجاته أمهات المؤمنين رضي الله عنهن.

وفي سبيل ذلك، لا بد من مقدمات تكون بين يدَي الموضوع:

منها: التعرف علىٰ أمهات المؤمنين، باعتبارهن الطرف الثاني في هذا التعامل، ومن أجل هذا، عرضت نبذة مختصرة عن حياة كل واحدة منهن علىٰ انفراد، وأسباب ودواعي الزواج منها.

ومن المقدمات: وصف هذه البيوت التي كانت سكناً لأمهات المؤمنين، فتصوير مسرح الحوداث أمر ضروري في سبيل تكوين الصورة المطلوبة.

ويتبع ذلك بيان مستوىٰ المعيشة القائمة في هذه البيوت، وبهذا تكتمل الصورة العامة:

من حيث معرفة الشخوص المشاركة له ﷺ.

ومعرفة مكان الحركة والحدث.

ومستوىٰ العيش.

وآخر هذه المقدمات الحديث عن تعدد الزوجات بشكل عام، وتعدد زوجاته ﷺ علىٰ وجه الخصوص.

بعد هذه المقدمات يأتي البحث عن سيرته ﷺ في بيته، من العدل وحسن معاملته وحبه لزوجاته، وأنواع السلوك الأخرىٰ..

ثم نختم هذا الباب بفصلين:

أحدهما: عن مباشرة أمهات المؤمنين للأمور العامة.

والثاني: عن خصائصهن رضي الله عنهن.

وأعتقد أن الصورة ستكون واضحة بعد ذلك بإذن الله تعالىٰ.

الفصل الأول

زوجات الرسول ﷺ

لا خلاف في أنه ﷺ أكرم البشر، وسيد ولد آدم، وأفضل الناس منزلة عند الله تعالىٰ وأعلاهم درجة وأقربهم زلفىٰ.

ومن تكريمه تكريم زوجاته، حيث رفع الله من قدرهن وجعلهن أمهات للمؤمنين، فقال تعالىٰ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ﴾ [الأحزاب: ٦].

قال ابن كثير: أي أمهاتهم في الحرمة والاحترام والتوقير والإعظام، ولكن لا تجوز الخلوة بهن..

ومن المتفق عليه أنهن إحدىٰ عشرة امرأة:

ست من العرب من قريش هن: خديجة بنت خويلد، وعائشة بنت أبي بكر الصديق، وحفصة بنت عمر بن الخطاب، وأم حبيبة بنت أبي سفيان، وأم سلمة بنت أبي أمية، وسودة بنت زمعة.

وأربع من العرب من غير قريش هن: زينب بنت جحش، وميمونة بنت الحارث، وزينب بنت خزيمة، وجويرية بنت الحارث.

وواحدة من بني إسرائيل، هي: صفية بنت حيي.

وقد مات عنده ﷺ اثنتان: خديجة، وزينب بنت خزيمة، ومات ﷺ عن الباقي وهن تسع.

ولم يتزوج بكراً إلا واحدة، وهي عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما.

وكان ﷺ عنده سريتان، توفيت واحدة في حياته، وعاشت الأخرىٰ بعده.

وفي هذا الفصل نتحدث بشيء من التفصيل عن كل واحدة منهن علىٰ حدة بحسب ترتيب زواجهن.

***

(١)

أم المؤمنين خديجة بنت خويلد

رضي الله عنها

كانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم[١] إياه بشيء تجعله لهم، وكانت قريش قوماً تجاراً.

فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها، من صدق حديثه، وعظم أمانته، وكرم أخلاقه، بعثت إليه، فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلىٰ الشام تاجراً، وتعطيه أفضل مما كانت تعطي غيره من التجار. فقبل رسول الله ﷺ ذلك، وخرج في مالها، وخرج معه غلامها ميسرة حتىٰ قدم الشام.

هذا ما جاء في «سيرة ابن هشام»[٢].

وجاء في «شرح الزرقاني علىٰ المواهب»، نقلاً عن الواقدي وابن السكن: أن أبا طالب قال: يا ابن أخي، أنا رجل لا مال لي، وقد اشتد الزمان علينا، وألحّت علينا سنون منكرة، وليس لنا مادة ولا تجارة، وهذه عير[٣] قومك قد حضر خروجها إلىٰ الشام، وخديجة تبعث رجالاً من قومك يتجرون في مالها ويصيبون منافع، فلو جئتها لفضلتك علىٰ غيرك، لما يبلغها عنك من طهارتك، وإن كنت أكره أن تأتي الشام، وأخاف عليك من يهود، ولكن لا نجد من ذلك بدًّا.

فقال ﷺ: (لعلها ترسل إليّ في ذلك).

فقال أبو طالب: إني أخاف أن تولي غيرك.

---

(١) تضاربهم: المضاربة نوع من الشركة، يقوم به أحد الطرفين بتقديم المال ويقوم الثاني بالعمل، ويكون الربح بينهما بنسبة متفق عليها.

(٢) «سيرة ابن هشام» (١/١٨٨).

(٣) العير: الإبل التي تحمل التجارة.

فبلغ خديجة ما كان من محاورة عمه له ـ وقبل ذلك صدق حديثه، وعظم أمانته، وكرم أخلاقه ـ فقالت: ما علمت أنه يريد هذا، وأرسلت إليه وقالت: دعاني إلىٰ البعثة إليك ما بلغني من صدق حديثك، وعظم أمانتك، وكرم أخلاقك، وأنا أعطيك ضعف ما أعطي رجلاً من قومك..[1].

ولا خلاف بين الروايتين، فكلاهما يؤكد أن دعوة محمد ﷺ كانت من قِبل خديجة، وأن اللقاء الأول الذي حدث بينهما كان بسبب هذه التجارة.

وكلاهما كان مسروراً بهذا اللقاء، فخديجة تضع مالها في اليد الأمينة، ومحمد ﷺ يأمل الحصول علىٰ شيء من المال، يستطيع به أن يخفف عن عمه أبي طالب تلك الضائقة..

وانطلق محمد ﷺ مع ميسرة ـ غلام خديجة ـ حتىٰ بلغ سوق بصرىٰ، فباع بضاعته واشترىٰ سلعاً أخرىٰ مما يحتاج إليه أهل مكة..

ولما وصل مكة استأذن علىٰ خديجة.. وقدّم لها مالاً وفيراً ثمناً لما باع، وقدّم لها السلع التي اشتراها لتباع في مكة.. وكان ذلك فوق ما كانت تحصل عليه من قبل.. وقد قدمت له في المقابل أكثر مما كانت تقدم لغيره..

وخرج محمد ﷺ من بيت خديجة ليجلس إليها ميسرة، فيحدثها عن رحلته، ومما جاء في حديثه بيان سماحته وعظيم أخلاقه وحسن معاملته.

لقد وقع محمد في قلب خديجة عند اللقاء الأول يوم طلبته لتبعثه في تجارتها، وكان قد مهّد لهذا الوقوع حسن سمعته وعلو أخلاقه، حتىٰ أصبح يعرف بالأمين، فيقال: جاء الأمين وفعل الأمين.

---

(١) «شرح الزرقاني» (١/١٩٧).

وزاد هذا الأمر بعد ما رأت من أمانته الشيء الذي فاق الوصف، فالمعاملة هي الميزان الذي يصدق الأقوال أو يكذبها. ولهذا أقبلت علىٰ ميسرة تسأله عن كل صغيرة وكبيرة في سلوكه وتصرفاته. فسمعت ما يثلج الصدر ويسرّ الخاطر.

وكانت خديجة ـ وهي المرأة العاقلة ـ تسمع من ابن عمها ورقة بن نوفل: أن نبياً سيُبعث في هذه الأمة وقد أظلّ زمانه.. فوقع في خلدها أن محمداً ربما كان ذلك النبي المنتظر.. فزاد ذلك من محبتها له.. ودفعها كل ذلك للسعي من أجل الزواج منه.

***

والمرأة لا تنقصها الحيلة والتدبير في مثل هذا الموطن، فأفضت بما في نفسها إلىٰ صديقتها «نفيسة بنت مُنية» وكلفتها بالأمر..

قالت نفيسة[1]: كانت خديجة بنت خويلد امرأة حازمة جلدة شريفة، مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير، وهي يومئذ أوسط قريش نسباً، وأعظمهم شرفاً، وأكثرهم مالاً، وكل قومها كان حريصاً علىٰ نكاحها لو قدر علىٰ ذلك، قد طلبوها وبذلوا لها الأموال، فأرسلتني دسيساً إلىٰ محمد بعد أن رجع في عيرها من الشام.

فقلت: يا محمد، ما يمنعك أن تتزوج؟

فقال: (ما بيدي ما أتزوج به). قلت: فإن كفيت ذلك، ودعيت إلىٰ المال والجمال والشرف والكفاءة ألا تجيب؟

قال: (فمَن هي؟). قلت: خديجة.

(١) نفيسة بنت أمية، وأمها منية، وأخوها يعلىٰ بن أمية بن أبي عبيد، ويقال له: يعلىٰ بن منية أيضاً. أسلم هو وأخته نعيسة «الإصابة». وقال في «الإصابة»: وهي التي مشت بين خديجة والنبي ﷺ حين تزوجها.

قال: (وكيف لي بذلك؟). قالت: قلت: عليَّ.

قال: (فأنا أفعل)[١].

ويذكر ابن هشام: أن خديجة بعثت إلىٰ محمد ﷺ وقالت له: يا ابن عم! إني قد رغبت فيك لقرابتك وسطتك[٢] في قومك وأمانتك وحسن خلقك، وصدق حديثك، ثم عرضت عليه نفسها[٣].

والرواية الأولىٰ أقرب إلىٰ عادات الناس وتقاليدهم يومئذ، وأقرب فيما يتعلق بخديجة خاصة من حيث مكانتها في قومها. ولعل ما ذكرته الرواية الثانية قد حدث بعدما استوثقت خديجة من رغبته ﷺ في ذلك لتيسر عليه أمر الجانب المادي الذي كان عثرة في طريق تفكيره بأمر الزواج من حيث الأصل.

ومهما يكن من أمر فإن ما حصل كان كافياً ليدفع محمداً ﷺ لذكر ذلك لعمه أبي طالب.. ليقوم بما جرت به العادات والتقاليد يومئذ في مثل هذا الأمر.

وذهب أبو طالب مع وجوه قومه إلىٰ عم خديجة عمرو بن أسد فخطبها منه، وكان أبوها قد مات قبل حرب الفجار[٤]، فوافق عمها، وخطب أبو طالب بهذه المناسبة، فقال:

---

(١) «سبل الهدىٰ والرشاد» (٢/٢٢٣) لمحمد بن يوسف الشامي.

(٢) من الوسط، وهو من أوصاف المدح في النسب والشرف.

(٣) «سيرة ابن هشام» (١/١٨٩).

(٤) جاء في بعض الروايات أن أباها هو الذي عقد لها وكان في حالة من السكر، فلما صحا من سكره أنكر ذلك، ولكنه سكت بعد أن استرضته خديجة.

وهذه الرواية طبّل لها المستشرقون ونشروها علىٰ اعتبارها الرواية الوحيدة. انظر في ذلك: «السيرة النبوية» لأبي شهبة (١/٢٢١) وذلك للحط من مكانة النبي ﷺ، وأنه أقل من خديجة..؟!

وهذه الرواية لا تعطي سبباً لعدم رضىٰ والدها، وهو أمر مستغرب، فقد كان لها ملء الحرية في اختيار من تتعامل معه في تجارتها، كما أن زوجها الأول وكذلك الثاني ليسا في=

الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل، وضئضئ معدّ، وعنصر[1] مضر، وجعلنا حضنة بيته، وسواس حرمه، وجعل لنا بيتاً محجوجاً، وحرماً آمناً، وجعلنا الحكام على الناس، ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبدالله، لا يوزن به رجل من قريش شرفاً ونبلاً وفضلاً إلا رجح به، وهو وإن كان في المال قُلٌّ[2]، فإن المال ظل زائل، وأمر حائل[3]، وعارية مسترجعة. ومحمد من عرفتم قرابته، وهو ـ والله ـ بعد هذا له نبأ عظيم، وخطر جليل، وقد خطب إليكم رغبة في كريمتكم خديجة..

وقد أصدقها أبو طالب خمسمائة درهم وأضاف إليها محمد ﷺ زيادة على ذلك عشرين بكرة.

وتمّ الزواج، ونحر ﷺ جزوراً أو جزورين، فأطعم الناس..

❋ ❋ ❋

وسبق لخديجة أن تزوجت مرتين قبل زواجها من محمد ﷺ.

أما **الزوج الأول**، فهو أبو هالة، واسمه هند بن النباش بن زرارة التميمي، فولدت له ولدين ذكرين، هما: هند، وهالة.

=مكانة محمد شرفاً ونسباً، ومكانة عبد المطلب وأسرته لها الرياسة في مكة، ولا أدل على ذلك من أن قريشاً اختارته ممثلاً لها في مقابلة أبرهة يوم جاء غازياً مكة..

وهكذا لا نجد سبباً لهذا المسلك من والدها لو كانت الرواية صحيحة؟!

قال الواقدي: «الثبت عندنا المحفوظ من أهل العلم أن أباها مات قبل حرب الفجار، وأن عمها عمراً هو الذي زوّجها». وقال الشامي: الذي ذكره أكثر علماء السير: أن الذي زوّجها عمها «شرح المواهب اللدنية» (٢٠٢/١).

والغريب أن أحد كتّاب السيرة، أخرج كتاباً تحت عنوان «السيرة الصحيحة» ولم يذكر إلا رواية السكر دون أي تعليق، فهل دخل التدليس إلى عناوين الكتب أيضاً؟!

(١) الضئضئ، والعنصر: بمعنى الأصل.

(٢) أي: قليل المال.

(٣) حائل: أي لا بقاء له.

وهند: صحابي، روىٰ صفة النبي ﷺ، وشهد بدراً وأحداً..

وكذلك هالة صحابي أيضاً كما جاء في «الإصابة».

وأما **الزوج الثاني**، فهو عتيق بن عابد المخزومي، تزوجت به بعد وفاة أبي هالة، فولدت له بنتاً اسمها «هند» وقد أسلمت هذه البنت وصحبت.

فلما مات عتيق عزفت عن الزواج، وكانت ترفض من يتقدم إليها حتىٰ هيأ الله لها محمداً ﷺ.

وكانت تدعىٰ في الجاهلية بـ«الطاهرة» وذلك لشدة عفافها وصيانتها كما سميت «سيدة نساء قريش»[1].

* * *

وكان عمر النبي ﷺ يوم زواجه من خديجة خمساً وعشرين سنة، وتكاد تُجمع الروايات علىٰ ذلك[2].

بينما تختلف الروايات في شأن عمر خديجة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وكثير من كتب السيرة تذكر أن عمرها كان يومئذ أربعين سنة، وإذا تذكرنا أنها أنجبت من النبي ﷺ ستة أولاد، أدركنا أنه لو كان عمرها كذلك لما استطاعت إنجاب هذا العدد، ولهذا ذهب ابن كثير إلىٰ أن عمرها كان خمساً وثلاثين سنة[3].

وذهب بعضهم إلىٰ أن عمرها كان ثلاثين سنة، وقال بعضهم: كان ثمانية وعشرين[4].

---

(١) «شرح الزرقاني علىٰ المواهب» (١/١٩٩).

(٢) المصدر قبله (١/١٩٨).

(٣) «البداية والنهاية» لابن كثير (٢/٢٩٥).

(٤) «شرح المواهب علىٰ الزرقاني» (١/٢٠٠).

ومهما يكن من أمر فالقول بـ«الأربعين» قول مستبعد، ولا شك بأنها كانت متقدمة في السن عن النبي ﷺ ولكن الفارق لم يكن كبيراً، ومما يؤكد هذا أن الفتاة كانت تزوج في الخامسة عشر من عمرها.. في ذلك الوقت.

❋ ❋ ❋

ومضت الأيام هادئة سعيدة في هذه الأسرة التي جمعت بين «الأمين» و«الطاهرة» وأقر الله عينيهما بالذرية الطيبة.

وقبل بلوغه ﷺ الأربعين من العمر بدأت إرهاصات النبوة تتوالىٰ، فكان يسمع تسليم الحجر والشجر عليه، فيذكر ذلك لخديجة فتصدقه وتثبته، ولا شك بأن ما كانت تسمعه من ابن عمها ورقة بن نوفل عن بعثة نبي قد أظلّ أوانه قد جعلها مؤهلة لتصديق ذلك والإيمان به.

وفي هذه المدة كان ﷺ لا يرىٰ رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، فصدقها الواقع وجاءت كما رآها، كما حبّب إليه الخلاء، والبُعد عن الناس.

فكان يخلو بغار حراء الليالي ذوات العدد، وكان يتزود لذلك، وربما طال غيابه فتخاف عليه خديجة فتبعث غلمانها للبحث عنه..

لم تكن خديجة لتستغرب هذه الأحوال منه ﷺ، فقد استقر في خلدها وغلب علىٰ ظنها أنه ربما كان النبي المنتظر، ولذا فهي تسعىٰ جاهدة في تلبية ما يرغب به من عزلة.. فكانت تؤثره علىٰ نفسها فترضىٰ ببُعده عنها الأيام المتتابعة طالما أن ذلك مما يرضيه ويلبي رغبته..

وفي يوم من أيام شهر رمضان من سنة الأربعين من عمره ﷺ رجع من خلوته إلىٰ خديجة في حالة من الفزع والخوف وهو يرجف فؤاده، فقال: (زمّلوني زمّلوني) فزمّلوه حتىٰ ذهب عنه الروع..

ثم أقبل علىٰ خديجة يحدثها بما جرىٰ له..

فقال: (إن الملك جاءه في غار حراء فقال: اقرأ.

فقلت: ما أنا بقارئ.. فأخذني فغطّني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ.

فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية، حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ.

فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾﴾) [العلق].

ثم قال لخديجة: (لقد خشيت علىٰ نفسي).

كانت خديجة تسمع الخبر بكل حواسها، فلما قال لها: لقد خشيت علىٰ نفسي، قالت: كلا، والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلَّ[١]، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين علىٰ نوائب الحق[٢].

ثم قالت له: انطلق بنا إلىٰ ورقة بن نوفل..

وكان ورقة قد تنصّر في الجاهلية، وكان شيخاً كبيراً قد عمي. فقالت له خديجة: يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترىٰ؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأىٰ.

فقال له ورقة: هذا الناموس[٣] الذي نزَّل الله علىٰ موسىٰ، يا ليتني فيها جذعاً[٤]، ليتني أكون حياً إذ يُخرجك قومك.

---

(١) الكَلّ: الضعيف، والمقصود مساعدة الضعفاء وذوي العيال.

(٢) نوائب الحق: ما ينزل بالناس من المصائب.

(٣) الناموس: صاحب السر، والمراد به: جبريل عليه السلام.

(٤) تمنىٰ ورقة أن لو كان شاباً عند ظهور الدعوة حتىٰ يكون من أنصارها.

فقال رسول الله ﷺ: (أوَ مخرجي هم؟)

قال: نعم، لم يأتِ رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً[1].

* * *

إنه موقف لا يُنسىٰ للسيدة خديجة، موقف اليقين والثقة بالله تعالىٰ، أنه لن يخزي محمداً، فهي تعرف من خلقه الرفيع وشمائله الكريمة ما لا يعرفه غيرها..

وما أحوجه ﷺ في مثل ذلك الموقف إلىٰ من يصدقه بما يقول ويؤازره، فكان قصب السبق في ذلك لمن اختارها الله تعالىٰ لهذه المهمة.

ومن المتفق عليه أنها أول من آمن بالله ورسوله من الرجال والنساء دون استثناء، فلم يتقدمها رجل ولا امرأة.

كما كانت أول من صلّىٰ معه ﷺ بعد أن نزل جبريل وعلّمه الوضوء والصلاة.

ولما أمر بتبليغ الدعوة، ودعوة الناس إلىٰ الإيمان بالله تعالىٰ. وقف معظم الناس في وجه هذه الدعوة، وكان ﷺ يلقىٰ في سبيل ذلك العنت والمشقة والتكذيب، فإذا رجع إلىٰ بيته استقبلته خديجة مخففة عنه تلك الهموم والآلام..

قال ابن هشام: «آمنت خديجة بنت خويلد، وصدقت بما جاء من الله، ووازرته[2] علىٰ أمره، وكانت أول من آمن بالله ورسوله، وصدق بما جاء

---

(١) رواه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).

(٢) وازرته: الوزير: هو الذي يؤازر الأمير، فيحمل عنه ما حمّله من الأثقال، والذي يلتجئ الأمير إلىٰ رأيه وتدبيره، فهو ملجأ إليه ومفزع «النهاية».

منه، فخفّف الله بذلك عن نبيه ﷺ، لا يسمع شيئاً مما يكرهه من ردّ عليه وتكذيب له، فيحزنه ذلك، إلا فرَّج الله عنه بها إذا رجع إليها، تثبته وتخفف عنه، وتصدقه وتهوّن عليه أمر الناس، رحمها الله تعالىٰ»[1].

وهكذا لم تعد خديجة مجرد زوجة، بل أصبحت المساعد والمعين في أمر الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ، فوقفت إلىٰ جانبه تشد من أزره وتواسيه وتقويه، وتصبّره..

ولما كانت الهجرة إلىٰ الحبشة، كانت رقية ابنتها وزوجها عثمان رضي الله عنهما أول المهاجرين إليها، وهكذا تفارق ابنتها.. إلىٰ مجهول ما تدري نتائجه.

وهكذا تتصاعد حملة العداء من المشركين ضد محمد ﷺ وضد دعوته.. إلىٰ أن آل الأمر بهم إلىٰ إعلان المقاطعة الاقتصادية للمسلمين وبني هاشم.. وانحاز المسلمون إلىٰ شعب أبي طالب، وانضم إليهم بنو المطلب.. وانحازت خديجة أيضاً إلىٰ الشعب.. فتحملت مع المسلمين مصابهم ومكابدتهم.. وبذلت من أموالهما الكثير في سبيل تخفيف العناء عن المحاصرين.. وكانت تستعين من أجل ذلك بحكيم بن حزام ـ وكان يومئذ مشركاً ـ فكان يشتري الطعام ويرسله إلىٰ عمته خديجة ليلاً..

ومرت سنوات ثلاث علىٰ المقاطعة، حتىٰ فرج الله بعد ذلك..

وبعد الخروج من الحصار بوقت قليل توفي أبو طالب، وبعده بأيام توفيت السيدة خديجة رضي الله عنها..

الأمر الذي أحدث فراغاً كبيراً في حياته ﷺ فقدْ فقدَ في وقت متقارب سندين مهمين، كانا يدفعان عنه.. وسمي ذلك العام عام الحزن.

***

---

(١) «سيرة ابن هشام» (١/٢٤٠).

عشر سنوات مرت على خديجة وهي ترعى الدعوة وتؤازر حاملها يوماً بعد يوم بل وساعة بعد ساعة، فقد أصبح ذلك شغلها الشاغل الذي يهيمن على تفكيرها، ويوجه نشاطها.

واليوم وهي تغادر الحياة الدنيا، فإن ذكراها وخيالها وكل ما يرتبط بها ما يزال يأخذ حيزه من قلب الرسول ﷺ وفكره وعواطفه.

لم تكن عطاءاتها للدعوة بالأمر اليسير، ولم يكن جهادها بالأمر الذي يُنكر، وإن أعلم الناس بحجم هذا العطاء وهذا الجهاد هو حامل الدعوة ﷺ..

وهذا ما يفسر لنا عظيم هذا الوفاء منه ﷺ ـ وهو أهل الوفاء ـ فقد ظلّ ذكرها على لسانه طول حياته، وكذلك تكريم كل من يمت إليها بصلة، حتى أثار ذلك غيرة عائشة رضي الله عنها، فقالت في بيان ذلك:

ما غرت على امرأة للنبي ﷺ ما غرت على خديجة ـ وقد هلكت قبل أن يتزوجني ـ لما كنت أسمعه يذكرها، وأمره الله أن يبشرها ببيت من قصب[1]، وإن كان ليذبح الشاة فيهدي في خلائلها منها ما يسعهن، قالت: فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة، فيقول: (إنها كانت وكانت، وكان لي منها ولد)[2].

وفي موقف آخر من مواقف الغيرة قالت عائشة رضي الله عنها:

استأذنت هالة بنت خويلد ـ أخت خديجة ـ على رسول الله ﷺ، فعرف استئذان خديجة، فارتاع لذلك فقال: (اللهم هالة) قالت: فغرت فقلت: ما تذكر من عجوز من عجائز قريش، حمراء الشدقين[3]، هلكت في الدهر، قد أبدلك الله خيراً منها[4]؟

---

(١) القصب: اللؤلؤ المجوف.

(٢) رواه البخاري (٣٨١٦)، ومسلم (٢٤٣٥).

(٣) حمراء الشدقين: المقصود أن أسنانها قد سقطت فلم يبق في فمها بياض.

(٤) رواه البخاري (٣٨٢١)، ومسلم (٢٤٣٧).

وفي رواية عنها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: كان النبي ﷺ إذا ذكر خديجة أثنىٰ عليها فأحسن الثناء، قالت: فغرت يوماً فقلت: ما أكثر ما تذكرها حمراء الشدق، قد أبدلك الله خيراً منها!!

فقال: (ما أبدلني الله ﷻ خيراً منها، قد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله ﷻ ولدها إذ حرمني أولاد النساء)(١).

وعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: جاءت عجوز إلىٰ النبي ﷺ فقال: (كيف أنتم، كيف حالكم، كيف كنتم بعدنا؟) قالت: بخير بأبي أنت وأمي يا رسول الله.

فلما خرجت قلت: يا رسول الله، تقبل علىٰ هذه العجوز هذا الإقبال؟

فقال: (يا عائشة، إنها كانت تأتينا زمان خديجة، وإن حسن العهد من الإيمان)(٢).

هذه المواقف من الغيرة من امرأة بعد موتها تبين مكانتها عنده ﷺ، كما تبين حسن الوفاء منه ﷺ، وإن كان هذا الأمر أوضحَ من أن يبين.

لقد كانت خديجة هي الغائبة الحاضرة في حياته ﷺ لكثرة ما يذكره بها..

ولقد أكرمها الله سبحانه وتعالىٰ أيما إكرام في الحياة الدنيا قبل الآخرة. فعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: أتىٰ جبريل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، هذه خديجة قد أتت، معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب(٣)، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب(٤)، لا صخب فيه ولا نصب(٥).

---

(١) رواه الإمام أحمد، «الفتح الرباني» للبنا (٢٠/٢٤٠).

(٢) «فتح الباري» (١٠/٤٣٦) وقال: أخرجه الحاكم والبيهقي في «الشعب».

(٣) هذا الشك من راوي الحديث.

(٤) القصب: هو اللؤلؤ المجوف.

(٥) رواه البخاري (٣٨٢٠)، ومسلم (٢٤٣٢).

فأي تكريم أعظم من هذا التكريم ينزل جبريل عليه السلام، ليحمل لها السلام من ربها سبحانه وتعالىٰ ومعه البشارة بالجنة.

ورویٰ علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ قوله: (خير نسائها مريم ابنة عمران، وخير نسائها خديجة)[1].

أي أن كلاً منهما خير النساء في زمانها.

❋ ❋ ❋

كانت وفاتها قبل الهجرة بثلاث سنين، ودفنت بالحجون، ولم يكن يومئذ يُصلىٰ علىٰ الجنازة.

رحم الله خديجة، ورضي عنها، وأسكنها فسيح جناته.

❋ ❋ ❋

(٢)
أم المؤمنين سودة بنت زمعة
رضي الله عنها

كان ﷺ بعد وفاة خديجة رضي الله عنها بحاجة إلىٰ امرأة تسد بعض مكانها في رعاية بناته، والتخفيف عنه في بعض ما يصيبه من أذىٰ المشركين، هذا الأذىٰ الذي اشتدت وتيرته بعد موت عمه وزوجه.

وكان المسلمون يحسون بمعاناته ﷺ ويتمنون لو هيأ الله تعالىٰ له من تقوم بهذا الدور من رعاية بيت النبوة، وتخفيف بعض آلام عداوة قريش..

ولعل هذا الشعور هو الذي دفع خولة بنت حكيم زوجة عثمان بن مظعون إلىٰ الدخول علىٰ رسول الله ﷺ فتحادثه بهذا الأمر.

قالت خولة: يا رسول الله، ألا تتزوج؟ أفلا أخطب عليك؟

---

(١) رواه البخاري (٣٤٣٢)، ومسلم (٢٤٣٠).

قال: (بلىٰ، فإنكن ـ معشر النساء ـ أرفق بذلك).

قالت: إن أردت بكراً، وإن أردت ثيباً، أما البكر، فابنة أحب الخلق إليك عائشة، وأما الثيب، فسودة بنت زمعة، قد آمنت بك واتبعتك.

قال: (اذهبي فاذكريهما علي[1]).

***

وسودة: هي بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس القرشية، تزوجها السكران بن عمرو، أخو سهيل بن عمرو، وقد أسلمت هي وزوجها، وهاجرا إلىٰ الحبشة الهجرة الثانية، ثم عادا إلىٰ مكة مع من عاد من المهاجرين، وتوفي زوجها بعد العودة.

وتمت الخطوبة ثم الزواج، وانتقلت إلىٰ بيت النبي ﷺ.

ومرت الأيام.. وهاجر النبي ﷺ إلىٰ المدينة ونزل ضيفاً علىٰ أبي أيوب الأنصاري حتىٰ بنىٰ مسجده وحجرتين له، وأثناء ذلك بعث زيد بن حارثة وأبا رافع وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم إلىٰ مكة، فقدما عليه بفاطمة وأم كلثوم ابنتيه، وسودة بنت زمعة زوجته، وأسامة بن زيد، وأمه أم أيمن.. وخرج عبدالله بن أبي بكر معهم بعيال أبي بكر ومنهم عائشة، فنزلوا في بيت حارثة بن النعمان..[2].

فلما كمل بناء المسجد والغرفتين انتقلت سودة إلىٰ إحدىٰ هاتين الغرفتين التي أُعدت لتكون مسكناً لها.

ومن مواقفها التي اعتذرت عنها، موقفها يوم بدر.

تقول سودة: إني لعند آل عفراء إذ قيل لنا: هؤلاء الأسارىٰ قد أُتي بهم.

---

(١) «المواهب اللدنية» وعليها «شرح الزرقاني» (٢٢٨/٣)، وفي «الإصابة» عند ترجمتها.

(٢) «سيرة خير العباد» للإمام ابن القيم (ص٦٧) نشره المكتب الإسلامي.

قالت: فرجعت إلىٰ بيتي، ورسول الله ﷺ فيه، وإذا سهيل بن عمرو في ناحية من الحجرة، مجموعة يداه إلىٰ عنقه بحبل.

قالت: فلا والله ما ملكت نفسي حين رأيته كذلك، أن قلت: أي أبا يزيد، أعطيتم بأيديكم، ألا مُتُّم كراماً.

فوالله ما أنبهني إلا قول رسول الله ﷺ من البيت: (يا سودة، أعلىٰ الله ورسوله تحرضين؟).

قالت: قلت: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق، ما ملكت نفسي حين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه إلىٰ عنقه أن قلت ما قلت(١).

وكأنها لما رأت أخا زوجها السابق في الأسر، وهو ذلٌ وهوان، لم ترضَ له هذه الحالة، وتمنت لو بذل المزيد من المقاومة ولو أدّىٰ ذلك إلىٰ الموت بدل الأسر.

ويبدو أنها كانت من المفاجأة قد ذهلت علىٰ من كانت حربهم، نسيت أن حربهم كانت ضد رسول الله ﷺ، فقالت ما قالت. فلما نبّهها رسول الله ﷺ اعتذرت بأنها لم تملك نفسها..

إنه موروث من موروثات الجاهلية ـ بأن العربي لا يقبل الذل ـ قد طفىٰ علىٰ السطح في لحظة من اللحظات، تضخمت فيها الصورة التي أمامها وما فيه سهيل بن عمرو بعيداً عن الملابسات التي أدت به إلىٰ ذلك..

فاعتذرت من الرسول ﷺ، ولعله ﷺ قبل عذرها.

❊ ❊ ❊

ولما أسنّت سودة خافت أن يطلقها النبي ﷺ، وطلبت منه أن يبقيها في جملة أزواجه، ووهبت يومها لعائشة، «فكان النبي ﷺ يقسم لعائشة بيومها ويوم سودة»(٢).

---

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام (٦٤٥/١).

(٢) رواه البخاري (٥٢١٢)، ومسلم (١٤٦٣).

والحقيقة أن هذا كان مجرد شعور منها وخوف ربما سيطر عليها، ولم يكن لذلك ما يبرره.

وكانت تُضحك النبي ﷺ بعض الأحيان، فقد قالت له يوماً: صليت خلفك الليلة، فركعت بي حتىٰ أمسكت بأنفي مخافة أن يقطر دماً، فضحك النبي ﷺ(1).

وكانت شديدة الاتباع لأمره ﷺ، فقد روىٰ الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال لنسائه عام حجة الوداع: (هذه ثم ظهور الحصر) أي ثم الزمْنَ البيوت فلا تخرجن إلىٰ الحج مرة أخرىٰ. فكنىٰ النبي ﷺ بظهور الحصر عن ملازمتهن البيوت.

قال: فكنَّ كلهن يحججن إلا زينب وسودة فقالتا: والله لا تحركنا دابة بعد أن سمعنا ذلك منه ﷺ(2).

وقالت عائشة رضي الله عنها: «ما رأيت امرأة أحبَّ إليَّ أن أكون في مسلاخها(3) من سودة بنت زمعة، من امرأة فيها حدة»(4) إلا أنها كانت تسرع منها الفيئة(5).

وعن ابن سيرين: أن عمر رضي الله عنه بعث إلىٰ سودة بغرارة من دراهم، فقالت: ما هذه؟ قالوا: دراهم، قالت: في غرارة مثل التمر؟! ففرقتها(6).

وكانت مدة حياتها مع النبي ﷺ ـ منفردة به ـ قرابة خمس سنوات، ثلاثٍ منها في مكة، وثنتين في المدينة.

---

(1) «الإصابة» عند ترجمتها.
(2) «الفتح الرباني» للبنا (١٠٨/٢٢).
(3) مسلاخها: أي هديها وطريقتها.
(4) رواه مسلم (١٤٦٣).
(5) هذه الجملة زيادة عند أبي يعلىٰ، كما في «الفتح الرباني» (١٠٨/٢٢).
(6) «شرح الزرقاني علىٰ المواهب» (٢٢٩/٣).

وقد اختلف في تاريخ وفاتها، وجزم الذهبي بأنها ماتت في آخر خلافة عمر ﷺ، وروت عنه ﷺ خمسة أحاديث، في البخاري منها حديث واحد[1].

رحم الله أم المؤمنين سودة ورضي عنها.

* * *

(٣)
أم المؤمنين عائشة بنت الصديق
رضي الله عنها

عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، ولدت في الإسلام، وكانت تقول: لم أعقل أبويَّ إلا وهما يدينان الدين[2]، وأمها أم رومان، أسلمت قديماً، وهاجرت وتوفيت سنة ست من الهجرة.

رأينا عند الحديث عن سودة كيف قال النبي ﷺ لخولة بنت حكيم: (اذكريهما عليَّ) يعني سودة وعائشة.

وجاء في تتمة الحديث عند الإمام أحمد: قالت خولة: فدخلت بيت أبي بكر، فقلت: يا أم رومان، ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة؟ قالت: وما ذاك؟ قلت: أرسلني رسول الله ﷺ أخطب عليه عائشة، قالت: انتظري أبا بكر حتىٰ يأتي، فجاء أبو بكر فقلت: يا أبا بكر، ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة، قال: وما ذاك؟ قلت: أرسلني رسول الله ﷺ أخطب عليه عائشة، قال: وهل تصلح له، إنما هي ابنة أخيه؟ فرجعت إلىٰ رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له، قال: ارجعي إليه فقولي له: أنا أخوك وأنت أخي في الإسلام، وابنتك تصلح لي، فرجعت فذكرت له ذلك. قال: انتظري، وخرج.

قالت أم رومان: إن مطعم بن عدي قد ذكرها علىٰ ابنه، ووالله ما وعد أبو بكر وعداً قط فأخلفه، فدخل علىٰ مطعم بن عدي وعنده امرأته أم

---

(١) «شرح الزرقاني» (٣/٢٢٩).

(٢) رواه البخاري (٣٩٠٥).

الصبي، فقالت: يا ابن أبي قحافة، لعلك مصبي صاحبنا في دينك الذي أنت عليه إن تزوج إليك؟ فقال أبو بكر للمطعم بن عدي: أقَوْلَ هذه؟ يقول: إنها تقول ذلك. فخرج من عنده وقد أذهب الله ما كان في نفسه من عدته التي وعده، فرجع فقال لخولة: ادعي لي رسول الله ﷺ[1]..

وتمّ العقد.. وبعد الهجرة وفي شهر شوال تمّ الزواج.

وتصف لنا السيدة عائشة يوم الزواج فتقول: «تزوجني النبي ﷺ وأنا بنت ست سنين فقدمنا المدينة.. فأتتني أمي أم رومان، وإني لفي أرجوحة، ومعي صواحبي، فصرخت بي فأتيتها، لا أدري ما تريد بي، فأخذت بيدي حتىٰ أوقفتني علىٰ باب الدار، وإني لأنهج، حتىٰ سكن بعض نَفَسي، ثم أخذت شيئاً من ماء فمسحت به وجهي ورأسي، ثم أدخلتني الدار، فإذا نسوة في البيت من الأنصار، فقلن: علىٰ الخير والبركة، وعلىٰ خير طائر، فأسلمتني إليهن، فأصلحن من شأني، فلم يرعني إلا رسول الله ﷺ ضحىً، فأسلمتني إليه، وأنا يومئذ بنت تسع سنين»[2].

* * *

هذا ما جاء في قصة العقد والزواج، وللناس - من أعداء الإسلام - كلام بشأن هذا الزواج، فالرسول ﷺ كان في الثالثة والخمسين من عمره، وكانت هي في التاسعة، والذين يتكلمون في هذا الشأن بعيدون كل البُعد عن البيئة العربية يومئذ وعن أعرافها.

فقد رأينا كيف عرضت خولة عائشة علىٰ النبي ﷺ.

ورأينا كيف أن المطعم بن عدي كان قد ذكرها علىٰ ابنه.

ورأينا كيف أن أم رومان وأبا بكر لم يستنكرا طلب خولة لعائشة، ولم يقولا: إنها صغيرة.

---

(١) «البداية والنهاية» ٣/١٣١.

(٢) رواه البخاري (٣٨٩٤)، ومسلم (١٤٢٢).

فالزواج من الصغيرات كان أمراً متعارفاً عليه..

أما فارق السن، وكونه ﷺ في الثالثة والخمسين.. وأننا عندما نذكر هذا الرقم يتبادر إلىٰ الذهن الشيب والضعف، ونفسية أصابتها الشيخوخة..

فهنا لا بد من القول: بأن مرور الأعوام، وإن كان هو المقياس لأعمار الناس، فليس هو المقياس بالنسبة لحيوية الإنسان ونشاطه، وقدرته علىٰ المبادرة والعمل، فقد نجد إنساناً في الثلاثين، ولكنه يحمل بين جنبَيْه نفسية ابن الخمسين، وقد نجد ـ بعض الأحيان ـ إنساناً في الخمسين، ولكنه في حيويته ونشاطه ابن ثلاثين.

وشخصيته ﷺ فريدة في هذا الميدان، فهو ـ وهو في الخمسين ـ كان رجلاً في عنفوان شبابه همّة وعزماً ومضاءً ورجولة.. وكل حوادث السيرة تتحدث عن ذلك.

١ ـ فإنه ﷺ لما عرض نفسه علىٰ القبائل مرَّ علىٰ بني عامر بن صعصعة، وعرض عليهم أمره، فقال بيحرة بن فراس: والله لو أني أخذت هذا الفتىٰ من قريش لأكلت به العرب[١].

فقد وصفه بـ«الفتىٰ» وهو الشاب في مقتبل العمر، وقال «لأكلت به العرب» وهي كلمة تعبّر عما شاهده بيحرة من الحيوية المتدفقة والنشاط الفيّاض، وكان يومها في الخمسين من العمر.

٢ ـ وجاء في خبر الهجرة: إنه ﷺ أقبل إلىٰ المدينة وهو مردف أبا بكر، وأبو بكر شيخ يعرف، والنبي ﷺ شاب لا يعرف[٢].

ويلاحظ من النص بوضوح أن أبا بكر كان يبدو في سنِّه الحقيقي شيخاً، بينما كان النبي ﷺ يبدو شاباً، لعدم ظهور الشيب فيه.

٣ ـ وسأل العلاء بن زياد أنس بن مالك فقال: يا أبا حمزة، بسنِّ أي

---

(١) «سيرة ابن هشام» (١/٤٢٤).

(٢) «شرح الزرقاني علىٰ المواهب» (١/٣٥٥).

الرجال كان رسول الله ﷺ إذ بُعث؟ فقال: ابن أربعين سنة، قال العلاء: بسنِّ أي الرجال يوم قبضه الله إليه؟ قال: كأشب الرجال وأحسنه وأجمله وألحمه[1]. وقال: توفاه الله وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء[2].

إنه مظهر الشباب، لا مرية في ذلك، وأما الهمّة، فما عرفت البشرية مثل همّته، ويكفي أن نذكر أنه بدأ عمليات الكفاح المسلّح وقيادة الجيوش.. بعد زواجه من عائشة رضي الله عنها.

٤ ـ وفي حادثة التخيير: أن عمر دخل علىٰ رسول الله ﷺ في غرفة يصعد إليها بدرجات، وجاء في حديثه: «ثم نزل نبي الله ﷺ ونزلت، فنزلت أتشبث بالجذع ونزل رسول الله ﷺ كأنما يمشي علىٰ الأرض ما يمسه بيده»[3].

وهذا ما يبين شباب النبي ﷺ، علماً بأنه أكبر من عمر بأربعة عشر عاماً.. فعمر ينزل متمسكاً بالجذع وينزل ﷺ كأنما يمشي علىٰ الأرض.

وقد أضاف ﷺ مراعاته لصغر سنها، فكان يتعامل معها من ذلك الواقع، فها هو يسابقها مرة فتسبقه، ويسابقها مرة أخرىٰ فيسبقها فيقول: (هذه بتلك)[4].

وها هي تقول: كنت ألعب بالبنات عند النبي ﷺ، وكان لي صواحب يلعبن معي، فكان رسول الله ﷺ إذا دخل يتقمعن[5] منه، فَيُسَرِّبُهنَّ إليَّ فيلعبن معي[6].

وقد استمر هذا إلىٰ وقت متأخر نسبياً، فعند قدومه ﷺ من غزوة تبوك أو خيبر، كشف ناحية الستر علىٰ بنات لعائشة لعب، فقال: (ما هذا يا

(١) «البداية والنهاية» (٤/٣٢٧) من رواية للإمام أحمد.
(٢) رواه البخاري (٥٩٠٠)، ومسلم (٢٣٤٧).
(٣) رواه مسلم (١٤٧٩).
(٤) رواه أبو داود (٢٥٧٨)، وابن ماجه (١٩٧٩).
(٥) يتقمعن: أي يتغيبن حياء وهيبة منه.
(٦) رواه البخاري (٦١٣٠)، ومسلم (٢٤٤٠).

عائشة؟) قالت: بناتي، قالت: ورأىٰ فيها فرساً مربوطاً له جناحان، فقال: (ما هذا؟) قلت: فرس، قال: (فرس له جناحان؟) قلت: ألم تسمع أنه كان لسليمان خيل لها أجنحة؟ فضحك[١].

وفي الحديث المتفق عليه: أن الحبشة كانوا يلعبون بحرابهم في ساحة المسجد.. تقول السيدة عائشة: رأيت النبي ﷺ يسترني بردائه، وأنا أنظر إلىٰ الحبشة يلعبون في المسجد، حتىٰ أكون أنا التي أسأم. فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة علىٰ اللهو[٢].

وهكذا كان ﷺ يتعامل معها مراعياً سنها.

وفي قولها: «فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة علىٰ اللهو» تعقيباً علىٰ نظرها للعب الحبشة، تأكيد لمراعاته ﷺ لهذا الشأن. وطلبٌ من الأزواج أن يراعوا وضع زوجاتهم الصغيرات. الأمر الذي يدل دلالة واضحة علىٰ أن الزواج من الصغيرات كان أمراً مألوفاً متعارفاً عليه.

وإذن فليس هناك ما ينتقد عليه ﷺ وبخاصة إذا كان قد شرَّع بسلوكه كيفية التعامل في مثل هذه الحال.

* * *

وخلاصة ما سبق: أن المجتمع الذي كان فيه رسول الله ﷺ كان يقر أمر الزواج من الصغيرات، وأنه ﷺ جرىٰ علىٰ هذا العرف، وأضفىٰ عليه من سلوكه وحكمته ما يتناسب مع ذلك مما يجعله أمراً مقبولاً.

ولكن فريقاً من الفقهاء يمثلهم الإمام ابن شبرمة[٣]، لا يرىٰ هذا الرأي، بل يرىٰ أن زواجه ﷺ من عائشة بهذه السن يعدّ خصوصية من خصوصياته،

---

(١) رواه أبو داود (٤٩٣٢).

(٢) رواه البخاري (٥٢٣٦)، ومسلم (١٨/٨٩٢).

(٣) هو فقيه الكوفة، عبدالله بن شبرمة الضبي القاضي، روىٰ عن أنس والتابعين. قال أحمد العجلي: كان عفيفاً صارماً، عاقلاً يشبه النسّاك، شاعراً جواداً، توفي سنة أربع وأربعين ومائة للهجرة «شذرات الذهب».

شأنه شأن الزيادة على أربع زوجات وغير ذلك من الخصائص.

قال الإمام ابن حجر: «أجمعوا أنه يجوز للأب تزويج ابنته الصغيرة البكر، ولو كانت لا يوطأ مثلها، إلا أن الطحاوي حكى عن ابن شبرمة منعه فيمن لا توطأ، وحكى عنه ابن حزم المنع مطلقاً، فليس للأب أن يزوج بنته البكر الصغيرة، إلا إذا بلغت وأذنت، وزعم أن تزويج النبي ﷺ عائشة وهي بنت ست سنين كان من خصائصه»[1].

وما ذهب إليه ابن شبرمة ـ وإن كان مخالفاً للجمهور ـ له من الأدلة ما يجعله من القوة بحيث يعارض به رأي الجمهور، ومن هذه الأدلة:

١ ـ إن غاية عقد النكاح، هو إقامة الحياة الزوجية بين الزوجين، وهذا الأمر لا يمكن تحقيقه بالنسبة للصغيرة.

كما أنه ﷺ أمر الولي باستئذان البنت البكر في زواجها، في نصوص كثيرة تعد من أصح الأحاديث.

فما لم يتوفر البلوغ والإذن فإن العقد غير صحيح.

٢ ـ ومما يؤكد خصوصية زواج عائشة، ما أخرجه الشيخان عنها رضي الله عنها حيث قالت: قال لي رسول الله ﷺ: (رأيتك في المنام، يجيء بك الملك في سَرَقة[2] من حرير، فقال لي: هذه امرأتك، فكشفت عن وجهك الثوب، فإذا هي أنت، فقلت: إن يكُ هذا من عند الله يمضه). وفي رواية للبخاري: (أريتك في المنام مرتين). وفي رواية لمسلم: (رأيتك في المنام ثلاث ليال..)[3].

ورؤيا الأنبياء نوع من الوحي، فكان عقد هذا الزواج تنفيذاً لما جاء به الوحي.

---

(١) «فتح الباري» (٩/١٩٠).

(٢) سرقة: هي القطعة من الحرير الأبيض.

(٣) رواه البخاري (٣٨٩٥، ٥١٢٥)، ومسلم (٢٤٣٨).

٣ ـ وهذا ما يفسر لنا عقد الزواج في وقت مبكر قبل الزواج بثلاث سنين.

٤ ـ وردَّ الجمهور قول الخصوصية بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ٤﴾ [الطلاق].

فالآية تتحدث عن عدة النساء في حال الطلاق، فذكرت أولاً اللاتي يئسن من المحيض، ثم ذكرت اللاتي لم يحضن، وقالت بأن عدتهن ثلاثة أشهر.

وفسروا قوله: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ﴾ بالصغيرات اللواتي لم يبلغن سن الحيض.

وقالوا: إذا كانت الآية تتحدث عن عدة الطلاق لهن، فإن الطلاق لا يكون إلا بعد الزواج. وهكذا يتقرر زواج الصغيرات بهذه الآية خلافاً لما ذهب إليه ابن شبرمة.

والجواب عن هذا: أن الآية الكريمة ليست نصاً في الموضوع، فهي تتحدث عن اللواتي لم يحضن. وقد ذكر كثير من الفقهاء أن بعض النساء لا يحضن أصلاً، ولم يذكروا ذلك إلا عن واقع مشاهد(١)، والآية الكريمة تتحدث عن هذا الفريق من النساء، فهي نص فيه واحتمال بشأن الصغيرات.

---

(١) لقد تأكدت من قول الفقهاء هذا بنفسي، فسألت عدداً من الأطباء عن هذا الأمر ـ وهو وجود من لا تحيض من النساء ـ وقد أخبرني أحدهم، وهو ممن أثق به: أن امرأته تعمل مدرِّسة في إحدىٰ ثانويات البنات، وأن لها زميلتين في التدريس، إحداهما في الخامسة والعشرين، والثانية في الخامسة والثلاثين، وأنهما حتىٰ هذه السن لم تأتهما الدورة الشهرية، وأن أخاً لإحداهن تزوج ولم ينجب، وأنهما لم تتزوجا لسبب واحد، وهو أن الأهل كانوا يذكرون للخاطب هذا الأمر، فيرغب عن الزواج خوفاً من عدم الإنجاب.

٥ ـ إن نزول الوحي في بيت عائشة ـ باستثناءٍ قليل ـ دون بقية بيوت النبي مؤشر علىٰ الحكمة من زواج عائشة، كما سوف نتحدث، والذي هو بأمر إلهي.

إن هذه الأدلة وغيرها تجعل من رأي ابن شبرمة رأياً يستحق كثيراً من التأمل، وكثيراً من الإعجاب بهذا الإمام.

* * *

كان لا بد من هذه الوقفة عند زواج السيدة عائشة، لتجلية الأمر وبيان ما قيل فيه.

ونعود إلىٰ الحديث عنها، وإلقاء الضوء علىٰ بعض الجوانب في شخصها الكريم.

كانت ﵂ متوقدة الذكاء، سريعة البديهة، ذات عقل راجح.. خفيفة الحركة، بليغة في لغتها، قادرة علىٰ التأثير علىٰ الغير..

لهذا كله وغيره كانت أحب نساء النبي إليه، ولم تكن هذه المكانة سراً بل كانت أمراً يعرفه الجميع.

وقد سأل عمرو بن العاص النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أي الناس أحب إليك؟ قال: (عائشة) فقال: مِنَ الرجال؟ فقال: (أبوها)[1].

وعمرو إنما كان يسأل عن الرجال ليعرف مكانته عند النبي ﷺ، ولكن سؤاله كان عاماً، فجاء الجواب تبعاً للسؤال.

ولقد بات هذا الحب لعائشة معروفاً من قبل الصحابة، فإذا كان عند أحدهم هدية يريد أن يهديها إلىٰ النبي ﷺ، انتظر حتىٰ إذا كان في بيت عائشة بعث هديته إليه.

قالت عائشة: فاجتمع صواحبي إلىٰ أم سلمة فقلن: يا أم سلمة، والله

---

(١) رواه البخاري (٣٦٦٢)، ومسلم (٢٣٨٤).

إن الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة، وإنا نريد الخير كما تريده عائشة، فمري رسول الله ﷺ أن يأمر الناس أن يهدوا إليه حيث كان، أو حيث دار، قالت: فذكرت ذلك أم سلمة للنبي ﷺ، قالت: فأعرض عني، فلما عاد إلي ذكرت ذلك له، فأعرض عني، فلما كان في الثالثة ذكرت ذلك له، فقال: (يا أم سلمة، لا تؤذيني في عائشة، فإنه والله ما نزل علي الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها)[1].

***

ويتكشف لنا من خلال هذا الحديث أسباب هذا الحب:

فالزواج منها إنما كان بوحي من الله تعالىٰ، وبيتها كان مهبط الوحي..

علىٰ أن ذلك لم يكن ليؤثر علىٰ العدل الذي أقامه ﷺ بينهن.

أما ما طلبته أم سلمة، من خطابه ﷺ الناس أن يهدوا إليه حيث كان، فهو طلب دفعت إليه الغيرة، ولم يكن ﷺ ليفعل ذلك، لأن هذا الأمر يجافي المروءة، إذ ليس من المعقول أن يطلب إلىٰ الناس السلوك الذي ينبغي أن يفعلوه بهداياهم، وكأنه يذكرهم بفعل ذلك ويحثهم عليه.

***

إن ذكاءها أتاح لها أن تتبوأ مكانة علمية عالية بين الصحابة ﷺ، يضاف إلىٰ ذلك كثرة نزول الوحي في بيتها، وسماعها لأسئلة النساء اللواتي يسألن النبي ﷺ عن عبادتهن وشؤونهن، وكذلك سماعها خطب النبي ﷺ، ومصاحبتها له في معظم أسفاره.

إضافة إلىٰ ما كانت تسأل عنه النبي ﷺ من أحكام، وما كان يشكل عليها من فهم القرآن الكريم.

وكانت علىٰ معرفة بأسباب نزول الآيات، ومناسبات ورود الأحاديث، الأمر الذي هيأ لها ملكة فقهية قلّ نظيرها.

---

(١) رواه البخاري (٣٧٧٥).

ثم هي ـ باستثناء سودة ـ أطول نسائه صحبة له ﷺ، إذ تزوج بهن بعدها في فترات متقاربة.

وإن نظرة سريعة على إحصائية الأحاديث التي روتها، وما رواه غيرها من بقية أزواجه تبين لنا الدور الذي هيأها الله له.

فقد بلغ عدد أحاديثها التي روتها (٢٢١٠) أحاديث، تليها في ذلك أم سلمة وعدد أحاديثها (٣٧٨)، وميمونة (٧٦) حديثاً، وأم حبيبة (٦٥) حديثاً، وحفصة (٦٠) حديثاً، وكل من جويرة وسودة (٥) أحاديث، وزينب بنت جحش (٩) أحاديث، وصفية (١٠) أحاديث[١].

ولو جمعنا أحاديث أمهات المؤمنين جميعاً لم تبلغ ثلث ما روته عائشة، يضاف إلى ذلك فتاواها في شؤون المرأة وغير ذلك.

وقد جمعت إلى ذلك معرفةً بالشعر والأنساب والطب، حتى كان عروة بن الزبير يتملكه العجب من إحاطتها بكل هذه العلوم، فيقول لها متعجباً: إني لأتفكر في أمرك فأعجب، أجدك أفقه الناس، فقلت: ما يمنعها؟! زوجة رسول الله وابنة أبي بكر، وأجدك عالمة بأيام العرب وأنسابها وأشعارها، فقلت: وما يمنعها، أبوها علامة قريش، ولكن إنما أعجب أن وجدتك عالمة بالطب، فمن أين؟

وتجيبه رضي الله عنها فتقول: يا عُرَيَّةُ ـ تصغير عروة ـ إن رسول الله ﷺ كان يَسْقَم عند آخر عمره، فكانت تقدِمُ عليه وفود العرب من كل وجه فتنعت له الأنعات، وكنت أعالجها له، فتعلمت ذلك[٢].

وهكذا بقيت مرجعاً في العلم والفتوى قرابة نصف قرن، لا يشكل أمر، إلا ويكون عندها من العلم ما يحل ذلك الإشكال.

قال أبو موسى الأشعري: ما أشكل علينا ـ أصحاب رسول الله ﷺ ـ

---

(١) «السيرة النبوية الصحيحة» للعمري (٦٤٩/٢).

(٢) رواه أحمد، «الفتح الرباني» للبنا (١٢٤/٢٢).

حديث قط فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علماً[1].

وقال مسروق: والله لقد رأيت مشيخة أصحاب رسول الله الأكابر يسألون عائشة عن الفرائض[2].

وقال عطاء: كانت عائشة أفقه الناس، وأعلم الناس، وأحسن الناس رأياً في العامة[3].

وكانت قادرة علىٰ الإجابة علىٰ أسئلة لم يكن غيرها قادراً علىٰ الإجابة عليها، وذلك بسبب قربها منه ﷺ، قال الأسود: ذكروا عند عائشة أن علياً ﷺ كان وصياً، فقالت: متىٰ أوصىٰ إليه، وقد كنت مسندته إلىٰ صدري، فدعا بالطست، فلقد انخنث في حجري، فما شعرت أنه قد مات، فمتىٰ أوصىٰ إليه[4]؟

وهكذا فهي تقف علىٰ أرض ثابتة في إجابتها، فقد مرض رسول الله ﷺ في بيتها، ومات بين يديها[5].

* * *

وأما كرمها وسخاؤها، فلا يوازيه إلا علمها، فإنها ما كانت تمسك شيئاً.

أخرج ابن سعد من طريق أم درّة قالت: أُتيتْ عائشةُ بمائة ألف ففرقتها وهي يومئذ صائمة، فقلتُ لها: أما استطعت فيما أنفقت أن تشتري بدرهم لحماً تفطرين عليه؟ قالت: لو كنت أذكرتني لفعلت[6].

---

(١) رواه الترمذي (٣٨٨٣).

(٢) «مجمع الزوائد» (٢٤٢/٩) قال: رواه الطبراني وإسناده حسن.

(٣) «شرح الزرقاني علىٰ المواهب» (٢٣٤/٣) عن الحاكم وغيره.

(٤) رواه البخاري (٢٧٤١)، ومسلم (١٦٣٦)، ومعنىٰ «انخنث»: مال وسقط.

(٥) أكد ذلك ابن عباس بحديثه عند البخاري (٥٦٦٩)، ومسلم (١٦٣٧) أنه ﷺ لم يكتب شيئاً ولم يوصِ.

(٦) «الإصابة» عند ترجمتها.

وهكذا نسيت نفسها ووزعت مائة ألف وليس عندها ما تفطر عليه.

قال عروة: كانت عائشة لا تمسك شيئاً، فما جاءها من رزق الله تصدّقت به[1].

وباعت يوماً داراً لها وتصدّقت بثمنها، فلما بلغ ذلك عبدالله بن الزبير قال: والله لتنتهين عائشة أو لأحجرنَّ عليها، فلما بلغها قوله قالت: أهو قال هذا؟ قالوا: نعم، قالت: هو لله عليَّ نذر أن لا أكلم ابن الزبير أبداً.

فاستشفع ابن الزبير إليها حين طالت الهجرة، فقالت: لا والله! لا أشفع فيه أبداً ولا أتحنث في نذري.

فلما طال ذلك، احتال حتىٰ دخل عليها بمعية المسور بن مخرمة، وعبدالرحمٰن بن الأسود. ثم دخل عليها الحجاب فاعتنقها وطفق يبكي ويناشدها، وطفق المسور وعبدالرحمٰن يناشدانها.. فلما أكثروا عليها، طفقت تبكي وتقول: إني نذرت، والنذر شديد..

فلم يزالا حتىٰ كلمته، وأعتقت في نذرها ذلك أربعين رقبة.. وكانت تذكر نذرها بعد ذلك، فتبكي حتىٰ تبل دموعها خمارها[2].

* * *

وفضائل عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أكثر من أن تحصىٰ، الأمر الذي يصعب معه في مثل هذه المساحة المحدودة الإتيان علىٰ بعضه.

قال أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (فضل عائشة علىٰ النساء كفضل الثريد علىٰ سائر الطعام)[3].

وقال لها النبي ﷺ في يوم من الأيام: (يا عائشة، هذا جبريل يقرأ

---

(١) «فتح الباري» (١٠/٤٩٣).

(٢) رواه البخاري (٦٠٧٣).

(٣) رواه البخاري (٣٧٧٠)، ومسلم (٢٤٤٦).

عليك السلام) فقالت: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته، ترىٰ ما لا أرىٰ، تريد النبي ﷺ[1].

عاشت رضي الله عنها حياة مليئة بالفضائل.

ولما مرضت استأذن عليها ابن عباس رضي الله عنهما، وعندها ابن أخيها عبدالله بن عبدالرحمٰن، فقال: هذا ابن عباس يستأذن عليك وهو من خير بنيك.

فقالت: دعني من ابن عباس، أخاف أن يزكيني.

فقال: إنه قارئ لكتاب الله، فقيه في دين الله، فائذني له فليسلّم عليك وليودعك.

قالت: فائذن له إن شئت. فأذن له.

فدخل ابن عباس، ثم سلّم وجلس، وقال: كيف تجدينك؟

قالت: بخير إن اتقيتُ.

قال: فأنت بخير إن شاء الله، أبشري يا أم المؤمنين، فوالله ما بينك وبين أن يذهب عنك كل أذىٰ ونصب ـ أو قال وصب ـ وتلقي الأحبة، محمداً وصحبه، إلا أن تفارق روحك جسدك، كنتِ أحب أزواج النبي ﷺ إليه، ولم يكن يحب إلا طيباً، وأنزل الله براءتك من فوق سبع سموات، فليس في الأرض مسجد إلا وهو يتلىٰ فيه آناء الليل وآناء النهار، وسقطت قلادتك بالأبواء، فاحتبس النبي ﷺ في المنزل والناس معه في ابتغائها، حتىٰ أصبح الناس علىٰ غير ماء فأنزل الله ﷻ: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ الآية، فكان ذلك رخصة للناس عامة في سبيلك، فوالله إنك لمباركة.

فقالت: دعني يا ابن عباس من هذا، فوالله لوددت أني كنت نسياً منسياً.

ودخل ابن الزبير بعده ـ وقد خرج ابن عباس ـ فقالت: دخل ابن عباس فأثنىٰ عليّ، وددت أني كنت نسياً منسياً[2].

---

(١) رواه البخاري (٣٢١٧)، ومسلم (٢٤٤٧).

(٢) رواه أحمد، «الفتح الرباني» (١٢٦/٢٢)، وبعضه عند البخاري (٤٧٥٣).

وقالت له: لا تدفنّي معهم - تعني الرسول ﷺ وأبا بكر وعمر - وادفنّي مع صواحبي بالبقيع، لا أزكىٰ به أبداً[1].

وهذا من تواضعها رضي الله عنها.

وهو شبيه بموقفها يوم الأفك حين نزلت الآيات بتبرئتها، حيث قالت: «ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بوحي يتلىٰ، ولكن كنت أرجو أن يرىٰ رسول الله ﷺ رؤيا يبرئني الله بها».

قال ابن القيم رحمه الله: وتأمل هذا التشريف والتكريم الناشىء عن فرط تواضعها واستصغارها لنفسها[2].

توفيت ليلة الثلاثاء لسبع عشرة خلت من شهر رمضان، ودفنت من ليلتها بعد صلاة الوتر، وصلّىٰ عليها أبو هريرة رضي الله عنه.. ودفنت بالبقيع كما أوصت. رحمها الله تعالىٰ ورضي عنها وأجزل لها المثوبة.

❊ ❊ ❊

وبعد: فإن المتأمل لزواج الرسول ﷺ من عائشة، يدرك الحكمة الجليلة التي كانت وراءه، فقد تمّ في مطلع الحياة في المدينة، أي مع بداية مرحلة التشريع من حياته ﷺ، إذ كانت حياته في مكة مرحلة لبناء العقيدة وتربية السلوك.

والرسول ﷺ هو القدوة في كل جوانب الحياة، ومما لا شك فيه أنه ﷺ قضىٰ جزءاً كبيراً من حياته في بيته ومع أسرته، وكان لا بد من نقل سلوكه هذا إلىٰ الناس حتىٰ يتأسَّوا به ويسيروا علىٰ هدي خطاه.

وكانت هذه المهمة منوطة بالسيدة عائشة رضي الله عنها بما وهبها الله من ذكاء وفهم.. واستطاعت أن تؤدي هذه المهمة علىٰ خير ما يرام، وإن نظرة متفحصة لأي كتاب من كتب السنة لتؤكد ذلك.

---

(١) رواه البخاري (١٣٩١).

(٢) «جلاء الأفهام» (ص٤٨٣) تحقيق محيي الدين مستو.

وهذا ما يؤيد رأي ابن شبرمة من أن زواجها كان خصوصية من خصوصياته ﷺ، لأنه لو انتظرها حتىٰ تكون في الخامسة عشر أو في السادسة عشر، لكانت مضت معظم سنوات حياته ﷺ في المدينة، وبهذا تذهب حكمة الزواج منها.

ويؤكد هذه الخصوصية تزويجه ﷺ فاطمة من علي رضي الله عنهما بعد أن اعتذر من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، والذي سوف يأتي الحديث عنه عند الحديث عن فاطمة رضي الله عنها.

* * *

(٤)
أم المؤمنين حفصة بنت عمر
رضي الله عنهما

حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، ولدت قبل البعثة بخمس سنين، وأمها زينب بنت مظعون.

أسلمت حفصة وهاجرت مع زوجها خنيس بن حذافة السهمي رضي الله عنهما، وكان زوجها ممن هاجر إلىٰ الحبشة، وشارك في معركة بدر، ومات بعدها متأثراً بجراحه، في أصح الأقوال.

قال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: إن عمر بن الخطاب حين تأيّمت[1] حفصة بنت عمر من خنيس بن حذافة السهمي، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ قد شهد بدراً، توفي بالمدينة، قال عمر: فلقيت عثمان بن عفان[2]، فعرضت عليه حفصة فقلت: إن شئت أنكحتك حفصة بنت عمر، قال: سأنظر في أمري، فلبثتُ ليالي، فقال: قد بدا لي أن لا أتزوج يومي هذا.

---

(١) تأيمت: أي مات زوجها ومضت عدتها.

(٢) وكان ذلك بعد وفاة زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ.

قال عمر: فلقيت أبا بكر، فقلتُ: إن شئتَ أنكحتكَ حفصة بنت عمر، فصمتَ أبو بكر فلم يرجع إليّ شيئاً، فكنت عليه أوجد[1] مني على عثمان.

فلبث ليالي، ثم خطبها رسول الله ﷺ فأنكحتها إياه.

فلقيني أبو بكر فقال: لعلك وجدت عليَّ حين عرضت عليَّ حفصة فلم أرجع إليك؟ قلت: نعم، قال: فإنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت إلا أني قد علمت أن رسول الله ﷺ قد ذكرها، فلم أكن لأفشي سرَّ رسول الله ﷺ، ولو تركها لقبلتها[2].

وفي رواية لأبي يعلىٰ: أن عمر قال: يا رسول الله، ألا تعجب من عثمان، عرضت عليه حفصة، فأعرض عني، فقال النبي ﷺ: (قد زوّج الله عثمان خيراً من حفصة، وزوّج حفصة خيراً من عثمان)[3].

وانتقلت رَضِيَ اللهُ عَنْهَا إلىٰ بيت النبوة، وكانت أهلاً لذلك، فقد كانت صوَّامة قوَّامة.

وقالت عائشة في حقها: «إنها ابنة أبيها» تنبيهاً علىٰ فضلها[4].

وكان عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يشعر أن ابنته لن تكون مثل عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا التي اشتهر حب رسول الله ﷺ لها، ولذلك كان ينصح ابنته بين الفينة والفينة أن لا تسلك مسلك عائشة في معاملتها للرسول ﷺ، والعاقل من عرف قدر نفسه، فقد كانت عائشة تدل بمكانتها عنده ﷺ.

ومما كان يقوله: «أحذرك عقوبة الله، وغضب رسوله ﷺ، يا بنية، لا تغرنك هذه التي أعجبها حسنها، وحب رسول الله ﷺ إياها، يريد عائشة»[5].

---

(١) أوجد: أي أشد موجدة، أي غضباً.

(٢) رواه البخاري (٤٠٠٥).

(٣) «شرح الزرقاني على المواهب» (٢٣٧/٣).

(٤) «شرح الزرقاني على المواهب» (٢٣٧/٣).

(٥) رواه البخاري (٤٩١٣)، ومسلم (١٤٧٩).

وكان لهذه النصيحة أثرها في نفس حفصة رضي الله عنها.

ولما طعن عمر رضي الله عنه جعلها الوصية على تركته، ولذلك لما أراد عثمان رضي الله عنه نسخ المصحف وإرسال النسخ إلى الأقطار طلب منها أن ترسل له النسخة الأصل التي كانت عند عمر رضي الله عنه، فأرسلتها إليه، وأعادها إليها بعد تمام العمل في النسخ عنها.

روى عنها حديث رسول الله ﷺ جماعة من الصحابة والتابعين، منهم أخوها عبدالله وابنه حمزة، وحارثة بن وهب والمطلب بن أبي وداعة وغيرهم.

توفيت في شعبان سنة خمس وأربعين بالمدينة.

رحمها الله تعالى ورضي عنها.

❋ ❋ ❋

(٥)
أم المؤمنين زينب بنت خزيمة
رضي الله عنها

زينب بنت خزيمة بن الحارث الهلالية. وكانت تدعى في الجاهلية «أم المساكين» وذلك لكثرة عطفها عليهم.

ومن المعلوم أن لقباً من هذا النوع لا يكتسبه الإنسان، بفعل واحد أو اثنين، وإنما يشتهر بالأمر إذا أصبح سجية له وخلقاً، وأن يكون اكتساب هذه الشهرة في الجاهلية قبل الإسلام، لهو الدليل على كرم نفسها وطيب عنصرها.

ولما جاء الإسلام كانت الدواعي كثيرة لاستمرارها على هذا المنهج الخيِّر الذي يؤكده الإسلام ويدعو إليه.. وظلت بعد إسلامها تدعى «أم المساكين».

كانت زوجة لعبدالله بن جحش الذي استشهد يوم أحد، ودفن هو وحمزة رضي الله عنهما في قبر واحد.

وكانت عادة الصحابة ﷺ، أن من استشهد منهم، لا تترك زوجته بعد انقضاء عدتها وحيدة.. بل يتزوجها أحد الصحابة رعاية لها ولأولادها إن كان لها أولاد.

وكان للنبي ﷺ مساهمته في هذا الميدان.

فلما انقضت عدة زينب تقدم إليها رسول الله ﷺ خاطباً.. وتمّ الزواج وانتقلت إلىٰ حجرة بنيت لها بجانب حجرة عائشة وسودة..

والذي يبدو ـ والله أعلم ـ أن زواجه ﷺ منها لم يثر غيرة عائشة وحفصة ﵄، لعلمهما بدوافع الشفقة والرحمة التي كانت منه ﷺ وراء هذا الزواج.. أو أن مدة حياة زينب كانت قصيرة عنده ﷺ.. فلم يذكر أي حادث من حوادث الغيرة بينها وبين نسائه السابقات.

ولم تلبث زينب في بيت النبوة إلا شهرين أو ثلاثة، حيث توفاها الله تعالىٰ.

رحم الله أم المؤمنين زينب أم المساكين، ورضي عنها.

* * *

(٦)
أم المؤمنين أم سلمة بنت أبي أمية
﵂

هند بنت أبي أمية بن المغيرة المخزومي، كان أبوها يلقب: زاد الركب، وهو أحد أجواد العرب المشهورين، كان إذا سافر لم يحمل معه أحد من رفقته زاداً، بل كان يكفيهم. وأمها عاتكة بنت عامر، كنانية.

تزوجت ـ قبل رسول الله ﷺ ـ أبا سلمة بن عبد الأسد، ابن عمة النبي ﷺ برّة بنت عبد المطلب.

ولدت له: سلمة، وعمر، ودرة، وزينب.

وكانت هي وزوجها من أوائل الذين هاجروا إلىٰ الحبشة، وكانا ممن أسلم قديماً، وعادا إلىٰ مكة بعد هجرة الحبشة.

ثم هاجرا إلىٰ المدينة، ويقال إنها أول ظعينة دخلت المدينة مهاجرة.

وكانت هجرة زوجها إلىٰ المدينة قبل بيعة أصحاب العقبة بسنة، حيث بلغه إسلام بعض الأنصار فخرج إليها مهاجراً.

وتروي لنا أم سلمة قصة هذه الهجرة فتقول:

لما أجمع أبو سلمة الخروج إلىٰ المدينة، رحَّل لي بعيره ثم حملني عليه، وحمل معي ابني سلمة في حجري، ثم خرج يقود بي بعيره، فلما رأته رجال من بني المغيرة قاموا إليه، فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتك هذه، علامَ نتركك تسير بها في البلاد؟

قالت: فنزعوا خطام البعير من يده، فأخذوني منه.

قالت: وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد ـ رهط أبي سلمة ـ فقالوا: لا والله، لا نترك ابننا عندها، إذ نزعتموها من صاحبنا.

قالت: فتجاذبوا بنيَّ سلمةَ بينهم، حتىٰ خلعوا يده، وانطلق به بنو عبد الأسد، وحبسني بنو المغيرة عندهم. وانطلق زوجي أبو سلمة إلىٰ المدينة.

قالت: ففرق بيني وبين زوجي وبين ابني.

قالت: فكنت أخرج كل غداة فأجلس بالأبطح، فما أزال أبكي حتىٰ أمسي، سنة أو قريباً منها، حتىٰ مرَّ بي رجل من بني عمي، أحدُ بني المغيرة، فرأىٰ ما بي فرحمني، فقال لبني المغيرة: ألا تخرجون هذه المسكينة، فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها.

قالت: فقالوا لي: الحقي بزوجك إن شئت، قالت: وردَّ بنو عبد الأسد إليَّ عند ذلك ابني.

قالت: فارتحلت بعيري، ثم أخذت ابني فوضعته في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة، قالت: وما معي أحد من خلق الله.

قالت: فقلت: أتبلَّغ بمن لقيت حتىٰ أقدم علىٰ زوجي، حتىٰ إذا كنت بالتنعيم لقيتُ عثمان بن طلحة بن أبي طلحة[1]، أخا بني عبد الدار، فقال لي: إلىٰ أين يا بنت أبي أمية؟

قالت: فقلت: أريد زوجي بالمدينة. قال: أوَ ما معك أحد؟

قالت: فقلت: لا والله، إلا الله وبني هذا.

قال: والله ما لك من مترك، فأخذ بخطام البعير، فانطلق معي يهوي بي، والله ما صحبت رجلاً من العرب قط، أرىٰ أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي، ثم استأخر عني، حتىٰ إذا نزلت استأخر ببعيري، فحطَّ عنه، ثم قيّده في الشجرة، ثم تنحّىٰ عني إلىٰ شجرة فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح، قام إلىٰ بعيري فقدّمه فرحله، ثم استأخر عني، وقال: اركبي، فإذا ركبت واستويت علىٰ بعيري، أتىٰ فأخذ بخطامه، فقاده، حتىٰ ينزل بي، فلم يزل يصنع ذلك بي حتىٰ أقدمني المدينة، فلما نظر إلىٰ قرية بني عمرو بن عوف بقباء، قال: زوجك في هذه القرية ـ وكان أبو سلمة نازلاً بها ـ فادخليها علىٰ بركة الله، ثم انصرف راجعاً إلىٰ مكة.

فكانت تقول: والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة، وما رأيت صاحباً قط كان أكرم من عثمان بن طلحة[2].

ولما كانت غزوة بدر، شارك أبو سلمة في معركتها، وكذلك بعدها في معركة أحد، وأصيب بجرح فيها، ثم بَرِئَ، ثم انتقض بعد مشاركته في إحدىٰ السرايا، وتوفي في جمادىٰ الآخرة سنة أربع من الهجرة ﷺ[3].

---

(١) كان عثمان يومئذ علىٰ الكفر، وإنما أسلم في هدنة الحديبية، وهاجر قبل الفتح مع خالد بن الوليد، وبيده كانت مفاتيح الكعبة، وأبقاها ﷺ بيده ويد عقبه من بعده، قتل رَحِمَهُ اللهُ شهيداً بأجنادين في أول خلافة عمر ﷺ.

(٢) «سيرة ابن هشام» (٤٦٩/١).

(٣) «شرح الزرقاني علىٰ المواهب» (٢٣٩/٣).

قالت أم سلمة: وكنت سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما من مسلم تصيبه مصيبة، فيقول ما أمره الله: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهمّ أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيراً منها، إلا أخلف الله له خيراً منها).

قالت: فلما مات أبو سلمة، قلت: أي المسلمين خير من أبي سلمة؟ أول بيت هاجر إلىٰ رسول الله ﷺ، ثم إني قلتها، فأخلف الله لي رسول الله ﷺ.

قالت: أرسل إلي رسول الله ﷺ حاطب بن أبي بلتعة يخطبني له، فقلت: إن لي بنتاً[1] وأنا غيور، فقال: (أما ابنتها فندعو الله أن يغنيها عنها، وأدعو الله أن يذهب بالغيرة)[2].

وتمّ الزواج، وكانت أم سلمة امرأة عاقلة جميلة فقيهة.

تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: لما تزوج رسول الله ﷺ أم سلمة حزنت حزناً شديداً لما ذكر لنا من جمالها، قالت: فتلطفت لها حتىٰ رأيتها، فرأيتها والله أضعاف ما وصف لي في الحُسن والجمال، فذكرت ذلك لحفصة، فقالت: والله إن هذا إلا الغيرة، فتلطفت لها حفصة حتىٰ رأتها، فقالت لي: لا والله، ما هي كما تقولين، وإنها لجميلة، قلت: فرأيتها بعد فكانت كما قالت حفصة[3].

ومن مواقفها المشهودة ما كان من مشورتها يوم الحديبية:

فقد تمّ الصلح بين النبي ﷺ وبين قريش علىٰ شروط كانت في ظاهرها لمصلحة قريش، وفيها إجحاف بحق المسلمين بحسب رأي بعض الصحابة، حتىٰ قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه للرسول ﷺ: ألست نبي الله حقاً؟ قال:

---

(١) المراد أن لها بنتاً صغيرة هي بحاجة إلىٰ رعاية أمها، وإلا فقد سبق أن لها أربعة أولاد من زوجها أبي سلمة رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم (٩١٨).

(٣) «الإصابة» عند ترجمتها.

(بلىٰ) قال عمر: ألسنا علىٰ الحق وعدونا علىٰ الباطل؟ قال: (بلىٰ)، قال عمر: فلمَ نعطي الدنية في ديننا؟ قال: (إني رسول الله ولن أعصيه، وهو ناصري).

ولما أبرم الصلح أمر رسول الله أصحابه أن يتحللوا من عمرتهم فقال: (قوموا فانحروا ثم احلقوا).

فلم يقم أحد منهم، حتىٰ قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد، دخل علىٰ أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، وأنه أمرهم فلم يمتثلوا.. فقالت أم سلمة: يا نبي الله، أتحب ذلك؟ اخرج فلا تكلم أحداً منهم كلمة حتىٰ تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك.

فخرج ﷺ فلم يكلم أحداً منهم حتىٰ فعل ذلك، فنحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتىٰ كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً[1].

وهكذا فرّج الله عن المسلمين بمشورة أم سلمة رضي الله عنها.

* * *

وفي بيتها نزلت توبة أبي لبابة بن عبد المنذر، وكان ذلك في حصار بني قريظة وكان حليفاً لهم، فطلبوا من الرسول ﷺ أن يبعثه إليهم ليستشيروه في أمرهم. فلما وصل إليهم قام إليه الرجال، وجهش إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه، فرقّ لهم، وقالوا له: يا أبا لبابة، أترىٰ أن ننزل علىٰ حكم محمد؟ قال: نعم، وأشار بيده إلىٰ حلقه، إنه الذبح.

قال أبو لبابة: فوالله مازالت قدماي من مكانهما حتىٰ عرفت أني خنت الله ورسوله ﷺ.. ثم انطلق إلىٰ المسجد فربط نفسه إلىٰ سارية من سواريه.

---

(١) رواه البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢).

وبعد أيام نزلت توبته على رسول الله ﷺ من السحر، وهو في بيت أم سلمة.

قالت أم سلمة: سمعت رسول الله ﷺ من السحر وهو يضحك، فقلت: مِمَ تضحك يا رسول الله؟ أضحك الله سنّك.

قال: (تيب على أبي لبابة).

قالت: أفلا أبشره يا رسول الله؟

قال: (بلى، إن شئت).

فقامت إلى باب حجرتها ـ وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب ـ فقالت: يا أبا لبابة، أبشِر فقد تاب الله عليك..[1].

فكانت هي التي بشّرته بذلك.

* * *

ومن فضائلها ما رواه عمر بن أبي سلمة قال: نزلت هذه الآية على النبي ﷺ ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الأحزاب] في بيت أم سملة، فدعا النبي ﷺ فاطمة وحسناً وحسيناً فجلّلهم بكساء، وعلي خلف ظهره فجلّله بكساء، ثم قال: (اللهم هؤلاء أهل بيتي، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً).

قالت أم سلمة: وأنا معهم يا نبي الله؟ قال: (أنت على مكانك، وأنت إلى خير)[2].

* * *

(١) «سيرة ابن هشام» (٢/٢٣٦ ـ ٢٣٧).

(٢) رواه الترمذي (٣٢٠٥، ٣٧٨٧).

وفي بيتها نزلت توبة الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، وخُلّفوا حين قبل النبي ﷺ عذر من اعتذر إليه.

فقد جاء في حديث توبة كعب: فأنزل الله توبتنا علىٰ نبيه ﷺ حين بقي الثلث الآخر من الليل، ورسول الله ﷺ عند أم سلمة، وكانت أم سلمة محسنة في شأني.. فقال رسول الله ﷺ: (يا أم سلمة، تيب علىٰ كعب) قالت: أفلا أُرسل إليه فأبشره، قال: (إذاً يحطمكم الناس فيمنعونكم النوم سائر الليلة) حتىٰ إذا صلّىٰ الفجر آذن ﷺ بتوبة الله علينا[1].

* * *

وهذه الفضائل تارة تساق إليها بفضل الله تعالىٰ، وتارة تسعىٰ هي إليها، ومن ذلك:

ما جاء في «الصحيحين»، عن أبي موسىٰ ﷺ قال: كنت عند النبي ﷺ، وهو نازل بالجعرانة بين مكة والمدينة، ومعه بلال، فأتىٰ النبيَّ ﷺ أعرابي فقال: ألا تنجز لي ما وعدتني؟ فقال له: (أبشر) فقال: قد أكثرت عليَّ من أبشر.

فأقبل ﷺ علىٰ أبي موسىٰ وبلال ـ كهيئة الغضبان ـ فقال: (ردَّ البشرىٰ، فاقبلا أنتما) قالا: قبلنا.

ثم دعا بقدح فيه ماء، فغسل يديه ووجهه فيه، ومجَّ فيه، ثم قال: (اشربا منه، وأفرغا علىٰ وجوهكما ونحوركما وأبشرا).

فأخذا القَدَح ففعلا، فنادت أم سلمة من وراء الستر «أن أفضلا لأمكما»، فأفضلا لها منه طائفة[2].

* * *

---

(١) رواه البخاري (٤٦٧٧).

(٢) رواه البخاري (٤٣٢٨)، ومسلم (٢٤٩٧).

كانت أم سلمة آخر أمهات المؤمنين موتاً، وقد اختلف في تاريخ وفاتها علىٰ أقوال: بين سنة تسع وخمسين، وسنة ثلاث وستين من الهجرة[1] ودفنت بالبقيع، رحمها الله تعالىٰ ورضي عنها.

* * *

(٧)
أم المؤمنين زينب بنت جحش
رضي الله عنها

زينب بنت جحش بن رئاب الأسدية، وأمها أميمة بنت عبد المطلب عمة الرسول ﷺ.

دخلت زينب في الإسلام في وقت مبكر، واستشهد أخوها عبدالله في غزوة أُحد.

وقد طلبها رسول الله ﷺ لتكون زوجة لمولاه زيد بن حارثة، فترفعت عليه لشرف نسبها، والدافع لرسول الله ﷺ إلىٰ هذا الطلب ـ والله أعلم ـ أمران:

ـ محبته لزيد رضي الله عنه.

ـ ورغبته في إلغاء الفوارق الاجتماعية، فقد جاء الإسلام ليقول: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾.

وموقف الرفض من زينب يدعونا إلىٰ الحديث عن زيد، مَن هو زيد؟

* * *

زيد بن الحارث بن شراحيل، من بني كلب، وأمه: سعدىٰ بنت ثعلبة.

وجاء في قصته: أن أمه خرجت به لتزور أهلها، فتعرضا لهجوم بعض الأعراب الذين اختطفوا زيداً من أمه.. وذلك قبل الإسلام، ثم جاؤوا إلىٰ

---

(١) «شرح الزرقاني علىٰ المواهب» (٣/٢٤١).

مكة وعرضوه للبيع عبداً رقيقاً، فاشتراه حكيم بن حزام لعمته السيدة خديجة بنت خويلد، وبعد زواجها من الرسول ﷺ قدّمته هدية لزوجها.. فأحبّه الرسول ﷺ وأكرمه..

وكان أبوه يبحث عنه، فلما أخبر أنه بمكة، أسرع إليها مع عمه.. والتقيا بالرسول ﷺ وقالا له: يا ابن عبد المطلب، يا ابن سيد قومه، أنتم أهل حرم الله، تفكون العاني وتطعمون الأسير، وقد جئناك في ولدنا عندك فامنن علينا، وأحسن في فدائه.

فقال ﷺ: (وما ذاك؟)

قالوا: زيد بن حارثة.

قال: (أو غير ذلك، أدعوه فأخيره، فإن اختاركم فهو لكم، وإن اختارني فوالله ما أنا بالذي أختار علىٰ من اختارني فداء).

قالا: قد زدتنا علىٰ النَّصفَ وأحسنت.

فدعاه فقال: (هل تعرف هؤلاء؟)

قال: نعم، أبي وعمي.

قال ﷺ: (فأنا من قد علمت، وقد رأيتَ صحبتي لك، فاخترني أو اخترهما).

فقال زيد: ما أنا بالذي أختار عليك أحداً، أنت مني مكان أبي وعمي.

فقالا: ويحك يا زيد أتختار العبودية علىٰ الحرية؟ وعلىٰ أبيك وعمك وأهل بيتك؟

قال: نعم، قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه أحداً أبداً.

فلما رأىٰ رسول الله ﷺ ذلك، خرج إلىٰ الحجر فقال: أشهدكم أن زيداً ابني أرثه ويرثني.

فلما رأىٰ ذلك أبوه وعمه طابت نفوسهما وانصرفا.

ودعي بعد ذلك زيد ابن محمد، حتىٰ جاء الإسلام فنزل قوله تعالىٰ: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥] فدعي بعد ذلك: زيد بن حارثة(١).

* * *

تلك هي قصة زيد، فهو عربي أصيل، ولكن سحابة الرق التي خيّمت عليه فترة من زمن بقيت آثارها تلاحقه حتىٰ بعد تحرره وادعاء النبي ﷺ له..

فكان من الصعب أن تقبل زينب به زوجاً لها وهي القرشية.. ولكنها لما نزل قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦] قالت: إذن لا أعصي رسول الله ﷺ.

وتمّ الزواج.. وكانت زينب امرأة فيها حدة، فكان زيد يشكو ذلك إلىٰ رسول الله ﷺ.. ومضىٰ علىٰ ذلك عام أو نحوه ورسول الله ﷺ يقول له: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

ولكن ذلك لم يصلح الحال لأن زيداً لا يجد المعاملة التي يجدها بقية الأزواج من زوجاتهن، وزينب لا تستطيع أداء تلك الحقوق، وانتهت القضية إلىٰ الطلاق.

ولما انتهت عدتها أرسل الرسول ﷺ في خطبتها، ونزلت الآية الكريمة بقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الأحزاب] فقام ﷺ فدخل عليها بلا إذن ولا عقد ولا مهر.

---

(١) انظر ترجمته في «الإصابة».

فكانت زينبُ تفخر علىٰ أزواج النبي ﷺ تقول: زوجكن أهاليكن، وزوّجني الله تعالىٰ من فوق سبع سماوات[1].

وأولم رسول الله ﷺ بمناسبة زواجه من زينب فأشبع الناس، قال أنس ﷺ: ما رأيت النبي ﷺ أولم علىٰ أحد من نسائه ما أولم عليها، أولم بشاة[2].

وقال في رواية: فأشبع الناس خبزاً ولحماً[3].

ويبدو أن هذه الوليمة تكررت أكثر من مرة، فقد قال أنس: لما تزوج رسول الله ﷺ من زينب، صنعت أمي - أم سليم - حيساً فجعلته في تور - وعاء - وقالت: يا أنس، اذهب بهذا إلىٰ رسول الله ﷺ فقل: بعثت بهذا إليك أمي، وهي تقرئك السلام وتقول: إن هذا لك منا قليل يا رسول الله.

قال: فذهبت بها إلىٰ رسول الله ﷺ فقلت: إن أمي تقرئك السلام وتقول: إن هذا لك منا قليل يا رسول الله.

فقال: (ضعه) ثم قال: (اذهب فادعُ لي فلاناً وفلاناً وفلاناً ومن لقيت) وسمّىٰ رجالاً، قال: فدعوت من سمّىٰ ومن لقيت.

وسئل أنس: كم كان عدد المدعوين؟ فقال: زهاء ثلاثمائة.

وقال لي رسول الله: (يا أنس، هات التور) قال: فدخلوا حتىٰ امتلأت الصفة والحجرة، فقال رسول الله ﷺ: (ليتحلق عشرة عشرة وليأكل كل إنسان مما يليه) قال: فأكلوا حتىٰ شبعوا، ثم خرجوا ودخلت طائفة أخرىٰ.. حتىٰ أكلوا كلهم. فقال لي: (يا أنس ارفع) قال: فرفعت، فما أدري حين وضعت كان أكثر أم حين رفعت[4].

---

(١) رواه البخاري (٧٤٢٠).

(٢) رواه البخاري (٥١٦٨)، ومسلم (١٤٢٨).

(٣) رواه البخاري (٤٧٩٤)، ومسلم (١٤٢٨).

(٤) رواه مسلم (١٤٢٨).

فهذه الوليمة كانت على طعام أم سليم، وهي غير الوليمة التي قال عنها أنس: إنها كانت على شاة.

* * *

قال أنس: وبعد انتهاء الوليمة خرج الناس، وجلس ناس منهم يتحدثون في بيت رسول الله ﷺ، وهو جالس، وزوجته مولية وجهها إلى الحائط، فثقلوا على رسول الله ﷺ.

فخرج رسول الله فسلّم على نسائه ثم رجع، فلما رأوا رسول الله ﷺ قد رجع، ظنوا أنهم قد ثقلوا على رسول الله ﷺ، فابتدروا الباب فخرجوا، وجاء رسول الله ﷺ حتى أرخى الستر ودخل.

فلم يلبث إلا قليلاً حتى أُنزلت هذه الآية فخرج وقرأها على الناس وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾ [الأحزاب](١).

* * *

وهكذا نزلت الآية لتقرر أمرين:

- أدب الضيافة في بيوت النبي ﷺ.

- فرض الحجاب على النساء.

قال أنس رضي الله عنه: خدمت النبي ﷺ عشر سنين، وتوفي ﷺ وأنا ابن

---

(١) رواه مسلم (١٤٢٨).

عشرين سنة، فكنت أعلم الناس بشأن الحجاب حين أُنزل، وكان أول ما نزل في مبتنىٰ رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش[1].

❋ ❋ ❋

وكان هذا الزواج في السنة الخامسة من الهجرة.

وتصف عائشة زينب فتقول: هي التي كانت تساميني المنزلة عند رسول الله ﷺ، ولم أرَ امرأة قط خيراً في الدين من زينب وأتقىٰ للّه، وأصدق حديثاً وأوصل للرحم وأعظم صدقة، وأشد ابتدالاً لنفسها في العمل الذي تصدق به، وتقرب به إلىٰ الله تعالىٰ[2].

فقد عرف عنها أنها كانت تدبغ الجلود وتخرز الأحذية منها.. وتتصدق بذلك.

وجاء عند الحاكم بسنده: ما تركت زينب بنت جحش ديناراً ولا درهماً، كانت تتصدق بكل ما قدرت عليه، وكانت مأوىٰ المساكين.

وروىٰ ابن سعد عن برزة بنت رافع قالت: لما خرج العطاء أرسل عمر إلىٰ زينب بنت جحش بالذي لها، فلما أدخل عليها قالت: غفر الله لعمر، غيري من أخواتي كانت أقوىٰ علىٰ قسم هذا مني، قالوا: هذا كله لك، قالت: سبحان الله، واستترت منه بثوب وقالت: صبُّوه واطرحوا عليه ثوباً، ثم قالت: أدخلي يدك واقبضي منه قبضة فاذهبي بها إلىٰ بني فلان، من أهل رحمها وأيتامها، ففرقته حتىٰ بقيت منه بقية تحت الثوب، فقالت لها برزة: غفر الله لك يا أم المؤمنين، والله لقد كان لنا في هذا حق، قالت: فلكم ما تحت الثوب، فوجدنا تحته خمسة وثمانين درهماً، ثم رفعت يدها إلىٰ السماء فقالت: اللهم لا يدركني عطاء عمر بعد عامي هذا، فماتت. وفي رواية: اللهم لا يدركني هذا المال قابل فإنه فتنة[3].

---

(١) رواه البخاري (٥١٦٦).

(٢) رواه مسلم (٢٤٤٢).

(٣) «الفتح الرباني» للبنا (١٣٥/٢٢).

وقالت عائشة رضي الله عنها: إن بعض أزواج النبي ﷺ قلن له: أينا أسرع بك لحوقاً؟ قال: (أطولكن يداً) فأخذوا قصبة يذرعونها، فكانت سودة أطولهن يداً، فعلمنا بعد أنما كانت طول اليد بالصدقة، فكانت زينب أسرعنا لحوقاً به وكانت تحب الصدقة[1].

توفيت زينب بالمدينة سنة عشرين، وصلّىٰ عليها عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهي أول أزواج النبي ﷺ موتاً بعده، رحمها الله تعالىٰ ورضي عنها.

* * *

ولا بدَّ لنا بعد هذه الترجمة المختصرة للسيدة زينب، من الوقوف عند روايات باطلة تناقلها بعض كتّاب السيرة وبعض المفسرين عن غفلة منهم وعدم تمحيص، وجاء أعداء الإسلام فوجدوا فيها مرتعاً للنيل من رسول الله ﷺ.

وملخص هذه الروايات: أن الرسول ﷺ، رأىٰ زينب بنت جحش، زوجة زيد، فأحبّها ووقعت في قلبه، فقال: سبحان مقلّب القلوب، فسمعتها زينب، فأخبرت بها زيداً، فأراد أن يطلقها، فقال له الرسول ﷺ: (أمسك عليك زوجك) حتىٰ نزل القرآن يعاتبه علىٰ إخفائه.

وقد فسروا بهذه الروايات قوله تعالىٰ:

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الأحزاب].

قال ابن كثير في تفسيره عند هذه الآية: ذكر ابن أبي حاتم، وابن جرير، هاهنا آثاراً عن بعض السلف رضي الله عنهم أحببنا أن نضرب عنها صفحاً لعدم صحتها، فلا نوردها.

---

(١) رواه البخاري (١٤٢٠)، ومسلم (٢٤٥٢).

والموضوع: أن الله سبحانه وتعالىٰ أعلم نبيه أن زينب ستكون زوجة له بعد أن دبّ الخلاف بينها وبين زيد.

فالعتاب للنبي ﷺ في قوله لزيد: (أمسك عليك زوجك) بعد أن أعلمه الله أنه سيطلقها وستكون زوجة له بعده.

وهذا ما يفسر قوله تعالىٰ: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ وهو ما أعلمه الله أنها ستكون زوجته، وهذا هو الذي أخفاه.

قال علي بن الحسين زين العابدين والسدي: إن الله تعالىٰ أعلم نبيه أنها ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها، فلما أتاه زيد ليشكوها إليه قال له: (اتقِ الله وأمسك عليك زوجك)، فقال [تعالى]: قد أخبرتك أني مزوجكها وتخفي في نفسك ما الله مبديه[١].

ومعنىٰ ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ أي تخاف أن يقولوا: تزوج محمد حليلة ابنه.

وكانت حكمته تعالىٰ من هذا الزواج **إبطال عادة التبني**، وكل الأحكام المتعلقة بها، وهذا واضح كل الوضوح في التعليل القرآني الكريم ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾.

فهل بعد هذا التعليل الوارد في النص القرآني من مقال؟!

قال العلامة أبو بكر بن العربي: والآية صريحة في الرد علىٰ هذا البهتان، فإن الله سبحانه أخبر بأنه سيُظهر ما أخفاه الرسول ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ فماذا أظهر الله تعالىٰ؟ هل أظهر حب الرسول وعشقه لزينب؟ أم أن الذي أظهره هو أمره ﷺ بالزواج بها لحكمة عظيمة جليلة، هي إبطال حكم التبني الذي كان شائعاً في الجاهلية[٢].

(١) جاء هذا في «تفسير ابن كثير».

(٢) كتاب «صفوة التفاسير» عند الآية الكريمة السابق ذكرها.

والقصة باطلة من أصلها، والذين حبكوا عقدتها فاتتهم أشياء كثيرة غفلوا عنها، فالقصة تقول: إن الرسول ﷺ جاء إلىٰ بيت زيد فوقع نظره علىٰ زينب ولم يكن رآها..

ونتساءل:

- أليس الرسول ﷺ هو الذي خطبها علىٰ زيد، فما الذي كان يمنعه أن يخطبها لنفسه يومئذ لو كان له بها رغبة؟

- ثم ألم يكن الرسول ﷺ علىٰ علم بجمالها؟ فهي ابنة عمته وقريبته.

- ثم إن الحجاب لم يكن مفروضاً أو معمولاً به، فمن المتفق عليه أن الحجاب نزل عقب زواج النبي ﷺ من زينب.

لقد فات واضعي القصة هذه القضية المهمة التي تنقض ما بنوا.

ومن المؤسف أن هذه المسألة لم تبقَ في حدود كتب التفسير والسيرة، بل أخذت مكانها أيضاً في كتب الخصائص وكتب الفقه، ولا مجال لمناقشة الموضوع من هذه الزاوية فقد سبق لي أن عرضته في كتاب «من معين الخصائص النبوية» بما فيه البيان الشافي[(١)].

* * *

ومن المسائل التي تناولها ﷺ بالحل في حجرتها، ما أخرجه مسلم، عن عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث قال:

اجتمع ربيعة بن الحارث، والعباس بن عبد المطلب فقالا: والله، لو بعثنا هذين الغلامين - قالا: لي وللفضل بن عباس - إلىٰ رسول الله ﷺ فكلماه، فأمّرهما علىٰ هذه الصدقات، فأديا ما يؤدي الناس، وأصابا مما يصيب الناس.

---

(١) نشره المكتب الإسلامي، وجاء هذا الموضوع في الصفحات (١٣٧ - ١٤٣).

قال: فبينما هما في ذلك، جاء علي بن أبي طالب، فوقف عليهما، فذكرا له ذلك، فقال علي: لا تفعلا، فوالله ما هو بفاعل.

فانتحاه ربيعة بن الحارث فقال: والله، ما تصنع هذا إلا نفاسة منك علينا، فوالله لقد نلت صهر رسول الله ﷺ فما نفسناه عليك.

قال علي: أرسلوهما. فانطلقا، واضطجع علي.

قال: فلما صلّىٰ رسول الله ﷺ الظهر، سبقناه إلىٰ الحجرة، فقمنا عندها، حتىٰ جاء فأخذ بآذاننا، ثم قال: (أخرجا ما تصرران) ثم دخل ودخلنا عليه، وهو يومئذ عند زينب بنت جحش.

قال: فتواكلنا الكلام، ثم تكلم أحدنا، فقال: يا رسول الله، أنت أبر الناس وأوصل الناس، وقد بلغنا النكاح، فجئنا لتؤمرنا علىٰ بعض هذه الصدقات، فنؤدي إليك كما يؤدي الناس، ونصيب كما يصيبون.

قال: فسكت طويلاً حتىٰ أردنا أن نكلمه.

قال: وجعلت زينب تلمح علينا من وراء الحجاب: أن لا تكلماه.

قال: ثم قال: (إن الصدقة لا تنبغي لآل محمد، إنما هي أوساخ الناس).

ثم قال: (ادعوَا لي محمية ـ وكان علىٰ الخمس ـ ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب) فجاءا فقال لمحمية: (أنكح هذا الغلام ابنتك) للفضل بن عباس، فأنكحه، وقال لنوفل: (أنكح هذا الغلام ابنتك) لي، فأنكحني.

وقال لمحمية: (أصدق عنهما من الخمس كذا وكذا)[1].

* * *

(١) رواه مسلم (١٠٧٢).

(٨)
أم المؤمنين جويرية بنت الحارث
رضي الله عنها

جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار من بني المصطلق، وهم بطن من خزاعة.

كانت زوجة لمسافح بن صفوان المصطلقي، الذي قتل كافراً يوم المريسيع.

وسبب زواجها من الرسول ﷺ: أنه ﷺ بلغه أن بني المصطلق يجمعون له، وقائدهم الحارث بن أبي ضرار، فبعث ﷺ بريدة بن الحصيب الأسلمي يعلم له خبر ذلك، فسار إلىٰ الحارث وكلمه وتظاهر له أنه سيكون معه هو وقومه.. ثم رجع إلىٰ رسول الله ﷺ فأخبره الخبر.

فما كان منه ﷺ إلا أن أسرع الخروج إليهم وداهمهم علىٰ ماء يقال له: المريسيع، فقتل مقاتلتهم وسبىٰ ذراريهم وأسر رجالهم وفرّ من فرّ منهم.

ووقعت جويرية بنت الحارث في سهم ثابت بن قيس الأنصاري، فكاتبته علىٰ نفسها، وأتت رسول الله ﷺ تستعينه في كتابتها.

قالت عائشة: كانت جويرية امرأة حلوة ملاّحة، لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه، فأتت رسول الله ﷺ تستعينه في كتابتها، قالت: فوالله ما هو إلا أن رأيتها علىٰ الباب فكرهتها وعرفت أنه ﷺ سيرىٰ منها ما رأيت.

فقالت جويرية: يا رسول الله، أنا جويرية بنت الحارث، سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخفَ عليك، فوقعت في سهم لثابت بن قيس، فكاتبته علىٰ نفسي، وجئت أستعينك علىٰ كتابتي.

قال ﷺ: (فهل لك في خير من ذلك؟).

قالت: وما هو يا رسول الله؟

قال: (أقضي عنك كتابتك وأتزوجك).

قالت: قد فعلت.

وتسامع الناس أن رسول الله ﷺ قد تزوج جويرية، فأرسلوا ما في أيديهم من السبي فأعتقوهم، وقالوا: أصهار رسول الله ﷺ.

قالت عائشة: فما رأيت امرأة كانت أعظم بركة علىٰ قومها منها، أعتق في سببها مائة أهل بيت من بني المصطلق[1].

❋ ❋ ❋

وإن الإنسان ليقف أمام هذا الخبر طويلاً، كيف تجرؤ امرأة أن تطلب من النبي ﷺ الذي بدأ والدها بقتاله، أن تأتي إليه وتطلب منه مساعدتها في أداء كتابتها، لولا أن أخبار رحمته وعطفه ورقته قد عمَّت أرجاء الجزيرة العربية، ولعل بعض الصحابة هو الذي دلها علىٰ هذا الطريق، فقد كانوا ﵃ محبين لفعل الخير.

وحبهم لفعل الخير هو الذي دفعهم لإطلاق ما بأيديهم تكريماً لرسول الله ﷺ ولأصهاره الجدد.

وأما موقف عائشة، فهو موقف رائع، فجزاها الله خيراً، ما أشد إنصافها، فهي تذكر فضائل ضرّاتها، وتذكر هنا فضل جويرية علىٰ قومها..

وما هذا الموقف من عائشة بعجيب فهي الصديقة بنت الصديق.

❋ ❋ ❋

وانتقلت جويرية إلىٰ بيت النبوة، وعرفت الإسلام واقعاً عملياً، في شخص الرسول ﷺ، فأصبحت تسير علىٰ أثره.. ومن ذلك كثرة الذكر والدعاء والعبادة.

فقد أخرج مسلم عن جويرية ﵂: أن النبي ﷺ خرج من عندها بكرة حين صلّىٰ الصبح، وهي في مسجدها، ثم رجع بعد أن أضحىٰ، وهي جالسة،

---

(١) رواه أبو داود (٣٩٣١)، وهو في «سيرة ابن هشام» (٢/٢٩٥).

فقال: (ما زلتِ علىٰ الحال التي فارقتك عليها؟) قالت: نعم، فقال ﷺ: (لقد قلت بعدك أربع كلمات، ثلاث مرات، لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده، عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته)[1].

وهكذا علمها النبي ﷺ جوامع الكلم من الذكر والدعاء.

* * *

توفيت جويرية سنة خمسين من الهجرة، وصلّىٰ عليها مروان بن الحكم، وكان يومئذ أميراً علىٰ المدينة.

وكانت معروفة بكثرة تسبيحها وذكرها لله تعالىٰ.

رحمها الله تعالىٰ ورضي عنها.

* * *

(٩)
أم المؤمنين أم حبيبة بنت أبي سفيان
رضي الله عنها

أم حبيبة، رملة بنت أبي سفيان صخر بن حرب.

كانت زوجة لعبيدالله بن جحش، أخي عبدالله المستشهد بأحد، وأختهما أم المؤمنين زينب.

كان عبيدالله من الحنفاء الذين لم تعجبهم عبادة الأصنام فابتعدوا عنها، ولما جاء الإسلام دخل في دين الله هو وزوجته أم حبيبة، ثم هاجرا إلىٰ الحبشة مع من هاجر إليها في الهجرة الثانية، ومعهما ابنتهما حبيبة التي ولدت بمكة. وبعد مدة من الإقامة في الحبشة رأت أم حبيبة تغيراً في سلوك زوجها، ثم أعلن بعد ذلك ارتداده عن الإسلام ودخوله في النصرانية.. وعندها اعتزلته أم حبيبة، وعاش منفرداً وأكبّ علىٰ شرب الخمر.. إلىٰ أن مات.

---

(١) رواه مسلم (٢٧٢٦).

تقول أم حبيبة: فلما انقضت عدتي، فما شعرت إلا برسول النجاشي يستأذن، فإذا هي جارية يقال لها أبرهة، فقالت: إن الملك يقول لك: وكلي من يزوجك..

وقد بعث النبي ﷺ عمرو بن أمية إلىٰ النجاشي ليخطبها عليه، فكان النجاشي وكيلاً عن النبي ﷺ، وبعد موافقة أم حبيبة وكَّلت عنها خالد بن سعيد بن العاص لينوب عنها في إجراء العقد.

وتمّ العقد بحضور المسلمين عند النجاشي، الذي أمهرها من ماله عن النبي ﷺ أربعمائة دينار، وصنع لهم طعاماً بهذه المناسبة.

وتوكيل النبي ﷺ للنجاشي بهذه المهمة، دون غيره من المسلمين، إنما هو اعتراف منه ﷺ بفضل النجاشي في إيواء المسلمين، ونوع من ردّ الجميل، وكأنه ﷺ اعتبره مسؤولاً ـ نيابة عنه ـ عن تصريف شؤونهم، فكانت الخطبة إليه وجعله وكيلاً عنه.

***

ولما عاد جعفر بن أبي طالب وأصحابه من الحبشة كانت أم حبيبة في عداد العائدين إلىٰ المدينة، وصادف ذلك فتح خيبر فقال ﷺ: (ما أدري بأيهما أنا أسر، بفتح خيبر أم بقدوم جعفر).

كان زواجه ﷺ من أم حبيبة تكريماً لها وتقديراً لجهادها، فهي من المسلمين الأوائل، ومن المهاجرات إلىٰ الحبشة، ثم هي من الصابرات علىٰ الوحدة في الغربة بعد تنصُّر زوجها الأول. وهو حل لمشكلة كانت لديها، فهي ما كانت تستطيع العودة إلىٰ بيت أبيها، فقد كان يومئذ رأس الكفر، والعدو الأول للإسلام.. فكان هذا الزواج حلاً للمشكلة من جانب وتكريماً من جانب آخر.. إنها حكمته ﷺ..

ولما بلغ أبا سفيان خبر زواج رسول الله ﷺ قال: ذلك الفحل لا يُقْدَعُ أنفه. أي: هو الكريم.

***

ومن مواقفها التي تسجل لها: أن قريشاً عندما نقضت شروط صلح الحديبية وعاونت بني بكر ـ حلفاءها ـ على الإيقاع بخزاعة حلفاء النبي ﷺ.. جاء أبو سفيان إلى المدينة يريد رأب الصدع..

ودخل على ابنته أم حبيبة، فلما ذهب ليجلس على البساط.. أسرعت أم حبيبة وطوته عنه، فقال: يا بنية، ما أدري أرغبت بي عن هذا البساط أم رغبت به عني؟ قالت: بل هو بساط رسول الله ﷺ، وأنت رجل مشرك نجس، ولا أحب أن تجلس عليه.. قال: والله لقد أصابك يا بنية بعدي شر.

ومرت الأيام.. وفتحت مكة وأسلم أبو سفيان وابنه معاوية.. ودخل ﷺ يوماً على أم حبيبة فوجدها تدعو الله تعالى بقولها: اللهم أمتعني بزوجي رسول الله ﷺ، وبأبي أبي سفيان، وبأخي معاوية، فقال لها النبي ﷺ: (قد سألت الله لآجال مضروبة، وأيام معدودة، وأرزاق مقسومة، لن يعجل الله شيئاً قبل حلّه، أو يؤخر شيئاً عن حلّه، ولو كنت سألت الله أن يعيذك من عذاب في النار، أو عذاب في القبر، كان خيراً وأفضل)[1].

وأخرج ابن سعد، عن عائشة رضي الله عنها قالت: دعتني أم حبيبة عند موتها فقالت: قد كان يكون بيننا ما يكون بين الضرائر، فحلليني من ذلك، فحللتها واستغفرتُ لي واستغفرتُ لها، فقالت لي: سررتني سرّك الله. وأرسلت إلى أم سلمة بمثل ذلك. رضي الله عنهن جميعاً[2].

توفيت أم حبيبة في المدينة سنة أربع وأربعين من الهجرة، رحمها الله تعالى ورضي عنها.

* * *

(١) رواه مسلم (٢٦٦٣).

(٢) «شرح الزرقاني على المواهب» (٣/٢٤٥).

(١٠)

أم المؤمنين صفية بنت حيي

رضي الله عنها

صفية بنت حيي بن أخطب، كان أبوها سيد بني النضير.

كانت متزوجة قبل النبي ﷺ من كنانة بن أبي الحقيق الذي قتل يوم خيبر، ولم تلد له.

أما زواجها من الرسول ﷺ فقصته مرتبطة بفتح خيبر.

فبعد النجاحات التي أحرزها النبي ﷺ علىٰ صعيد جميع الميادين.. أصبحت خيبر هي مكمن الخطر المتوقع، فقد علم ﷺ أن اليهود في خيبر عازمون علىٰ غزو المدينة مستعينين بأهل تيماء وفدك ووادي القرىٰ، دون الاستعانة بأحد من العرب..

.. وفتح ﷺ خيبر.. وكان من نتائج ذلك أن وقع بأيدي المسلمين بعض السبي، وجاء دحية الكلبي إلىٰ النبي ﷺ فقال: يا نبي الله، أعطني جارية من السبي، فقال له: (اذهب فخذ جارية) فأخذ صفية، فجاء رجل إلىٰ النبي ﷺ فقال: يا نبي الله، أعطيت دحية صفية بنت حيي، سيدة قريظة والنضير، لا تصلح إلا لك، فقال: (ادعوه بها) فجاء بها فقال: (خذ جارية من السبي غيرها) وأعتقها النبي ﷺ وتزوجها[١].

والرسول ﷺ إنما أذن لدحية في جارية من عامة السبي، لا من أفضلهن نسباً وشرفاً، لأنه يوجد في الجيش مثل دحية ـ بل من هو مقدم عليه ـ كثير، فكيف والحالة هذه يمكن إقامة العدل.

قال أنس: وأقام النبي ﷺ بين خيبر والمدينة ثلاثاً، يبني بصفية، ودعوت المسلمين إلىٰ وليمته، فما كان فيها من خبز ولا لحم، وإنما أمر بالأنطاع، فألقي فيها التمر والأقط والسمن فكانت وليمته.

---

(١) رواه البخاري (٣٧١)، ومسلم (١٣٦٥م).

وتساءل المسلمون: هل هي إحدىٰ أمهات المؤمنين، أم هي مما ملكت يمينه؟ فقالوا: إن حجبها فهي من أمهات المؤمنين، وإن لم يحجبها فهي مما ملكت يمينه.

فلما أراد ﷺ أن يرتحل حجبها.. فتبين أنها إحدىٰ أمهات المؤمنين[١].

ولما كانوا علىٰ أبواب المدينة.. والنبي ﷺ مردف خلفه صفية، وأبو طلحة وأنس بالقرب منه، عثرت ناقة النبي ﷺ فصرع النبي وصفية.. فاقتحم أبو طلحة عن بعيره وأتىٰ النبي ﷺ فقال: يا نبي الله، جعلني الله فداك، هل أصابك شيء؟ قال: (لا، ولكن عليك بالمرأة) فألقىٰ أبو طلحة ثوبه علىٰ وجهه وقصد قصدها، فألقىٰ ثوبه عليها، فقامت المرأة، فشدّ لهما علىٰ راحلتهما فركبا[٢].

ولما وصل ﷺ المدينة أنزل صفية في بيت لحارثة بن النعمان، فسمع نساء الأنصار فجئن ينظرن إلىٰ جمالها، وجاءت عائشة متنقبة، فلما خرجت خرج رسول الله ﷺ علىٰ أثرها، فقال: (كيف رأيت يا عائشة؟) قالت: رأيت يهودية، قال: (لا تقولي ذلك فإنها أسلمت وحسن إسلامها)[٣].

ومن أخبارها: أنها قالت للنبي ﷺ في وجعه الذي توفي فيه: والله، يا نبي الله، لوددت أن الذي بك بي. فغمزها أزواجه، فأبصرهن فقال: (مضمضن) قلن: من أي شيء؟ قال: (من تغامزكن بها، والله إنها لصادقة)[٤].

---

(١) رواه البخاري (٥٠٨٥).

(٢) رواه البخاري (٣٠٨٦) ويستوقف القارئ في هذا الخبر أمران:

الأول: أنه ﷺ رغم انتصاره لا يجد بعيراً آخر تركب عليه صفية الأمر الذي اضطره أن يردفها خلفه.

والثاني: سرعة بديهة أبي طلحة أنه حينما اتجه إلىٰ صفية وضع الثوب علىٰ وجهه واتجه إليها حتىٰ لا يراها وهي متكشفة نتيجة وقوعها.

(٣) «شرح الزرقاني علىٰ المواهب» (٢٥٩/٣).

(٤) «شرح الزرقاني» نقلاً عن ابن سعد (٢٥٩/٣).

كانت صفية عاقلة حليمة فاضلة، فقد أتت جاريةٌ لها عمرَ بن الخطاب ﷺ، فقالت: إن صفية تحب السبت وتصل اليهود، فبعث عمر فسألها فقالت: أما السبت فإني لم أحبه منذ أبدلني الله به الجمعة، وأما اليهود فإن لي فيهم رحماً، فأنا أصلهم. ثم قالت للجارية: ما حملك على هذا؟ قالت: الشيطان، قالت: اذهبي فأنت حرة[1].

وهكذا كافأت الإساءة بالمعروف.

توفيت في رمضان سنة خمسين من الهجرة، رحمها الله تعالى ورضي عنها.

* * *

(١١)
أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث
رضي الله عنها

ميمونة بنت الحارث بن بجير الهلالية، وأمها هند بنت عوف بن زهير بن الحارث، ولميمونة أخوات شقيقات وأخوات لأم.

ومن شقيقاتها: لبابة الكبرى، زوجة العباس عم الرسول ﷺ وأم أولاده.

ومن أخواتها لأمها: زينب بنت خزيمة التي تزوجها الرسول ﷺ، وكانت توصف بأم المساكين، والتي توفيت عند النبي ﷺ بعد زواجها بشهرين أو أكثر قليلاً.

وأسماء بنت عميس زوجة جعفر بن أبي طالب، وقد تزوجت بعده أبا بكر ثم علي ﷺ.

---

(١) «شرح الزرقاني» (٣/٢٥٩).

وسلمىٰ بنت عميس ـ أخت أسماء ـ تزوجت حمزة بن عبد المطلب ﷺ.

وميمونة هي خالة خالد بن الوليد[1]، وكذلك خالة ابن عباس ﷺ.

❋ ❋ ❋

عندما اعتمر النبي ﷺ عمرة القضاء، وفقاً لاتفاق صلح الحديبية مع قريش وذلك سنة سبع من الهجرة، التقىٰ النبي ﷺ بالعباس عمه، فعرض عليه الزواج من ميمونة التي جعلت أمرها إلىٰ العباس، فوافق ﷺ علىٰ ذلك، ولعل زوجة العباس كانت وراء هذا الموضوع.

كانت ميمونة زوجة لأبي رهم بن عبد العزىٰ العامري فتوفي عنها.

وكان ﷺ يريد إطالة مكوثه في مكة، فرأىٰ أنه لو استأذن قريشاً في إقامة الوليمة قبل أن يغادر مكة، ولكنه في الثالث من إقامته بمكة وهي المدة المتفق عليها، أتاه حويطب بن عبد العزىٰ وسهيل بن عمرو ـ وقد أسلما بعد ذلك ـ في نفر من قريش، فقالوا له: قد انقضىٰ أجلك، فاخرج عنا، فقال: (وما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم، وصنعت لكم طعاماً، فحضرتموه)، فقالوا: لا حاجة لنا بك ولا بطعامك. فغضب سعد بن عبادة، وقال لسهيل بن عمرو: كذبت، لا أم لك، ليست بأرضك ولا أرض أبيك، والله لا يبرح إلا طائعاً راضياً. فتبسّم النبي ﷺ وقال: (يا سعد! لا تؤذِ قومنا، زارونا في رحالنا).. فخرج[2].

لقد كانت هذه العمرة فرصة للقاء المسلمين من المهاجرين مع أقربائهم ممن لم يكن أسلم، مما كان له الأثر الكبير في تعرُّف قريش علىٰ

---

(١) أم خالد بن الوليد: لبابة الصغرىٰ أخت لبابة الكبرىٰ زوج العباس.
(٢) «شرح الزرقاني علىٰ المواهب» (٣/٢٥١).

الإسلام.. ولقد رأينا بعد هذه العمرة كيف استقبلت المدينة خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة.. وقد جاؤوا مسلمين..

ولهذا كان حرصه ﷺ علىٰ البقاء في مكة فترة أطول، ولكن قريشاً لم توافق.

وخرج ﷺ من مكة حتىٰ إذا كان بمكان يسمىٰ «سرف» قرب التنعيم علىٰ بُعد تسعة أميال من مكة، نصب الخيام وأعرس بميمونة.

ومن بيت ميمونة نقل لنا ابن عباس رضي الله عنهما كيفية صلاة رسول الله ﷺ في تهجده، فقد نام ليلة في بيتها - وهي خالته - وكان رسول الله ﷺ عندها.. ونقل لنا صلاته ودعاءه. كما جاء ذلك في «الصحيحين»[1].

ومن بيت ميمونة ننقل المشهد التالي: قال ابن عباس: أخبرني خالد بن الوليد أنه دخل مع رسول الله ﷺ علىٰ ميمونة - وهي خالته وخالة ابن عباس - فوجد عندها ضباً محنوذاً[2] قدمت به أختها حُفيدة بنت الحارث من نجد، فقدَّمت الضب لرسول الله ﷺ، وكان قلما يقدِّم يده لطعام حتىٰ يحدَّث به ويسمىٰ له، فأهوىٰ رسول الله ﷺ يده إلىٰ الضب، فقالت امرأة من النسوة الحضور: هو الضب يا رسول الله، فرفع يده عنه. فقال خالد بن الوليد: أحرام الضب يا رسول الله؟ قال: (لا، ولكن لم يكن بأرض قومي فأجدني أعافه)[3] قال خالد: فاختززته فأكلته، ورسول الله ﷺ ينظر إلي[4].

توفيت ميمونة سنة إحدىٰ وخمسين للهجرة بسرف، ودفنت في الموضع الذي بنىٰ بها ﷺ فيه، رحمها الله تعالىٰ ورضي عنها.

وهي آخر من تزوج بهن ﷺ.

* * *

---

(١) رواه البخاري (١٨٣، ٦٣١٦)، ومسلم (٧٦٣).

(٢) محنوذ: مشوي.

(٣) أعافه: لا أرغب به.

(٤) رواه البخاري (٥٣٩١)، ومسلم (١٩٤٦).

(١٢)
جاريتان

كان للنبي ﷺ جاريتان:

● **الأولىٰ**: وهي ريحانة بنت شمعون بن زيد، من بني النضير، وكانت متزوجة رجلاً من بني قريظة يقال له الحكم.

ولما كانت غزوة بني قريظة ـ بعد غزوة الأحزاب ـ قتل زوجها، ووقعت في السبي، واصطفاها ﷺ لنفسه.

وعرض عليها الإسلام، فأبت إلا البقاء علىٰ دينها، فوجد رسول الله ﷺ عليها في نفسه.. ثم شرح الله صدرها للإسلام فآمنت بالله ورسوله ﷺ.

وعرض عليها ﷺ أن يعتقها ويتزوجها، ويضرب عليها الحجاب، فقالت: يا رسول الله، بل تتركني في ملكك، فهو أخف عليَّ وعليك، فتركها.

وتوفيت عندما رجع ﷺ من حجة الوداع، ودفنت بالبقيع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

* * *

● **والثانية: هي مارية بنت شمعون.**

وجاء في قصة وصولها إلىٰ الرسول ﷺ، أنه ﷺ بعث حاطب بن أبي بلتعة إلىٰ المقوقس صاحب الإسكندرية، عظيم القبط..

فأكرم المقوقس حاطباً، وقارب الإسلام ولم يسلم، وأرسل هدية إلىٰ النبي ﷺ، وكانت هذه الهدية: جاريتان هما: مارية وأختها سيرين، وغلاماً خصياً اسمه مأبور، وبغلة شهباء هي «دلدل»..

وفي الطريق عرض حاطب الإسلام علىٰ مارية وأختها فأسلمتا..

ولما وصل المدينة قدّم الهدية إلىٰ الرسول ﷺ.. فاحتفظ ﷺ بمارية

لنفسه، وأنزلها في العالية، وكان يختلف إليها هناك، وكان يطؤها بملك اليمين، وضرب عليها مع ذلك الحجاب، فحملت منه ووضعت هناك ابنه إبراهيم. وهكذا أصبحت أم ولد.

وأما أختها سيرين فقد أهداها ﷺ لشاعره حسان بن ثابت ﷺ.

وقد عاشت مارية بعده ﷺ، حيث توفيت في خلافة عمر ﷺ سنة ست عشرة للهجرة، ودفنت بالبقيع ﷺ.

الفصل الثاني
بيوت النبي ﷺ

من المعروف أن النبي ﷺ عندما هاجر إلىٰ المدينة، نزل في بيت أبي أيوب الأنصاري، وعندما بنىٰ مسجده الشريف بنىٰ بجانبه غرفتين، واحدة منهما لزوجته سودة بنت زمعة، والأخرىٰ أُعدت لعائشة، وكان قد عقد عليها.

كانت القبلة يومئذ إلىٰ بيت المقدس، وكانت الغرفتان في مؤخرة المسجد من الجهة الشرقية، فلما تحولت القبلة إلىٰ الكعبة المشرفة أصبحتا في مقدمة جدار المسجد، إلىٰ يسار المصلي عندما يتوجه إلىٰ الكعبة.

وأما بقية الغرف فلم تبنَ إلا عند الحاجة إليها، فكان النبي ﷺ كلما أحدث زواجاً بنىٰ غرفة.

قال ابن سعد: كانت لحارثة بن النعمان منازل قريبة من المسجد، فكلما أحدث رسول الله ﷺ أهلاً تحول له حارثة عن منزل، حتىٰ قال النبي ﷺ: (لقد استحييت من حارثة مما يتحول لنا عن منازله).

وحارثة بن النعمان صحابي أنصاري شهد بدراً والمشاهد كلها، وكف بصره في آخر حياته، وكان من أبر الناس بأمه ﷺ.

وفعل حارثة كرم يسجل له، ولكنه مما لا شك فيه أنه ﷺ كافأه علىٰ ذلك، فإن كان فعله هدية فقد كان ﷺ يكافئ علىٰ الهدية بأضعافها، وقد يكون اشترىٰ منه هذه المنازل ويعطيه ثمنها، ويشكر له فعله لأنه أتاح له أن تكون بيوت أزواجه قريبة من بعضها قريبة من المسجد، وقد رأينا أنه لم يقبل أرض المسجد حتىٰ دفع ثمنها.

والمقصود بـ«المنازل» الأرض التي تبنىٰ عليها المنازل.

وكانت هذه البيوت كلها في شرقي المسجد، علىٰ يسار المصلي.. كما سبق ذكر ذلك.

وأما بناؤها فكان من اللبن، وسقفها من الجريد، وكانت تسعة أبيات.

وكان لأربعة منها حجر من جريد، والمقصود بالحجرة: الفسحة تكون أمام الغرفة محاطة بشيء يمنع دخول الناس إليها، وكان سور هذه الغرف الجريد المقوىٰ بالطين.

وكان لهذه الغرف والحجرات أبواب وستور، فقد روي أن باب غرفة عائشة كان بمصراع واحد من خشب العرعر أو الساج، كما روي أن باب النبي ﷺ كان يُقرع بالأظافر.

وجاء في الحديث أن آخر نظرة نظرها ﷺ لأصحابه، أنه رفع الستر..

والذي يبدو لي أن الغرف كان لها أبواب من خشب، وأما الحجرات التي أمام الغرف، فكانت عليها الستور.

وهذه الستور كانت من مسوح الشعر، وقد قاس عمر بن أبي أنيس واحداً منها فكان طوله ثلاثة أذرع، وعرضه ذراع.

ويحسن بنا أن نترك وصف هذه الغرف والحجر إلىٰ من رآها:

قال عبدالله بن زيد الهذلي: رأيت بيوت أزواج النبي ﷺ حين هدمها عمر بن عبدالعزيز، كانت بيوتاً باللبن، ولها حجر من جريد مطرورة بالطين.

وقال عطاء الخراساني: أدركت حجر أزواج رسول الله ﷺ من جريد النخل علىٰ أبوابها المسوح من شعر أسود، فحضرت كتاب الوليد بن عبدالملك يُقرأ، يأمر بإدخالها في المسجد، فما رأيت أكثر باكياً من ذلك اليوم.

وأما مقاييسها: فقد قال الحسن البصري: كنت أدخل بيوت أزواج النبي ﷺ في خلافة عثمان بن عفان فأتناول سقفها بيدي.

وروىٰ البخاري في «الأدب المفرد»، عن داود بن قيس قال: رأيت الحجرات من جريد النخل مغشاة من خارج بمسوح الشعر، وأظن أن عرض البيت من باب الحجرة إلىٰ باب البيت نحواً من ستة أو سبعة أذرع، ومن داخل عشرة أذرع، وأظن سمكه بين الثمان والسبع(١).

قال عمر بن أبي أنس: كان منها أربعة أبيات لها حجر من جريد، وكانت خمسة أبيات لا حجر لها.

وعلىٰ هذا فالحجر نوعان: أربع منها عبارة عن غرفة واحدة وأمامها فسحة، والباقي غرف فقط.

ومقاييس النوع الأول: الفسحة من ٣ ـ ٣,٥ متراً. والغرفة (٥) أمتار طولاً وعرضها ما بين ٣ ـ ٣,٥ متراً، وأما الارتفاع فهو بمقدار ما يقف الإنسان ويمد يده أي ٢,٢٥ ـ ٢,٥ متراً.

والنوع الثاني غرفة فقط بطول (٥) أمتار وعرض من ٣ ـ ٣,٥ متراً.

إنها بشكل عام غرف ضيقة، فقد ورد في الحديث الصحيح: أن النبي ﷺ كان إذا أراد السجود في صلاة الليل غمز عائشة فكفت رجليها ريثما يسجد، فإذا قام بسطتهما.

ولا شك بأن أزواج النبي كنّ حريصات علىٰ إصلاح هذه الغرف بحدود استطاعتهن فقد حدث أثناء غياب الرسول ﷺ في غزوة دومة الجندل أن أم سلمة بَنَتْ حجرتها باللبن بدلاً من الجريد، فلما قدم رسول الله ﷺ نظر إلىٰ اللبن فقال: (ما هذا البناء؟) قالت: أردت يا رسول الله أن أكف أبصار الناس، فقال: (يا أم سلمة إن شر ما ذهب فيه مال المسلمين البنيان).

❋ ❋ ❋

(١) «الأدب المفرد» رقم (٤٥١).

بقيت هذه البيوت حتىٰ أمر عبدالملك بن مروان بهدمها توسعة للمسجد النبوي الشريف، ويبدو أن هدمها كان تصرفاً من حاكم بحكم منصبه، أما أهل الرأي فلم يكونوا راضين عن ذلك:

قال عطاء: سمعت سعيد بن المسيب يقول يوم هدمت: والله لوددت أنهم تركوها علىٰ حالها، ينشأ ناشئ من أهل المدينة، ويقدم القادم من الأفق، فيرىٰ ما اكتفىٰ به رسول الله ﷺ في حياته، فيكون ذلك مما يزهد الناس في التفاخر والتكاثر.

وقال عمر بن أبي أنس: لقد رأيتني ـ يوم هدمت ـ في مجلس فيه نفر من أبناء أصحاب رسول الله ﷺ، منهم أبو سلمة بن عبدالرحمٰن بن عوف، وأبو أمامة بن سهل بن حنيف، وخارجة بن زيد بن ثابت، وإنهم ليبكون حتىٰ أخضل الدمع لحاهم، وقال يومئذ أبو أمامة:

ليتها تركت فلم تهدم، حتىٰ يقصر الناس عن البناء، ويروا ما رضي الله لنبيه ﷺ ومفاتيح خزائن الدنيا بيده(١).

ومهما يكن من أمر، فلئن أزيلت هذه البيوت الكريمة من دنيا الواقع فستظل ماثلة في أذهان المؤمنين ما داموا يقرؤون كتاب الله الذي خلَّد ذكرها في آيات كريمة منه.

إنها ستكون حاضرة ماثلة في أذهانهم كلما قرؤوا قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ ...﴾ [الأحزاب: ٥٣].

---

(١) يراجع في هذا الموضوع:
- «طبقات ابن سعد» (٤٩٩/١ ـ ٥٠٠).
- «الوفا بأحوال المصطفىٰ» لابن الجوزي (٤٠٥/١ ـ ٤٠٦).
- «خلاصة الوفا» للسمهودي (٢١٩ ـ ٢٢٢).
- «البداية والنهاية» لابن كثير (٢٢٠/٣).
- «شرح الزرقاني علىٰ المواهب» (٣٧٠/١).
- «مرآة الحرمين» لإبراهيم رفعت (٤٦٢/١).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [الأحزاب].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ ..﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الحجرات: ٤].

لقد ارتبط بهذه البيوت سجل حافل من تاريخ السيرة النبوية الكريمة، وهذا ما يفسر لنا قول عطاء: فما رأيت أكثر باكياً من ذلك اليوم.. وفي مقدمة هؤلاء الباكين سعيد بن المسيب وأبناء الصحابة الذين سبق ذكرهم وغيرهم وغيرهم..

❋ ❋ ❋

أمّا أثاث تلك البيوت فكان متناسقاً مع بساطتها وتواضعها:

قالت عائشة رضي الله عنها: كان فراش رسول الله ﷺ الذي ينام عليه من أدم، وحشوه ليف، وكانت وسادته التي يتكئ عليها من أدم حشوها ليف[1].

وفي قصة إسلام عدي بن حاتم، قال: ثم مضىٰ بي رسول الله ﷺ حتىٰ إذا دخل بي بيته تناول وسادة من أدم محشوة ليفاً، فقذفها إليَّ وقال: (اجلس علىٰ هذه) قال: قلت: بل أنت فاجلس عليها، فقال: (بل أنت) فجلست عليها وجلس رسول الله ﷺ بالأرض[2].

ويصف لنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه الغرفة التي اعتزل النبي ﷺ فيها نساءه، فيقول: وإنه لعلىٰ حصير ما بينه وبينه شيء، وتحت رأسه وسادةٌ من أدم حشوها ليف، فرأيت أثر الحصير في جنبه فبكيت..[3].

تلك أخبار تصور لنا ما كان في هذه البيوت من متاع..

❋ ❋ ❋

(١) رواه البخاري (٦٤٥٦)، ومسلم (٢٠٨٢).

(٢) «سيرة ابن هشام» (٢/٥٨٠).

(٣) رواه البخاري (٤٩١٣)، ومسلم (١٤٧٩).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [الأحزاب].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ . .﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الحجرات: ٤].

لقد ارتبط بهذه البيوت سجل حافل من تاريخ السيرة النبوية الكريمة، وهذا ما يفسر لنا قول عطاء: فما رأيت أكثر باكياً من ذلك اليوم.. وفي مقدمة هؤلاء الباكين سعيد بن المسيب وأبناء الصحابة الذين سبق ذكرهم وغيرهم وغيرهم..

❊ ❊ ❊

أمّا أثاث تلك البيوت فكان متناسقاً مع بساطتها وتواضعها:

قالت عائشة رضي الله عنها: كان فراش رسول الله ﷺ الذي ينام عليه من أدم، وحشوه ليف، وكانت وسادته التي يتكئ عليها من أدم حشوها ليف(١).

وفي قصة إسلام عدي بن حاتم، قال: ثم مضىٰ بي رسول الله ﷺ حتىٰ إذا دخل بي بيته تناول وسادة من أدم محشوة ليفاً، فقذفها إليَّ وقال: (اجلس علىٰ هذه) قال: قلت: بل أنت فاجلس عليها، فقال: (بل أنت) فجلست عليها وجلس رسول الله ﷺ بالأرض(٢).

ويصف لنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه الغرفة التي اعتزل النبي ﷺ فيها نساءه، فيقول: وإنه لعلىٰ حصير ما بينه وبينه شيء، وتحت رأسه وسادةٌ من أدم حشوها ليف، فرأيت أثر الحصير في جنبه فبكيت..(٣).

تلك أخبار تصور لنا ما كان في هذه البيوت من متاع..

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه البخاري (٦٤٥٦)، ومسلم (٢٠٨٢).

(٢) «سيرة ابن هشام» (٢/٥٨٠).

(٣) رواه البخاري (٤٩١٣)، ومسلم (١٤٧٩).

قد يقول قائل: إن بيوت جميع الناس يومئذ كانت كذلك، ولقد عاش ﷺ كما هو شأن جميع الناس في مجتمعه.

والجواب على هذا القول: إنه لو كان الأمر كذلك لما كان لتمني سعيد بن المسيب وأبناء الصحابة الذين رأوا هدم هذه البيوت، أن تبقى ليراها الناس، لم يكن لتمنيهم معنى.

لقد عرف الناس يومئذ الأبنية الأنيقة المزخرفة بالجص.. وعرفوا القباب المزينة، كما ورد ذلك في حديث أبي داود[1]..

وعرفوا الفرش المزركشة من الحرير والديباج، وعرفوا آنية الذهب والفضة التي نهى عنها الإسلام، ولو لم تكن معروفة، لما كان لنهيه عنها معنى.

قالت عائشة رضي الله عنها: دخلت علي امرأة من الأنصار، فرأت فراش رسول الله ﷺ قطيفة مثنية، فبعثت إليّ بفراش حشوه الصوف، فدخل عليّ رسول الله ﷺ فقال: (ما هذا يا عائشة؟) قلت: يا رسول الله، فلانة الأنصارية دخلت فرأت فراشك، فبعثت إليّ بهذا، فقال: (ردِّيه يا عائشة، فوالله لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة)[2].

لقد ظلّ تعامله ﷺ مع هذه الحوائج في مفهوم كونها وسائل ولم ترتقِ يوماً لتصبح في مقام الغايات، وهذا مصداق قوله ﷺ:

(إنما أنا والدنيا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها)[3].

* * *

كان ذلك حديثاً عن بيوته ﷺ بشكل عام.

---

(١) رواه أبو داود (٥٢٣٧) وخلاصته أنه ﷺ مرّ على بناء فيه قبّة مشرفة، فأعرض عن صاحبها حتى هدمها.

(٢) «المواهب اللدنية» للقسطلاني (٤٧١/٢).

(٣) رواه الترمذي (٢٣٧٧).

وقد يكون من المستحسن أن نخص ـ بعد ذلك ـ بالذكر واحداً منها. ذلك البيت الذي كان المشهد الأخير له ﷺ علىٰ بابه.

قال أنس رضي الله عنه: كان أبو بكر رضي الله عنه يصلي بالناس في وجع النبي ﷺ، حتىٰ إذا كان يوم الإثنين، وهم صفوف لصلاة الفجر ـ وقد أقيمت الصلاة ـ كشف النبي ﷺ ستر الحجرة، ينظر إلينا وهو قائم، كأن وجهه ورقة مصحف، ثم تبسّم يضحك، فهممنا أن نفتن من الفرح برؤية النبي ﷺ، فنكص أبو بكر علىٰ عقبيه ليصل الصف، وظنّ أن النبي ﷺ خارج إلىٰ الصلاة، فأشار إلينا ﷺ: أن أتمُّوا صلاتكم، وأرخىٰ الستر، فتوفي من يومه[1].

قال أنس: فكانت آخر نظرة نظرتها إلىٰ رسول الله ﷺ.

كان الستر الذي رفعه ﷺ ستر حجرة عائشة رضي الله عنها حيث كان في مرضه بعد أن استأذن بقية أزواجه.. ودفن ﷺ في المكان الذي توفي فيه في الحجرة نفسها، فأكرم الله تلك البقعة بجسده الطاهر، فأضحت أفضل بقعة علىٰ ظهر الأرض، وبينها وبين منبره ﷺ روضة من رياض الجنة[2].

قال ابن القيم: قال ابن عقيل: سألني سائل: أيما أفضل: حجرة النبي ﷺ أو الكعبة؟ فقلت: إن أردت مجرد الحجرة فالكعبة أفضل، وإن أردت: وهو فيها، فلا والله، ولا العرش وحملته، ولا جنة عدن، ولا الأفلاك الدائرة، لأن بالحجرة جسداً لو وزن بالكونين لرجح[3].

وسئل ابن تيمية السؤال نفسه، فأجاب: أما نفس محمد ﷺ فما خلق الله خلقاً أكرم عليه منه، وأما نفس التراب فليس هو أفضل من الكعبة البيت الحرام، بل الكعبة أفضل منه[4].

---

(١) رواه البخاري (٦٨٠، ٦٨١، ١٢٠٥)، ومسلم (٤١٩).
(٢) رواه البخاري (١١٩٥)، ومسلم (١٣٩٠).
(٣) «بدائع الفوائد» للإمام ابن القيم (٣/١٣٥ ـ ١٣٦).
(٤) «مجموع الفتاوىٰ» (٢٧/٣٨).

وهكذا أضحت حجرة عائشة ـ التي هي أحب الخلق إليه ﷺ ـ أفضل بقعة في الأرض بما حوته من جسده الطاهر ﷺ.

كان ذلك استطراداً أحببت أن أختم به الحديث عن بيوته ﷺ.

الفصل الثالث

المعيشة في بيوت النبي ﷺ

بعد الحديث عن سكن النبي ﷺ وبيان أثاث بيوته، يحسن بنا استكمالاً للصورة أن نتحدث عن مستوىٰ المعيشة من حيث الطعام والنفقة.

والذي يبدو أن هذه المعيشة كانت متناسقة في تواضعها مع البيوت ومستوىٰ تأثيثها.

ونترك الكلام لواحدة من أصحاب الشأن في هذا الموضوع تحدثنا عن ذلك. إنها السيدة عائشة رضي الله عنها.

قالت: ما شبع آل محمد ﷺ منذ قدم المدينة، من طعام البر ثلاث ليال تباعاً، حتىٰ قبض[١].

وقالت: ما أكل آل محمد ﷺ أكلتين في يوم، إلا إحداهما تمر[٢].

وقالت مخاطبة ابن أختها عروة: إن كنا لننظر إلىٰ الهلال، ثم الهلال.. ثلاثة أهلة في شهرين، وما أوقدت في أبيات رسول الله ﷺ نار.

قال عروة: فقلت: يا خالة، ما كان يُعِيشُكم؟

قالت: الأسودان: التمر والماء، إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار، كانت لهم منائح، وكانوا يمنحون رسول الله ﷺ من ألبانها فيسقينا[٣].

وقالت: لقد مات رسول الله ﷺ وما شبع من خبز وزيت، في يوم

---

(١) رواه البخاري (٥٤١٦)، ومسلم (٢٩٧٠).

(٢) رواه البخاري (٦٤٥٥)، ومسلم (٢٩٧١).

(٣) رواه البخاري (٢٥٦٧)، ومسلم (٢٩٧٢).

واحد، مرتين[1].

وقال النعمان: ذكر عمر ﷺ ما أصاب الناسُ من الدنيا، فقال: لقد رأيت رسول الله ﷺ يظل اليوم يلتوي ما يجد دقلاً[2] يملأ به بطنه[3].

وقال ابن عباس ﷺ: كان رسول الله ﷺ يبيت الليالي المتتابعة طاوياً، وأهله لا يجدون العشاء، وكان عامة خبزهم خبز الشعير[4].

وقال أنس بن مالك ﷺ ـ وهو خادم رسول الله ﷺ ـ سمعت رسول الله ﷺ يقول مراراً: (والذي نفس محمد بيده، ما أصبح عند آل محمد صاع حب ولا صاع تمر) وإن له يومئذ تسع نسوة[5].

تلك هي حال المعيشة في بيوت النبي ﷺ تتحدث عنها زوجته عائشة وخادمه أنس وابن عمه ابن عباس رضي الله عنهم جميعاً، وهم ألصق الناس بهذا الشأن.

وإذا كان عامة خبزهم خبز الشعير، كما قال ابن عباس، فيحسن بنا أن نتعرّف علىٰ هذا الخبز. إنه خبز خشن حيث لم تكن المناخل معروفة، وإنما كانوا يطحنون الشعير، وينفخونه، فيطير ما طار منه، وما بقي يخبز.

❊ ❊ ❊

ولقد صبر أزواج رسول الله ﷺ علىٰ هذه الحال، مقدرين هموم الرسول ﷺ وخاصة ما يتعلق بأهل الصفة، وهم المهاجرون الجدد إلىٰ

---

(١) رواه مسلم (٢٩٧٤).

(٢) الدقل: هو رديء التمر.

(٣) رواه مسلم (٢٩٧٨).

(٤) رواه الترمذي (٢٣٦٠)، وابن ماجه (٣٣٤٧).

(٥) رواه البخاري (٢٠٦٩)، وابن ماجه (٤١٤٧).

المدينة حيث كانوا يجلسون في صفة المسجد ريثما يُؤَمَّنُ لهم السكن، وكان عليه ﷺ أن يؤمّنَ لهم طعامهم..[1].

ومما كان يخفف عنهم ما هم فيه أن معظم المهاجرين كان وضعهم كذلك، ولكنه بعد فتح خيبر، وبعد فتح مكة وتوزيع غنائم حنين وجد كثير من المسلمين شيئاً من السعة، ولكن بيوت رسول الله ﷺ لم يتغير حالها، فقد بقيت علىٰ ما هي عليه.

وزوجات النبي ﷺ هنَّ من البشر، يتطلعن إلىٰ ما يتطلع إليه الناس، ويرغبن فيما يرغب به الناس، ويشتهين ما يشتهيه الناس.

وحصل أنهن اجتمعن وجئن يطالبن رسول الله ﷺ بالنفقة، أو بالتوسعة فيها، وجلس ﷺ واجماً..

وخرج الخبر إلىٰ الناس.. وظنّ الناس أنه ﷺ طلّق أزواجه.

ووصل الخبر إلىٰ أبي بكر ﷺ.

ووصل الخبر إلىٰ عمر ﷺ..

وجاء أبو بكر ﷺ فاستأذن علىٰ رسول الله ﷺ فلم يؤذن له..

وأقبل عمر ﷺ، وجاء يستأذن فلم يؤذن له..

والناس جلوس بباب النبي ﷺ.

ثم استأذن عمر مرة ثانية، فلم يؤذن له..

ثم أذن لأبي بكر وعمر فدخلا.. وإذا النبي ﷺ جالس وحوله نساؤه، وهو ساكت..

فقال عمر: لأكلمنَّ النبي ﷺ لعله يضحك، فقال: يا رسول الله، لو رأيت ابنة زيد ـ زوجة عمر ـ سألتني النفقة آنفاً، فوجأت عنقها..

---

(١) انظر ـ إن رغبت ـ قصة أهل الصُفة كاملة في كتاب «أهل الصفة بعيداً عن الوهم والخيال» للمؤلف. نشرته دار القلم بدمشق.

فضحك النبي ﷺ حتىٰ بدت نواجذه، وقال: هنَّ حولي يسألنني النفقة.

فقام أبو بكر ﷺ إلىٰ عائشة ليضربها، وقام عمر ﷺ إلىٰ حفصة، كلاهما يقولان: تسألان النبي ﷺ ما ليس عنده!!

فنهاهما رسول الله ﷺ عن ضربهما..

فقلن: والله لا نسأل رسول الله ﷺ ـ بعد هذا المجلس ـ ما ليس عنده.

وغادر أبو بكر وعمر المجلس وهما يظنان أن القضية قد سويت..

ولكن الرسول ﷺ كان حزيناً لتصرف نسائه، ولم تكن القضية خاصة بحفصة وعائشة، ولكنها قضية نسائه جميعاً.. فاعتزلهن جميعاً..

ويصف لنا عمر ﷺ الغرفة التي اعتزل فيها رسول الله ﷺ، وقد استأذن عليه أثناء اعتزاله فيقول: فدخلت علىٰ رسول الله ﷺ فإذا هو مضطجع علىٰ حصير، فأدنىٰ عليه إزاره، وليس عليه غيره، وإذا الحصير قد أثر في جنبه. ونظرت ببصري في خزانة رسول الله ﷺ، فإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع..

قال عمر ـ وقد تأثر بالمنظر ـ فابتدرت عيناي فبكيت..

ومضت الأيام.. فلما كان في اليوم التاسع والعشرين نزل فبدأ بالدخول علىٰ عائشة رضي الله عنها.

فقال: (يا عائشة، إني أريد أن أعرض عليك أمراً، أحب أن لا تعجلي فيه حتىٰ تستشيري أبويك).

قالت عائشة: وما هو، يا رسول الله؟

فتلا عليها قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الأحزاب].

قالت عائشة: قد علم والله أن أبوي لم يكونا ليأمراني بفراقه، قالت:

فقلت: أفيك يا رسول الله، أستشير أبوي؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة.

قالت: وأسألك أن لا تخبر امرأة من نسائك بالذي قلتُ.

قال: (لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها..).

ثم فعل مثل ذلك مع بقية أزواجه، فكان جوابهن مثل جواب عائشة رضي الله عنها.

❊ ❊ ❊

كان لهذا الحدث في حياة أمهات المؤمنين أثره الكبير، كان قطعاً لآمالهن في الحياة الدنيا وزينتها.

لقد وَضُحَ لهن اليوم ما كان غائباً عنهن، إنهنَّ زوجات الرسول، ورفيقات دربه، وقد اختارهن الله لهذه المهمة من بين النساء..

وإذا كان الرسول ﷺ أسوة للناس، فينبغي أن يكون بيته أسوة للبيوت، وأن يكون أزواجه علىٰ قدر من الفهم الرفيع الذي يتناسب مع المقام الذي اختاره الله لهن.

لقد كنَّ ـ قبل نزول التخيير ـ في حياة قاسية، قبلن بها من باب القناعة بالواقع، ولكنهن بعد نزول آيات التخيير، يقبلن علىٰ هذه الحياة بالإرادة الكاملة، والرضىٰ القلبي، يدفع إليه حب الله ورسوله ﷺ.

إنه لفرق كبير بين ما قبل التخيير وبين ما بعده، إنهن اليوم ـ ولهن كل عواطف النساء ورغباتهن ـ يتنازلن بإرادتهن إيثاراً لما اختاره الله لهن..[1].

❊ ❊ ❊

ذلك هو شأن الطعام وأمر المعيشة في أبيات رسول الله ﷺ حتىٰ آخر

---

(١) وانظر بتفصيل أوسع «من معين السيرة» للمؤلف تحت عنوان «تخيير النبي ﷺ أزواجه». وكل ما ورد في هذا الموضوع هو في «الصحيحين» أو أحدهما.

حياته ﷺ.. وقد ظلّ أزواجه ﵅ متقللات من الدنيا بعده، كما تدل سيرتهن علىٰ ذلك.. فقد أنفقت أم المؤمنين عائشة آلاف الدراهم في يوم واحد ونسيت أن تحتفظ بدرهم واحد لتشتري ما تفطر عليه وكانت صائمة.. وكذلك زينب بنت جحش ﵂ في حادثة مشابهة..

الفصل الرابع
تعدد زوجاته ﷺ

تعدد الزوجات:

أذنَ الإسلام بتعدد الزوجات، قال تعالىٰ: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء: ٣].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء: ١٢٩].

والناظر في الآيتين يفهم أن العدل الذي شرط في الآية الأولىٰ، تنص الآية الثانية علىٰ أنه غير مستطاع، فيبقىٰ الاكتفاء بواحدة هو الأصل، والتعدد إنما يأتي في حال الضرورة لأنه سيكون علىٰ حساب شرط «العدل».

ويبقىٰ باب التعدد مفتوحاً من حيث الشكل، لأن شرط العدل راجع إلىٰ الزوج ولا يستطاع الحكم علىٰ إمكانية إقامته إلا من خلال الواقع، ورب زوج أقدم علىٰ الزواج الثاني وهو يظن بنفسه أنه سيقيم العدل، ثم يتبين له غير ذلك.

وهكذا تبقىٰ هذه القضية بين يدَي الزوج ومراقبته لله تعالىٰ..

***

وقد كانت قضية «التعدد» مثار الهجوم علىٰ الإسلام، من المستشرقين وأعداء الإسلام وأتباعهم من المسلمين المستغربين، ومن الجمعيات النسائية التابعة لهذا الخط في الثقافة..

وقبل الخوض في الموضوع، نقول إن الغالبية العظمىٰ من المسلمين، هم ممن يكتفون بزوجة واحدة، وقد تزيد نسبة هذا الفريق علىٰ ٩٠٪ من

عدد المتزوجين.. وهذا يعني أن الذين يعددون الزوجات عددهم قليل، وكنا نتمنىٰ لو كان هناك إحصاءات دقيقة حول هذا الموضوع.. وإذن لرأينا أن الضوضاء التي تثار حوله أكبر من واقعه بكثير.

ونتساءل لماذا يهاجم الإسلام في هذه المسألة، وهي ليست من صنعه؟

«إن تعدد الزوجات ليس من صنع الإسلام، وإنما هو تشريع قديم، عرفته كل الحضارات، وفي مقدمتها التوراة، وأقره الإنجيل ـ إلا في حالة «الأسقف» حيث لا يستطيع الرهبنة مع تعدد الزوجات، فليكتفِ بزوجة واحدة ـ وقد بقي تعدد الزوجات معمولاً به في العالم المسيحي حتىٰ حرمته القوانين الوضعية»[1].

إن التعدد ضرورة اجتماعية يفرضها الواقع، بغض النظر عن معتقد الناس.

فقد يتزوج المرء، ثم لا تحمل زوجه ولا تنجب، والرغبة في الأبناء حاجة فطرية، فيضطر إلىٰ الزواج من الثانية من أجل ذلك، وبقاء الأولىٰ زوجة له قد يكون في مصلحتها، فمن الخير لها أن تبقىٰ زوجة لها كل التقدير والاحترام والحقوق عن أن تطلق.

وقد تصاب المرأة بمرض عضال يمنعها من ممارسة حياتها كزوجة، ويضطر الزوج هنا أن يتزوج، ولأن تبقىٰ المرأة المريضة زوجة خير لها من أن تصبح مطلقة..

وقد تصاب الأمة بأزمات كالحروب.. فتفقد عدداً كبيراً من شبابها، فيختل التوازن الاجتماعي بسبب كثرة النساء وقلة الرجال. والسماح بالتعدد في مثل هذه الحال يخفف من حدة ذلك الخلل..

* * *

---

(١) «الرسول في بيته ﷺ» للدكتور: أحمد شلبي، مكتبة النهضة (ص١٠٨).

إن الإسلام عندما أقرّ «التعدد» لم يقره على طريقة الأمم السابقة قبله، من إطلاقه وعدم تقييده بأي قيد، فلم يكن قبل الإسلام للتعدد سقف يقف عنده الرجل، وقد جاء الإسلام وعند بعض الرجال عشر زوجات.. فجعل الحد الأقصىٰ أربع زوجات، وشرط العدل، وشرط القدرة علىٰ النفقة..

الأمر الذي ضيّق دائرة التعدد..

ثم أباح للمرأة أن تشترط في العقد ـ إن رغبت ـ ألا يتزوج عليها الزوج زوجة أخرىٰ، فإن لم يتقيد بهذا الشرط وأقدم علىٰ الزواج، كان من حقها طلب الفسخ بواسطة القاضي..

وإذا لم تشترط ذلك، وتزوج الرجل، وكانت غير راغبة بالعيش مع الزوجة الثانية كان لها الحق أن تطلب الخلع.. وذلك بإرضاء الزوج ببعض ما منحها إياه مهراً علىٰ ألا يتجاوز ذلك ما كان قد دفعه إليها..

❊ ❊ ❊

وهكذا أحاط الإسلام التعدد بشروط وضوابط، وجعل للمرأة منه المخارج المتعددة بحسب حالتها.

أما الجمعيات النسائية التي تطالب بإلغاء التعدد، فيقال لهن: يمكنكن إلغاء هذا النظام بطريقة سهلة ميسورة لهن، وهو أن تمنعن النساء بني جنسكن ألا تقبل الواحدة منهن أن تكون الزوجة الثانية.. وإذا تم هذا، فلن يكون تعدد.

وفي نهاية هذا التمهيد، لا بد لنا من وقفة مع الأنظمة التي ألغت التعدد وجعلته أمراً محظوراً يعاقب عليه القانون.

وقد فعلت ذلك معظم الدول الأوربية وكذلك أمريكا، حيث لا تسمح أنظمتها بالتعدد.

وكان من أول نتائج ذلك ارتفاع نسبة الطلاق إلىٰ أرقام غير معقولة حيث يلجأ من يضطر إلىٰ الزواج الثاني إلىٰ طلاق الزوجة الأولىٰ، لأنه وفقاً

للقانون فإنه لا يمكنه الاحتفاظ بها، ولو سمح بذلك لهبطت نسبة الطلاق إلىٰ الحد المقبول.

يضاف إلىٰ ذلك أن هذه الدول التي منعت التعدد: قد أذنت باتخاذ الخليلة والصاحبة إضافة إلىٰ الزوجة، بل يستطيع المتزوج أن يكون له من الخليلات والصواحب ما شاء..

ونشأ عن ذلك كثرة اللقطاء وإيجاد تشاريع من أجل نسبة المولود إلىٰ الأم بغض النظر عن ذكر أبيه.

واضطرت الدول إلىٰ إنشاء مراكز لرعاية هؤلاء اللقطاء.. الذين زاد عددهم في بعض الدول عن الأبناء الشرعيين.

وليت الأمر بقي عند هذه الحدود، فقد استغنىٰ كثير من الرجال عن الزواج كله، طالما أن المجتمع يوفر لهم قضاء وطر الجنس دون أي مقابل ودون تحمُّل أي مسؤولية.

ونتج عن ذلك هبوط عدد الأسر في المجتمع.. وبدأت بعض الدول تعاني من عدم وجود الزيادة في السكان، بل أصبحت النسبة في السالب، ونتج عن ذلك أن المدارس بدأت تخفض عدد الفصول فيها وفي طليعة هذه الدول فرنسا وإسبانيا..

ونترك لكل عاقل أن يوازن بين هذا الواقع الناتج عن منع التعدد، وبين السماح به ـ كما هو شأن الإسلام ـ وفق ضوابط صارمة تحفظ الحقوق، وتنظم المسؤوليات.

تعدد زوجات الرسول ﷺ:

كان ذلك تمهيداً موجزاً بين يدَي الحديث عن تعدد زوجات الرسول ﷺ.

رأينا فيه أن الإسلام لم يأتِ بشيء جديد لم يكن موجوداً، ونضيف إلىٰ

ذلك أن معظم الأنبياء والرسل السابقين كان للواحد منهم العدد من الزوجات، وقد ورد في الحديث الصحيح أن سليمان عليه السلام طاف على مائة امرأة في يوم واحد[١]. فأين عدد زوجاته ﷺ من هذا العدد؟

❋ ❋ ❋

نقول بعد هذا: إن تعدد زوجاته ﷺ لم يكن نتيجة لكونه رجلاً شهوانياً كما يصوره أعداء الإسلام، وإنما كان وراء كل زواج له حكمة، قد نستطيع معرفتها تارة، وقد تغيب عنا أخرى.

ولا بد من إيضاح هاتين النقطتين ببعض التفصيل.

أما القول بأنه ﷺ رجل شهواني، فهو قول يبطله الواقع، فقد رأيناه ﷺ وهو في ريعان الشباب يكتفي بامرأة واحدة.

ـ وهذه المرأة كانت ثيباً، سبق لها الزواج مرتين، وهي أكبر منه، وبقي معها ـ وحدها ولم يتزوج عليها ـ مدة خمسة وعشرين عاماً، حتى وصل إلى سن الخمسين.

ثم تزوج الثانية (أم المؤمنين سودة) وهي ثيب أيضاً، وبقي معها ـ منفردة ـ مدة خمس سنين.

فهل يقال عن رجل بهذه المواصفات: إنه رجل شهوة؟

ما أعتقد أن رجلاً في رأسه عقل يقول ذلك، إلا إذا كان عدواً للإسلام عدواً لبيان حقائق الواقع.. كما هو الشأن عند كثير من المستشرقين ومن سار على خطاهم.

❋ ❋ ❋

وإذا انتفى وصفه بالشهوة.. فلم يبقَ إلا الاحتمال الثاني، وهو أن وراء كل زواج له حكمة، قد ندركها وقد لا ندركها.

---

(١) رواه البخاري (٥٢٤٢)، ومسلم (١٦٥٤).

وقبل الخوض في بيان ذلك، يحسن بنا أن نبين أن الحكمة قد تخفىٰ ما لم يبينها النبي ﷺ.

ففي توزيع غنائم حنين، وجد بعض الصحابة من الأنصار في أنفسهم، حتىٰ قال قائلهم: يغفر الله لرسول الله ﷺ يعطي قريشاً ـ أي صفوان بن أمية وأبا سفيان وغيرهم ـ وسيوفنا تقطر من دمائهم؟

وبلغ الخبر رسول الله ﷺ فجمعهم وسألهم عن مقالتهم فأقروا بها.. فشرح لهم رسول الله ﷺ حكمة ذلك، وأنه يتألف أولئك النفر علىٰ الإسلام.. وأن الناس ينقلبون بالشاء والنعم، وهم ينقلبون برسول الله ﷺ إلىٰ رحالهم.. فقالوا: رضينا برسول الله ﷺ..

وهكذا حينما عرَّفهم الحكمة زال الإشكال..

ولم يحدث أن سأل أحد رسول الله ﷺ عن سبب تعدد نسائه، ولو حدث هذا لزال الإشكال.. ومع ذلك فإن الحكمة واضحة في أسباب بعضها.. وما لم تتضح حكمته فإن المسلم يؤمن إيماناً لا شك فيه أن ذلك موجود وإن لم ندركه.

فزواجه ﷺ من السيدة خديجة زواج الفطرة الذي يقدم عليه كل رجل.

وزواجه من السيدة سودة كذلك، فهو زواج رجل ماتت زوجته.. وهو الأمر الذي يحدث لكل رجل في مثل هذا الوضع.

وزواجه من السيدة عائشة كان خصوصية من خصوصياته، إذ كان بأمر من الله تعالىٰ كما سبق شرح ذلك.

وكذلك زواجه من زينب بنت جحش، كان بأمرٍ من الله تعالىٰ، وسبق الحديث عن حكمته كما بيّنها القرآن الكريم.

وزواجه من حفصة بنت عمر كان لتوثيق الصلة بالرجل الثاني بعد

أبي بكر، كما كان زواجه من عائشة من بعض أهدافه دخول أبي بكر بيت النبي ﷺ بغير حرج.

وزواجه بالسيدة أم سلمة، كان جبراً لخاطرها وتقديراً لجهادها الطويل.. وعرفاناً لزوجها بجهاده..

وزواجه من جويرية بنت الحارث، كان واضح الحكمة عبرت عنه السيدة عائشة وأوضحته.. فقد أُطلقَ أهل مائة بيت من أهلها بزواجها.. وأصبح قومها مسلمون..

وزواجه من السيدة أم حبيبة ـ على البُعد ـ إنما كان حلاً لمشكلة سبق الحديث عن أبعادها، كما كان كسراً لحدة العداوة التي كانت قائمة في نفس والدها أبي سفيان والتي جاء التعبير عنها بقوله ـ حين بلغه أمر الزواج ـ: «ذلك الفحل لا يُقْدَعُ أنفه» أي: الرجل الكريم الشهم.

وأما زواجه من السيدة صفية، فقد يكون من بعض حكمته: أن الله اختار لها الدين الحق، الذي تأكدت من صحته مما سمعته من أبيها وعمها.

قالت السيدة صفية تروي قصة هذا الأمر: كنت أحبَّ ولدِ أبي إليه، وإلى عمي أبي ياسر، لم ألقهما قط مع ولدٍ لهما إلا أخذاني دونه، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، ونزل قباء في بني عمرو بن عوف، غدا عليه أبي وعمي، وبقيا معه فترة، فلم يرجعا إلا مع غروب الشمس، ورأيتهما آنذاك كالَّين، كسلانين، ساقطين، يمشيان الهوينى، فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما اهتمَّ بي واحد منهما، بسبب ما كان بهما من الغم.

وسمعت عمي أبا ياسر يقول لأبي: أهو هو؟

قال أبي: نعم بالتأكيد. قال: أتعرفه وتثبته؟ قال: نعم. قال: فما في نفسك عنه؟ قال: عداوته ما بقيت.

لقد استقرّ هذا الحديث في عقل صفية وهي صغيرة يومئذ، وعرفت أن ما جاء به محمد ﷺ هو الحق بشهادة أبيها وعمها.. فكان من حكمة هذا الزواج أن آمنت بالحق الذي استقر في خلدها.

وأما زواجه من زينب بنت خزيمة، التي استشهد زوجها يوم أُحد فكان جبراً لخاطرها وكفالة لها ولم تطل حياتها كما رأينا.

وأما ميمونة بنت الحارث، فقد مات زوجها بمكة كافراً، وكانت أخواتها - كما رأينا - زوجات لكرام القوم، فكان الزواج منها استنقاذاً لها من واحة الكفر يومئذ، كما هو تلبية لرغبة عمه العباس وزوجته لبابة الكبرىٰ.

تلك بعض الحِكم من تعدد زوجات الرسول ﷺ، وهناك حكمة عامة تشملهن جميعاً، وهي أنهن «معلمات ومفتيات لنساء الأمة الإسلامية ورجالها في القضايا النسائية والأحكام الشرعية والآداب الزوجية والحكم النبوية..».

«كما يلحظ أن من بينهن الصغيرة التي ما تزال تلعب مع أترابها بلعب الأطفال، والمسنّة، وابنة عدو لدود، وابنة صديق حميم، ومنهن من كانت تشغل نفسها بتربية الأيتام، ومنهن من تميزت علىٰ غيرها بكثرة الصيام والقيام..».

«إنهن نماذج لأفراد الإنسانية، ومن خلالهن قدّم الرسول ﷺ للمسلمين تشريعاً فريداً في كيفية التعامل السليم مع كل نموذج من هذه النماذج البشرية»(١).

---

(١) «السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية» للدكتور مهدي رزق الله أحمد، (ص٧١١).

الفصل الخامس

خيركم خيركم لأهله

قال عمر ﷺ: «إنما تُنقَض عرىٰ الإسلام عروة عروة، إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية»[1].

أقدم هذا القول بين يدَي الحديث عن المرأة وبيان المنزلة التي وضعها الإسلام بها، وما لم نعرف شيئاً عن وضعها في الجاهلية، فلن نعرف قدر ما فعله الإسلام.

ونترك للفاروق ـ صاحب هذه المقالة ـ بيان ما كانت عليه المرأة:

قال ﷺ: «والله إن كنا في الجاهلية ما نعد للنساء أمراً، حتىٰ أنزل الله فيهن ما أنزل، وقسم لهن ما قسم»[2].

كلمات قليلة، فيها البلاغة والإيجاز، تصور لنا تلك النقلة الواسعة التي ارتقىٰ الإسلام بالمرأة إليها فخاطبها كما خاطب الرجل، وطالبها بما طالب به الرجل.. طالبها بالإسلام والإيمان والإحسان.. وبعمل الخيرات والبُعد عن المنكرات..

فرض علىٰ الرجال بِرَّها أماً، واحترامها ومَوَدَّتها زوجة، والعطف عليها أختاً وبنتاً، وحرّم الإساءة إليها..

أتاح لها حرية القول، وحرية اختيار الزوج، وجعلها صاحبة حق بالميراث، بعد أن كانت تورث كالمتاع.. وألغىٰ عادة الوأد..

وفعل الكثير والكثير من أجل أن تعود لها كرامتها التي كرّمها بها كما كرّم الرجل..

---

(١) «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (٢/٢٨٨).

(٢) رواه البخاري (٤٩١٣)، ومسلم (١٤٧٩).

وكان التطبيق الفعلي للأوضاع الجديدة والمعاملة الكريمة يجري وفقاً لفعل الرسول ﷺ وأوامره، تنفيذاً وإيضاحاً لأوامر الله تعالىٰ..

ولقد شفع الرسول ﷺ الفعل بالقول زيادة في الإيضاح والبيان، فتحدّث عن حق الوالدة وحق الزوجة والأخت والبنت..

وبما أن حديثنا عن زوجات الرسول ﷺ، فسنبقىٰ في هذا الإطار التزاماً بموضوعية البحث.

* * *

ومن قوله ﷺ في ذلك: (خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي)[1].

وتكرر هذا القول في مناسبات متعددة وبألفاظ متقاربة:

منها قوله ﷺ: (أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم خلقاً)[2].

وقوله ﷺ: (خياركم خياركم لنسائهم)[3].

وهكذا يضع ﷺ الميزان الحق الذي تقاس به فضيلة الرجل وخيريته، وهو حسن معاشرته لأهله ومصاحبته إياهم، وبمقدار ما يرتفع هذا المستوىٰ في الحسن بمقدار ما يرتفع عنصر الخير فيه.

والأحاديث هنا، وإن كانت بصيغة الخبر، لكنها في حقيقة معناها توجيه كريم، وحث للمسلم علىٰ الوصول إلىٰ هذا المستوىٰ من الخير، بالإحسان إلىٰ زوجته وحسن معاملتها.

وهذا الميزان من أدق الموازين يستطيع الإنسان أن يختبر به نفسه

---

(١) رواه الترمذي (٣٨٩٥)، وابن ماجه (١٩٧٧).

(٢) رواه الترمذي (١١٦٢).

(٣) رواه ابن ماجه (١٩٧٨).

بالدرجة الأولىٰ، فإذا لم يشعر بالود والحنان والحنو ومشاعر الخير تجاه زوجته، فذلك يعني أنه ناقص الخيرية بمقدار النقص الموجود لديه..

خيركم خيركم لأهله.. خياركم خياركم لنسائهم.

كيف نتوقع من إنسان الخير للناس، إذا لم يكن هذا الخير موجوداً لديه تجاه أقرب الناس إليه، زوجته.. التي قال الله تعالىٰ في حقها: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

وكيف لا يكون هذا المقياس صادقاً، وهو قاعدة من القواعد التي وضعها الصادق المصدوق ﷺ، لتكون معلماً عاماً في العلاقة الزوجية، يرجع إليها الزوج ليتأكد من صحة المسار، وتذكره الزوجة بها كلما رأت منه اعوجاجاً.

(وأنا خيركم لأهلي).

هكذا قال ﷺ ليلفت النظر إلىٰ أنه الأسوة والمثال الذي ينبغي أن يقتدىٰ به، ومن هنا كانت معرفة سيرته في مقام الفرض والواجب.

وفي الحديث المتفق عليه قال ﷺ لعائشة رضي الله عنها: (كنت لك كأبي زرع لأم زرع)[(١)].

وتشرح السيدة عائشة هذا الحديث: بأنه جلس إحدىٰ عشرة امرأة فتعاهدن أن لا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئاً، فبدأت الأولىٰ فوصفت زوجها، وكذلك الثانية حتىٰ الحادية عشرة التي وصفت زوجها بأحسن الصفات، وهي أم زرع.

فشبّه النبي ﷺ نفسه في تعامله مع عائشة كتعامل أبي زرع مع أم زرع. وهو من تشبيه الأعلىٰ بالأدنىٰ، والمقصود أن أبا زرع كان خير الأزواج في زمنه والرسول ﷺ خير الأزواج علىٰ الإطلاق.

---

(١) رواه البخاري (٥١٨٩)، ومسلم (٢٤٤٨).

وقد أدركت عائشة المعنىٰ المطلوب فقالت جواباً على قوله ﷺ: بأبي وأمي يا رسول الله، بل أنت خير لي من أبي زرع لأم زرع[1].

ولعل في حديث أم زرع بعض الإيضاح والشرح لقوله ﷺ: (وأنا خيركم لأهلي).

ويرشدنا ﷺ إلىٰ الطريق الذي يوصل إلىٰ هذه الخيرية فيقول:

(استوصوا بالنساء، فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج ما في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء)[2].

وليس في هذا الحديث ذم للمرأة أو انتقاص من قدرها، وكيف يكون ذلك والله تعالىٰ يقول: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ [التين].

وإنما هو التعليم لكيفية التعامل مع الأشياء، فالضلع خلق في أصل تكوينه معوجاً، ولو كان غير أعوج لم يصلح للمهمة التي خلق لها، ولكان غير قابل للاستقرار في المكان الذي أُعدَّ له.

ولذلك علينا ألا ننظر إلىٰ العوج القائم فيه، وإنما ننظر للمهمة التي أنيطت به، والمكان الذي أُعدَّ له، وعندها سنجد أنه لو كان مستقيماً فإنه لن يصلح، ولن نفكر في تقويمه.

إن الحديث الشريف يضع قاعدة للتعامل مع الأشياء عن طريق التعرف علىٰ خواصها وطبائعها، والحديث بهذا المعنىٰ من جوامع الكلم التي أوتيها النبي ﷺ.

وإذن فعلىٰ الرجل أن يتعرّف علىٰ طبيعة زوجته.. وعندها يمكنه التعامل معها بشكل سليم يؤدي الغرض، وهذا الأمر منوط بالرجل لأن مهمة القوامة منوطة به. فعليه أن يسع المرأة.

---

(١) «فتح الباري» (٢٧٥/٩) نقلاً عن النسائي وغيره.

(٢) رواه البخاري (٣٣٣١)، ومسلم (٧٤٦٨).

إن «الضلع» الذي تحدث عنه ﷺ وقال: (فإن ذهبت تقيمه كسرته) أي: فقدَ صلاحيته، ولم يعد قادراً علىٰ أداء الدور المطلوب منه كـ«ضلع».

وخلاصة الأمر: أنه ﷺ طلب من الرجال إحسان معاملة النساء، وجعل ذلك مقياساً لخيرية الرجل، وأرشدنا إلىٰ أنه ﷺ هو الأسوة في ذلك والتي علىٰ الرجال تتبعها والعمل علىٰ هديها.. وهذا يتطلب معرفة سيرته ﷺ - علىٰ الأقل - في هذا الجانب.

ثم بيّن كيفية التعامل مع النساء، وأن الطريقة المجدية في ذلك هو التعرف علىٰ طبائعهن.. وهو أمر ميسور للزوج إذا أحسن أداء مهمته.

وهذا ما كان يفعله ﷺ، ولنضرب مثالاً علىٰ ذلك، يكون إيضاحاً للمسألة:

قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: قال لي رسول الله ﷺ: (إني لأعلم إذا كنت عني راضية، وإذا كنت عليّ غضبىٰ).

قالت: فقلت: من أين تعرف ذلك؟

فقال: (أما إذا كنت عني راضية، فإنك تقولين: لا، ورب محمد، وإذا كنت غضبىٰ، قلت: لا، ورب إبراهيم).

قالت: قلت: أجل والله - يا رسول الله - ما أهجر إلا اسمك[1].

وهكذا وبالاستقراء لأحوال عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا استطاع النبي ﷺ معرفة حالتَي رضاها وسخطها بواسطة القرائن، وبناء علىٰ ذلك كان يتعامل معها.

وبهذه الطريقة يمكن لكل رجل أن يستطلع من حال زوجته ما يساعده علىٰ التعامل معها بشكلٍ مُرْضٍ للطرفين.

* * *

---

(١) رواه البخاري (٥٢٢٨)، ومسلم (٢٤٣٩).

هذا، وليست الخيرية للأهل نمطاً واحداً من أنماط التصرف، وإنما هي عاطفة ـ تنشأ من خليط الودّ والرحمة والحب ـ تستقر في النفس، لتظهر في مظاهر شتىٰ، وأشكال متنوعة.

فهي في حقيقتها تعبير عما يكنُّه القلب، وتصطبغ به المشاعر.

ولبيان ذلك بمثال عملي من واقع الحياة، أضع بين الأيدي وأمام الأعين هذا الحديث النبوي الذي يسجل واحداً من تصرفاته ﷺ في هذا المقام، فهو الأسوة الحسنة، وهو المعلم الكريم.

أخرج الإمام مسلم عن أنس ﷺ: أن جاراً لرسول الله ﷺ، فارسياً، كان طيب المرق، فصنع لرسول الله ﷺ [طعاماً]، ثم جاء يدعوه.

فقال ﷺ: (وهذه؟) لعائشة. فقال: لا.

فقال رسول الله ﷺ: (لا).

فعاد يدعوه، فقال رسول الله ﷺ: (وهذه؟). قال: لا.

قال رسول الله ﷺ: (لا).

ثم عاد يدعوه، فقال رسول الله ﷺ: (وهذه؟). قال: نعم، في الثالثة.

فقاما.. حتىٰ أتيا منزله[1].

أقول: والله إن لساني لعاجز عن التعليق علىٰ هذه الواقعة، وإن كل بيان هو دون شرح وبيان ما توحي به أو تترجم له، ولكنه الهدي النبوي الكريم، ينقله خادمه أنس ليضعه صورة ناطقة أمام السمع والبصر، فهي البيان الغني عن كل بيان، كيف لا، وهو القائل ﷺ:
(خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي).

---

(١) رواه مسلم (٢٠٣٧)، ورواه النسائي (٣٤٣٦)، والدارمي (٢٠٦٧) كلاهما بلفظ: كان لرسول الله ﷺ جار فارسي طيب المرقة، فأتىٰ رسول الله ﷺ ذات يوم وعنده عائشة فأومأ إليه بيده أن تعال، وأومأ رسول الله ﷺ إلىٰ عائشة: أي وهذه، فأومأ إليه.. إلىٰ آخر الحديث.

الفصل السادس
عدله ﷺ بين زوجاته

العدل هو أول الواجبات الملقاة على عاتق الرجل عند عزمه على الاقتران بالزوجة الثانية، فإذا لم يكن واثقاً من نفسه بالنجاح في هذا الاختبار، فليقتصر على واحدة، كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء: ٣].

وينبغي أن نتأمل جيداً كلمة «خفتم» فإنها تعني ـ فيما تعنيه ـ عدم ثقة المرء بنفسه بأداء العدل المطلوب..

وإذن: فعلى المسلم أن يزن نفسه قبل الإقدام على الزواج الثاني من قدرته على القيام بهذا الواجب الذي فرضه الله تعالى.

ومن المتفق عليه بين الفقهاء أن «العدل» المطلوب في الآية الكريمة، هو التسوية بينهن في القضايا المادية التي للإنسان القدرة على التحكم بها، من النفقة والكسوة والمسكن، وكل ما يتبع ذلك.

أما القضايا القلبية التي لا سيطرة للإنسان عليها والمتمثلة في العواطف، فإن الإنسان معذور فيها، وهي المشار إليها في قوله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ﴾ [النساء: ١٢٩].

* * *

ولقد كان سلوكه ﷺ في معاملته لأزواجه، هو المثال العملي الذي ينبغي على المسلم أن يتبعه.

قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ لا يفضل بعضنا على بعض في

القسم من مكثه عندنا[1].

وقالت: وكان ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين أزواجه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه[2].

وكانت الهدية إذا جاءته وزعها عليهن بالتساوي. فقد أخرج الإمام أحمد عن أنس: أن أم سليم ـ أمه ـ بعثته إلىٰ رسول الله ﷺ بقناع[3] عليه رطب، فجعل يقبض قبضة فيبعث بها إلىٰ بعض أزواجه، ويقبض القبضة فيبعث بها إلىٰ بعض أزواجه.. ثم جلس فأكل بقيته[4]..

وهكذا قدّم زوجاته علىٰ نفسه في التوزيع، ولم يبقَ له إلا القليل الذي لو أكله المرء لانتهىٰ منه وما زال في نفسه رغبة إليه.. كما جاء في نهاية الحديث.

أما أمر المبيت فقد جاءت التسوية فيه في أحاديث كثيرة، منها ما جاء في «البخاري» عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: أنه ﷺ كان يقسم لكل امرأة منهن يومها وليلتها[5].

ولما كان ﷺ في مرضه الذي توفي فيه، وشقّ عليه الانتقال من بيت إلىٰ بيت استأذنهن أن يمرض في بيت عائشة فأذنَّ له[6].

وهكذا كنَّ علىٰ قدم المساواة أمام عدله ﷺ في الصغير والكبير فيما يتعلق بالجانب المادي..

قالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: كان رسول الله ﷺ يقسم فيعدل، ويقول: (اللهم

---

(١) رواه أبو داود (٢١٣٥).
(٢) رواه البخاري (٤١٤١)، ومسلم (٢٧٧٠).
(٣) القناع: الطبق الذي يؤكل عليه.
(٤) «الفتح الرباني» للبنا (١٤٨/٢٢) وقال: صحيح، ورجاله رجال الصحيحين.
(٥) رواه البخاري (٢٥٩٣).
(٦) رواه البخاري (٥٢١٧).

هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك) يعني: القلب[1].

* * *

تلك هي سنة سيد المرسلين: العدل فيما يمكن العدل فيه. ويستوقفني في هذا الموضوع أمران:

الأول: خضوع الرسول ﷺ لهذا النظام العام، وعدم استثناء نفسه منه، بل لقد كان أكثر الناس تمسكاً به وتطبيقاً له. التزاماً مع أوامره سبحانه وتعالىٰ بالعدل في كل الأمور، والعدل بهذا الشأن خاصة.

الثاني: أن الرقابة علىٰ الالتزام بتطبيق ذلك، هي للّه سبحانه وتعالىٰ، وبتعبير آخر، هي مراقبة الإنسان نفسه، وهي أدق أنواع المراقبة، إذ الإنسان علىٰ نفسه بصيرة، ولقد جاءت التحذيرات الكثيرة من الانحراف في هذا الشأن.

قال ﷺ: (من كانت له امرأتان فمال إلىٰ إحداهما، جاء يوم القيامة وشقه مائل)[2].

* * *

وإذا كنا بصدد الحديث عن عدله ﷺ بين زوجاته، فيحسن بنا أن نقف عند قصة مطالبته بذلك من بعضهن.

قالت عائشة رضي الله عنها: إن نساء رسول الله ﷺ كنّ حزبين.

فحزب فيه: عائشة، وحفصة، وسودة، وصفية.

والحزب الآخر: أم سلمة، وسائر نساء رسول الله ﷺ.

وكان المسلمون قد علموا حب رسول الله ﷺ عائشة، فإذا كانت عند

---

(١) رواه أبو داود (٢١٣٤)، وبقية «أصحاب السنن».

(٢) رواه أبو داود (٢١٣٣)، وبقية «أصحاب السنن».

أحدهم هدية يريد أن يهديها إلىٰ رسول الله ﷺ أخرها، حتىٰ إذا كان رسول الله ﷺ في بيت عائشة، بعث صاحب الهدية بها إلىٰ رسول الله ﷺ في بيت عائشة.

فكلم حزب أم سلمة، أم سلمة، فقلن لها: كلمي رسول الله ﷺ يكلم الناس، فيقول: مَن أراد أن يهدي إلىٰ رسول الله ﷺ هدية؛ فليهدها إليه حيث كان في بيوت نسائه.

فكلمته أم سلمة بما قلن لها، فلم يقل لها شيئاً. فسألنها فقالت: ما قال لي شيئاً. فقلن لها: فكلميه. قالت: فكلمته حين دار إليها أيضاً، فلم يقل لها شيئاً. فسألنها فقالت: ما قال لي شيئاً. فقلن لها: كلميه حتىٰ يكلمك. فدار إليها فكلمته.

فقال لها: (لا تؤذيني في عائشة، فإن الوحي لم يأتني وأنا في ثوب امرأة إلا عائشة).

قالت: فقالت: أتوب إلىٰ الله من أذاك يا رسول الله.

ونقف عند هذا الموضع من القصة.

فطلب أم سلمة يتعلق بقضية الهدايا، ولكن رسول الله ﷺ لم يجبها في شأن هذا الموضوع، وإنما أدرك أن قضية الهدايا وسيلة للتعبير عن غيرتهن من عائشة، وأن القضية لا صلة لها بموضوع العدل. فكان جوابه لأم سلمة بهذا الشكل.

وأدركت أم سلمة أنه ﷺ عرف ما وراء المطالبة بأمر الهدايا، فاعتذرت وتابت إلىٰ الله مما يؤذي رسول الله ﷺ.

وأخبرت أم سلمة صاحباتها بما دار بينها وبينه ﷺ. فلم يقنعن بالجواب ولجأن إلىٰ ابنته فاطمة رضي الله عنها لتحمل رسالتهن مرة أخرىٰ. ولكن صيغة هذه الرسالة تغيرت عما كانت عليه.

وقالت فاطمة رضي الله عنها: إن نساءك ينشدنك العدلَ في بنت أبي بكر.

فقال ﷺ: (يا بنية، ألا تحبين ما أحب؟). قالت: بلىٰ. قال: (فأحبّي هذه).

فقامت فاطمة حين سمعت ذلك من رسول الله ﷺ فرجعت إلىٰ أزواج النبي ﷺ فأخبرتهن بالذي قالت، وبالذي قال لها رسول الله ﷺ.

فقلن لها: ما نراك أغنيت عنا من شيء، فارجعي إليه..

فقالت فاطمة: والله لا أكلمه فيها أبداً.

ونقف عند هذا المقطع الثاني، حيث يتأكد أن القضية لم تكن من أجل هدايا الناس، ولذلك كان جوابه ﷺ لابنته رَضِيَ اللهُ عَنْهَا شبيهاً بالجواب الأول.

ولما امتنعت فاطمة من الرجوع.. أرسلن زينب بنت جحش - زوج النبي ﷺ - فاستأذنت علىٰ رسول الله ﷺ وهو في بيت عائشة، فأذن لها.

فقالت: يا رسول الله، إن أزواجك أرسلنني إليك يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة.

قالت عائشة: ثم وقعت بي، فاستطالت عليَّ، وأنا أرقب رسول الله ﷺ، وأرقب طرفه، هل يأذن لي فيها، قالت: فلم تبرح زينب حتىٰ عرفت أن رسول الله ﷺ لا يكره أن أنتصر.

قالت: فلما وقعتُ بها، لم أزل أرد عليها حتىٰ أسكتها.

قالت: فنظر النبي ﷺ إلىٰ عائشة، وقال: (إنها ابنة أبي بكر)[1].

***

وإذا تأملنا هذه القصة تبين لنا أن الباعث الحقيقي لأم سلمة وحزبها لم يكن قضية الهدايا؛ بل هو غبطتهن عائشة علىٰ منزلتها عند رسول الله ﷺ.

---

(١) رواه البخاري (٢٥٨١)، ومسلم (٢٤٤٢).

ثم تبين هذا الأمر جلياً بموقف زينب رضي الله عنها، حيث اتجهت إلىٰ السيدة عائشة وسبتها، وعائشة لا يد لها في أمر الهدايا.. فهي لم تطلب ذلك من الناس.

وإذا عدنا إلىٰ أمر الهدايا التي اتخِذَتْ حجة لإثارة هذه المشكلة، فهي ليست من فعل الرسول ﷺ حتىٰ يطالب بالعدل بشأنها، ورأينا قبل قليل أن الهدية عندما تصل إليه فإنه كان يوزعها بالتساوي. وأما طلبهن إعلان ذلك للناس، فذلك أمر يحول دونه كرم الرسول ﷺ وعفّته، إذ «ليس من كمال الأخلاق أن يتعرض الرجل إلىٰ الناس بمثل ذلك، لما فيه من التعرض لطلب الهدية» كما يقول الإمام ابن حجر[1].

ومما يلفت النظر أنه ﷺ يُتَّهمُ هنا بعدم العدل، ومع ذلك يتلقىٰ ذلك بهدوء كامل ورحابة صدر، وذلك لعلمه أن الباعث لهن هو «الغيرة» وليس ذلك منهن اتهاماً له بالظلم، بينما لم يقبل ذلك عندما قيل له ذلك يوم حنين، وقال يومها: (فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله؟)[2] وذلك لأن القائل هناك ينبعث من سوء الطوية.

* * *

وخلاصة القول: أنه ما من شك في أن العدل كان قائماً في بيوت أزواج النبي ﷺ في كل ما هو قابل لإقامة العدل، أما العواطف فقد اعتذر عنها إلىٰ الله تعالىٰ بقوله: (اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما لا أملك).

* * *

ولا بد لنا ـ ونحن نتحدث عن عدله ﷺ ـ من الوقوف عند قوله تعالىٰ: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ﴾ [الأحزاب: ٥١].

---

(١) «فتح الباري» (٢٠٨/٥).

(٢) رواه البخاري (٣١٥٠)، ومسلم (١٠٦٢).

أخرج البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت أغار على اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ، وأقول: أتهب المرأة نفسها؟ فلما أنزل الله تعالىٰ: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ قلت: ما أرىٰ ربك إلا يسارع في هواك[1].

وللمفسرين في بيان معنىٰ الآية رأيان.

يرىٰ أصحاب الرأي الأول: أن الآية جاءت في حق الواهبات أنفسهن، وأنه كان للنبي ﷺ أن يؤخر من يشاء من الواهبات، وأن يقبل من يشاء.

ومن المعلوم ـ كما قال ابن عباس رضي الله عنهما ـ أنه لم يكن عند رسول الله ﷺ امرأة وهبت نفسها له[2].

وقال أصحاب الرأي الثاني ومنهم قتادة: ترجي من تشاء من أزواجك، لا حرج عليك أن تترك القسم لهن، فتقدم من شئت وتؤخر من شئت..

ومع هذا كان ﷺ يقسم لهن، قال قتادة: أطلق الله له أن يقسم كيف شاء فلم يقسم إلا بالسوية[3].

وهكذا ـ وعلىٰ الرغم من أن الآية الكريمة تعطيه الحرية كاملة في عدم الالتزام بالقسم ـ فإنه لم يفعل ذلك، وظل طول حياته ملتزماً به.

* * *

وقد ظلت سنته ﷺ بالعدل بينهن سارية بعد وفاته ﷺ. فقد فرض عمر رضي الله عنه لكل من أزواج رسول الله ﷺ إثني عشر ألفاً، إلا صفية بنت حيي، وجويرية بنت الحارث رضي الله عنهما فقد فرض لكل واحدة منهما ستة آلاف.

فأبت صفية وجويرية أن تقبلا ذلك.

---

(١) رواه البخاري (٤٧٨٨)، ومسلم (١٤٦٤).

(٢) «فتح الباري» (٨/٥٢٦).

(٣) «فتح الباري» (٨/٥٢٦)، و«تفسير ابن كثير» عند الآية الكريمة.

فقال عمر ﷺ: إنما فَرضتُ لهن بالهجرة، أي: إن زوجاته ﷺ غير صفية وجويرية كن من المهاجرات، وهذا سبب التفريق.

فقالتا: ما فرضتَ لهن بالهجرة، إنما فرضت لهن لمكانتهن من رسول الله ﷺ، ولنا مثل مكانتهن.

وقالت عائشة رضي الله عنها: إن رسول الله ﷺ كان يعدل بيننا.

فرجع عمر ﷺ عن رأيه، وجعلهن سواء وعدل بينهن.

الفصل السابع
سلوكه ﷺ في بيته

سبق الحديث عن الخطوط العامة عن سيرته ﷺ في بيته، من المعيشة، وحسن المعاملة، والعدل وغير ذلك..

وفي هذا الفصل نتناول الأمور اليومية التي تكون عادة في البيوت، نتعرف فيها علىٰ مسلكه ﷺ، وذلك في الفقرات التالية:

في مهنة أهله:

أخرج البخاري عن الأسود قال: سألت عائشة: ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: كان يكون في مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة خرج إلىٰ الصلاة[1].

إن قول عائشة رضي الله عنها: «كان يكون في مهنة أهله» يلخص معالم حياته ﷺ البيتية بكل أبعادها، ويترك للمخاطب أن يستكمل معالم هذه الصورة من خلال معرفته بالبيت ولوازمه.

وقد فسر هذه الكلمة شيخ البخاري آدم بن إياس بقوله: تعني خدمة أهله[2].

وسواء أكان تفسيرها: «في معاونة أهله فيما هم فيه» أو «خدمة أهله» فإن المعنىٰ متقارب، وهو أنه لا يرىٰ أهله في عمل ثم يجلس دون أن يشاركهم فيما هم فيه.

وقد وردت أحاديث أخرىٰ تلقي الضوء علىٰ تفسير الحديث بضرب بعض الأمثلة من الواقع علىٰ هذه الخدمة:

---

(١) رواه البخاري (٦٧٦).

(٢) «فتح الباري» في تفسير الحديث المذكور.

قال عروة: سألت عائشة رضي الله عنها: ما كان النبي يعمل في بيته؟ قالت: يخصف نعله[1]، ويعمل ما يعمل الرجل في بيته[2].

وفي رواية: قالت: يخصف النعل، ويرقع الثوب ويخيط[3].

وفي جواب آخر قالت: كان بشراً من البشر، يفلي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه[4].

وهناك روايات كثيرة في الموضوع نفسه.

ويبدو أن هذه الأسئلة تكررت من الصحابة والتابعين للسيدة عائشة وبقية أزواجه ﷺ، فالجميع يريدون معرفة ذلك.

وكانت هذه الإجابات يتمم بعضها بعضاً، إنها صور رفيعة وضيئة تنقل لنا كيف كان النبي ﷺ في بيته.

كان يقوم بخدمة نفسه بنفسه طالما هو قادر علىٰ ذلك، فلا يطلب من غيره فعل شيء وهو قادر علىٰ أن يفعله بنفسه. وكيف لا يكون كذلك، وهو الذي بايع مرة بعض أصحابه (علىٰ أن لا يسألوا الناس شيئاً) حتىٰ قال راوي الحديث: «فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم ـ أي: وهو علىٰ راحلته ـ فما يسأل أحداً يناوله إياه»[5].

كما كان يساعد أهله في عملهم الذي يعملونه، كما جاء في نص الحديث الشريف.

ولا شك أنه ﷺ ـ لو أراد ـ لوَجَد من يخيط أو يرقع له ثوبه، ولوجد من يحلب له شاته، ولوجد من يفعل له الأمور الأخرىٰ.

---

(١) يخصف نعله: يخرزها.

(٢) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٥٣٩).

(٣) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٥٤٠).

(٤) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٥٤١)، وهو في «المسند». انظر «الفتح الرباني» (٢٢/٢٤).

(٥) رواه مسلم (١٠٤٣).

وهذا المسلك الكريم منه ﷺ في بيوته، يوضح أنه لم يكن يرىٰ أن من واجب زوجاته الخدمة، بل ذلك شيء يتبرعن به من تلقاء أنفسهن.

إنه ﷺ بخدمته نفسه يؤكد ـ وقبل كل شيء ـ أن المرأة ليست خادمة، كما أنها ليست في معنىٰ الخادمة[1].

---

(١) ليس هذا الحكم استنتاجاً من فعله ﷺ وحسب، بل إن أقواله ﷺ لتؤكد ذلك، فقد وردت أحاديث كثيرة تبين حقوق الزوج علىٰ زوجته، لا نجد فيها أي إشارة إلىٰ أن الخدمة واجبة علىٰ الزوجة.

وقد قرر هذا المعنىٰ ثلاثة من أئمة المذاهب هم: مالك، وأبو حنيفة، والشافعي، فقالوا بعدم وجوب خدمة المرأة لزوجها. [«فقه السنة» لسيد سابق (١٨٤/٢)، و«زاد المعاد» لابن القيم (١٨٨/٥)].

وذهبت طائفة أخرىٰ من الفقهاء: إلىٰ وجوب الخدمة في بيت الزوج، بناء علىٰ العُرف السائد في المجتمع، وقد أيّد الإمام ابن القيم هذا الاجتهاد، وذهب إليه، ومما احتج به:

خدمة السيدة فاطمة في بيت علي رضي الله عنهما.

وخدمة أسماء للزبير. فقد قالت: كنت أخدم الزبير خدمة البيت كله.

وقرر أصحاب المذهب الأول: أن ذلك كان تبرعاً منهما، وهو منهما من باب التطوع ومكارم الأخلاق.

وإذا أدخلنا هذه المسألة في ميدان أصول الفقه، فكل ما فيها أن الرسول ﷺ أقرّ خدمة فاطمة وأسماء، ومعلوم أن إقراره ﷺ يفيد الجواز ولا يفيد الوجوب، وهذا يعني: أنه يجوز للمرأة أن تخدم زوجها ولا يجب عليها.

والذي يجب أن نذكره مما استفدناه وفهمناه من سلوكه ﷺ بعيداً عن المناقشات الفقهية ما يلي:

١ ـ ليست المرأة في بيتها خادمة، أو شبه خادمة.

٢ ـ وقد جرت العادة أن تفعل ذلك محبة وتطوعاً، وإذا كان الأمر كذلك فلا يحسن بالزوج أن يلقي العبء كله عليها، بل عليه أن يشارك في أعمال بيته كما كان رسول الله ﷺ يفعل.

٣ ـ إن عدم اتفاق الفقهاء علىٰ وجوب خدمة المرأة في بيت زوجها، وذهاب معظمهم إلىٰ الرأي الأول الذي يقرر عدم الوجوب يفيدنا في أمر نفسي مهم ينبغي أن يستقر في خلد الزوج، وهو علمه بأن امرأته تقوم بهذه الخدمة متطوعة، وهذا بدوره يتطلب منه أمرين:

الأول: شكرها علىٰ ما تقوم به، والكلمة الطيبة دائماً صدقة.

الثاني: عدم التأفف أو الغضب إذا قصّرت في يوم من الأيام لعذر ما، ذلك لأنها متبرعة، والمتبرع لا يطالب عندما يقصر بما تبرع به.

وخلاصة القول: إن من أراد التأسي بالنبي الكريم في هذا الميدان فعليه أن يقوم بأمرين:

الأول: أن يخدم نفسه بنفسه كما كان النبي ﷺ يفعل ذلك.

الثاني: أن يكون في مهنة أهله، عندما يكون في بيته، كما كان سيد البشر ﷺ يفعل.

رحمته ﷺ وحسن معاملته لأهله:

وصف الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ بقوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] وهذه الرحمة والرأفة تشمل جميع المؤمنين بما فيهم أمهات المؤمنين. يضاف إلىٰ ذلك بالنسبة إليهن الرحمة الأخرىٰ والمودة التي جعلها الله تعالىٰ بين الأزواج، والمنصوص عليها بقوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

وهكذا فأمهات المؤمنين كن يعشن معه ﷺ في ظلال رحمتين صادرتين عمن وصفه الله بأنه «رحيم».

وما سبق الحديث عنه في الفقرة السابقة من كونه ﷺ «كان يكون في مهنة أهله» هو من نتاج تلك الرحمة.

وفي هذه الفقرة ننقل بعض المشاهد عن رحمته وحسن معاملته لأمهات المؤمنين رضي الله عنهن:

• قال ﷺ لعائشة رضي الله عنها مبيناً حسن معاملته لها بقوله: (كنت لك كأبي زرع لأم زرع)[1] وقد سبق شرح الحديث وبيان معناه.

• وهذا أنس رضي الله عنه، ينقل لنا صورته ﷺ وهو يساعد صفية علىٰ ركوب الراحلة فيقول: ثم يجلس ﷺ عند بعيره، فيضع ركبته، فتضع صفية رجلها علىٰ ركبته حتىٰ تركب[2].

---

(١) رواه البخاري (٥١٨٩)، ومسلم (٢٤٤٨).

(٢) رواه البخاري (٢٨٩٣).

● وتصف عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ازدياد عطفه علىٰ من يصيبها المرض منهن فتقول وهي تتحدث عن قصة الإفك: ويريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرىٰ منه حين أشتكي[1].

فقد كان لطفه كبيراً في حالة مرضها ولكنه هذه المرة كان مهموماً بأمر قصة الإفك، فكان هذا شاغلاً له عن ذلك.

● وتأتي صفية لتزوره، وهو معتكف في المسجد في رمضان، فتتحدث عنده ساعة، ثم تقوم لترجع إلىٰ بيتها، فلا يمنعه اعتكافه أن يخرج معها حتىٰ يوصلها إلىٰ منزلها.. ومرَّ أثناء ذلك رجلان من الأنصار فقال لهما النبي ﷺ: (علىٰ رسلكما، إنما هي صفية بنت حيي) فقالا: سبحان الله، يا رسول الله، وكبر عليهما، فقال النبي ﷺ: (إن الشيطان يبلغ من الإنسان مبلغ الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً)[2].

إنه ﷺ لما كان الوقت عشاء أحب أن لا ترجع منفردة فقام معها..

● وقد رأينا كيف كان اهتمامه ﷺ بها أكثر من نفسه عندما وقعا عن ظهر البعير عند دخول المدينة..

● ونختم هذه المواقف بهذه الحادثة التي رواها الإمام مسلم رحمه الله تعالىٰ.

قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: لما كانت ليلتي التي كان النبي ﷺ فيها عندي، انقلب فوضع رداءه، وخلع نعليه، فوضعهما عند رجليه، وبسط طرف إزاره علىٰ فراشه، فاضطجع، فلم يلبث إلا ريثما ظن أنْ قد رقدت.

فأخذ رداءه رويداً، وانتعل رويداً، وفتح الباب فخرج، ثم أجافه رويداً[3].

---

(١) رواه البخاري (٤١٤١)، ومسلم (٢٧٧٠).
(٢) رواه البخاري (٢٠٣٥)، ومسلم (٢١٧٥).
(٣) أجافه رويداً: أي أغلقه قليلاً قليلاً بلطف لئلا يوقظها.

فجعلت درعي[1] في رأسي، واختمرت، وتقنعت إزاري[2]، ثم انطلقت علىٰ إثره، حتىٰ جاء البقيع، فقام فأطال القيام، ثم رفع يديه ثلاث مرات. ثم انحرف فانحرفت، فأسرع، فأسرعت، فهرول فهرولت، فأحضر فأحضرت[3].

فسبقتُه فدخلتُ، فليس إلا أن اضطجعت فدخل.

فقال: (ما لك؟ يا عائش! حشيا رابية!)[4].

قالت: قلت: لا شيء.

قال: (لتخبريني أو ليخبرني اللطيف الخبير).

قالت: قلت: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي! فأخبرته..

قال: (فأنت السواد[5] الذي رأيت أمامي؟).

قُلت: نعم.

فلهدني[6] في صدري لهدة أوجعتني ثم قال: (أظننت أن يحيف الله عليك ورسوله؟).

قالت: مهما يكتم الناس يعلمه الله، نعم.

قال: (فإن جبريل أتاني حين رأيت، فناداني، فأخفاه منك، فأجبته، فأخفيته منك، ولم يكن يدخل عليك وقد وضعت ثيابك، وظننتُ أن قد

---

(١) درع المرأة: قميصها.
(٢) أي: لبسته، والقناع في الأصل ما يوضع علىٰ الرأس.
(٣) أحضرت: الإحضار: العدْو، وهو فوق الهرولة.
(٤) حشيا رابية: أي وقع عليك الحشا، وهو الربو، والتهيج الذي يعرض للمسرع في مشيه، من ارتفاع النفس وتواتره.
(٥) السواد: أي لشخص.
(٦) لهدني: لهدة: أي دفعه.

رقدتِ، فكرهتُ أن أوقظك، وخشيتُ أن تستوحشي. فقال: إن ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم)[1]..

وكل تعليق على الحديث لن يؤدي الغرض، لأنه لن يؤدي المعاني حقها.

وبالجملة: فالحديث يبين مدى حرصه ﷺ على أن تكون عائشة بالوضع الذي يؤمّن لها الراحة وعدم القلق.

فقد اتخذ كل الهدوء في لبسه وانتعاله وخروجه وإغلاقه الباب.. حتى لا يوقظها.

وخاف إن أيقظها وأعلمها بوجهته أن تستوحش..

لقد اختار ما ظنه الأفضل في تأمين راحتها.. فأي سلوك هذا!!

إن قلنا: هو اللطف.. فتلك صفة لا يدانيه فيها أحد.

وإن قلنا: هو الرحمة.. فهو القائل: (الراحمون يرحمهم الرحمٰن)[2].

وإن قلنا هو الحب.. فتلك عاطفة السمو الرفيعة.

* * *

تلك نماذج تبين جانباً من حسن معاملته ﷺ لأمهات المؤمنين، مع ما يصاحب ذلك في الحنو والعطف والحب.

وقد سئلت عائشة رضي الله عنها: كيف كان رسول الله ﷺ إذا خلا في بيته؟ فقالت: كان ألين الناس بسّاماً..[3].

---

(١) رواه مسلم (٩٧٤).

(٢) رواه أبو داود (٤٩٤١)، والترمذي (١٩٢٤).

(٣) «المواهب اللدنية» (٣٤١/٢) قال: رواه ابن سعد وغيره.

وعائشة رضي الله عنها لا تفشي سراً بقولها هذا، فقد شاع ذلك بين الصحابة رضي الله عنهم، حتىٰ رأينا جابر بن عبدالله رضي الله عنه، وهو يتحدث عن عمرة عائشة بعد الحج، يعلق علىٰ ذلك بقوله: وكان رسول الله ﷺ رجلاً سهلاً إذا هويت الشيء تابعها عليه[1].

علىٰ أن هذا اللين وتلك السهولة ليس علىٰ إطلاقهما، بل هما مقيدان بدائرة «المباح» فإذا خرج الأمر عن ذلك فإنا نجد منه ﷺ موقفاً آخر.

فقد دخل رسول الله ﷺ علىٰ عائشة، بعد قدومه من سفر، فرآها وقد سترت سهوة[2] لها بقرام[3] فيه صور، فتلوَّن وجهه ﷺ، ثم تناول الستر فهتكه ثم قال: (أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله)[4].

وهكذا لا نجد هنا اللين الذي تحدثنا عنه، ولم يكتفِ ﷺ بأمر عائشة بأن ترفعه، بل هتكه بيده.

الغضب أحياناً:

ومع كل هذا اللين والعطف، فإن بعض المشكلات لا بد أن تكون في البيت بين المرأة وزوجها.

وبيوت الرسول ﷺ كان يحدث فيها هذا، كغيرها من البيوت، فنساؤه ﷺ بشر من البشر، ونساء من النساء، وهو ﷺ من البشر ـ كما قال عن نفسه ـ يغضب ويرضىٰ.

وهذا ميدان آخر يظهر فيه حسن معاملته.. كما هو شأنه في كل ميدان.

---

(١) رواه مسلم (١٢١٣).

(٢) سهوة: الخزانة الصغيرة تكون في الجدار.

(٣) قرام: هو الستر الرقيق.

(٤) رواه البخاري (٥٩٥٤، ٦١٠٩)، ومسلم (٢١٠٧).

ولنترك الحديث لعمر ﷺ يحدثنا عنه عندما اكتشفه لأول مرة.

قال عمر ﷺ: «إنا كنا في الجاهلية ما نعد للنساء أمراً، حتىٰ أنزل الله فيهن ما أنزل، وقسم لهن ما قسم.

قال: فبينا أنا في أمر أتأمره، إذ قالت امرأتي: لو صنعت كذا وكذا.

قال: فقلت لها: ما لك ولما هاهنا، فيما تكلُّفك في أمر أريده؟

فقالت لي: عجباً لك يا ابن الخطاب، ما تريد أن تراجع أنت؟ وإن ابنتك لتراجع رسولَ الله ﷺ حتىٰ يظل يومه غضبان!

فقام عمر فأخذ رداءه، حتىٰ دخل علىٰ حفصة، فقال لها: يا بنية، إنك لتراجعين رسول الله ﷺ حتىٰ يظل يومه غضبان؟

فقالت حفصة: والله إنا لنراجعه.

فقال: تعلمين أني أحذرك عقوبة الله، وغضب رسوله ﷺ.

قال عمر: ثم خرجت حتىٰ دخلت علىٰ أم سلمة لقرابتي منها، فكلمتها.

فقالت أم سلمة: عجباً لك يا ابن الخطاب، دخلت في كل شيء، حتىٰ تبتغي أن تدخل بين رسول الله ﷺ وأزواجه.

قال عمر: فأخذتني ـ والله ـ أخذاً كسرتني عن بعض ما كنت أجد.. ثم أتيت رسول الله ﷺ فقصصت عليه هذا الحديث، فلما بلغت حديث أم سلمة تبسّم رسول الله ﷺ[(١)].

لم تكن المرأة ـ في نظر القوم ـ تستشار في أمر، بل ينكر عليها أن تبدي رأيها، فضلاً عن أن تكون لها وجهة نظر تدافع عنها، أو تراجع الرجل بشأنها.

---

(١) رواه البخاري (٤٩١٣).

تلك هي الصورة التي تأخذ أبعادها في ذهن القارئ، وهو يمعن النظر في قول عمر ﷺ.

ولكن الأمر في بيوت رسول الله ﷺ علىٰ غير هذا، فهو يستمع لزوجاته، ويسمعن منه، وقد تتفق وجهات النظر، وقد تختلف، وقد يغضب من إحداهن يوماً، وقد تغضب إحداهن منه يوماً، وهكذا هي الحياة في واقعها الصحيح، فللمرأة رأيها، وهي أهل لأن تناقش وتدلي بدلوها، وبخاصة فيما يكون في دائرتها من شؤون بيتها.

وقد يكثر هذا الاختلاف والغضب والرضىٰ، كما حصل من عائشة، وحتىٰ استطاع النبي ﷺ بالاستقراء والتكرار أن يعرف علامات ذلك حتىٰ قال لها: (إني لأعلم إذا كنت عني راضية، وإذا كنت علي غضبىٰ) ويبين لها علامات ذلك مما استنتجته من تكرر غضبها. وقد سبق الحديث عن ذلك..

وهكذا تغضب عائشة وترضىٰ.

وتغضب حفصة.. كما صرحت لأبيها.

وكذلك بقية أزواجه كن يفعلن.

وكذلك يغضب رسول الله ﷺ أحياناً..

فها هي صفية تبرم صفقة مع عائشة في سبيل إرضاء النبي ﷺ..

قالت عائشة: وَجَد النبي ﷺ علىٰ صفية في شيء، فقالت صفية: يا عائشة أرضِ عني رسول الله ﷺ ولك يومي.

قالت عائشة: نعم.. وأخذتُ خماراً لها مصبوغاً بزعفران، فرشّته بالماء ليفوح ريحه.. وقعدت إلىٰ جنب رسول الله ﷺ.

فقال ﷺ: (إليكِ عني يا عائشة، إنه ليس يومك).

قالت: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.. وأخبرته الخبر.. ورضي ﷺ عن صفية[1].

وأخرج الإمام أحمد من حديث صفية: أن رسول الله ﷺ حجّ بنسائه.. فلما كانوا في الطريق برك جمل صفية بنت حيي، فقال رسول الله ﷺ لزينب بنت جحش: (يا زينب، أفقري[2] أختك صفية جملاً) وكانت من أكثرهن ظهراً، فقالت: أنا أفقر يهوديتك؟ فغضب النبي ﷺ حين سمع ذلك منها فهجرها فلم يكلمها حتىٰ قدم المدينة، ومضىٰ المحرم وصفر فلم يأتها، ولم يقسم لها، ويئست منه، فلما كان شهر ربيع الأول، دخل عليها[3].

ولعل هذا كان عقوبة لها علىٰ اتهامها صفية ووصفها باليهودية بعد أن أصبحت مسلمة.

* * *

وقد ترتفع أصوات أمهات المؤمنين عند اجتماعهن، إذ كن يجتمعن كل ليلة عند التي يكون مبيت النبي ﷺ عندها، فإذا جاء وقت النوم انصرفن إلىٰ حجرهن، وقد تحصل بعض المشادات بينهن خلال ذلك.

ومن ذلك ما رواه أنس ﷺ إذ قال: كان للنبي ﷺ تسع نسوة، فكان إذا قسم بينهن لا ينتهي إلىٰ المرأة الأولىٰ إلا في تسع، فكنّ يجتمعن كل ليلة في بيت التي يأتيها، فكان في بيت عائشة، فجاءت زينب، فمدّ يده إليها، فقالت: هذه زينب، فكفّ النبي ﷺ يده، فتقاولتا حتىٰ استخبتا[4]، وأقيمت الصلاة، فمرّ أبو بكر علىٰ ذلك، فسمع أصواتهما، فقال: اخرج، يا رسول الله إلىٰ الصلاة، واحثُ في أفواههن التراب. فخرج النبي ﷺ

(١) رواه الإمام أحمد، «الفتح الرباني» للبنا (١١٢/٢٢).
(٢) أفقري: أفقر البعير: أي أعاره للركوب.
(٣) رواه الإمام أحمد، «الفتح الرباني» للبنا (١٤٣/٢٢ ـ ١٤٤).
(٤) استخبتا: من السخب، وهو اختلاط الأصوات وارتفاعها.

فقالت عائشة: الآن يقضي النبي ﷺ صلاته، فيجيء أبو بكر فيفعل بي ويفعل. فلما قضىٰ النبي ﷺ صلاته أتاها أبو بكر فقال لها قولاً شديداً، وقال: أتصنعين هذا[1]؟

وإذا كان ارتفاع الأصوات في هذه المرة بين عائشة وزينب، فقد يرتفع صوت إحداهن بعض الأحيان علىٰ النبي ﷺ.

فقد استأذن أبو بكر علىٰ النبي ﷺ، فسمع صوت عائشة عالياً، فلما دخل تناول ليلطمها، وقال: ألا أراكِ ترفعين صوتك علىٰ رسول الله ﷺ؟! فجعل النبي ﷺ يحجزه، وخرج أبو بكر مغضباً، فقال النبي ﷺ حين خرج أبو بكر: (كيف رأيتني أنقذتك من الرجل؟).

فمكث أبو بكر أياماً، ثم استأذن علىٰ رسول الله ﷺ فوجدهما قد اصطلحا، فقال لهما: أدخلاني في سِلمكما كما أدخلتماني في حربكما، فقال النبي ﷺ: (قد فعلنا، قد فعلنا)[2].

تلك صور تفتح الأعين علىٰ كريم أخلاقه ﷺ وحسن معاشرته أزواجَه في الرضا والغضب، وكيف كان بواسع صدره الكريم يسعهن علىٰ كل أحوالهن بما في ذلك تحايلهن عليه بدافع الغيرة، ونذكر مثالاً لذلك:

قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ يحب الحلواء، ويحب العسل، وكان إذا صلّىٰ العصر أجاز علىٰ نسائه فيدنو منهن. فدخل علىٰ حفصة، فاحتبس عندها أكثر مما كان يحتبس، فسألتُ عن ذلك فقيل لي: أهدت لها امرأة من قومها عكة عسل، فسقت رسول الله ﷺ منه شربة. فقلت: أما والله لنحتالن له، فذكرت ذلك لسودة وقلت لها: إذا دخل عليك فإنه سيدنو منك، فقولي له: يا رسول الله أكلت مغافير[3]؟ فإنه سيقول: لا، فقولي له: ما هذه الريح؟ ـ وكان رسول الله ﷺ يشتد عليه أن توجد منه الريح ـ

(١) رواه مسلم (١٤٦٢).

(٢) رواه أبو داود (٤٩٩٩)، وكذلك الإمام أحمد.

(٣) صمغ حلو له رائحة كريهة.

فإنه سيقول: سقتني حفصة شربة عسل، فقولي له: جرست نحلُه العرافط[1]، وسأقول ذلك، وقوليه أنت يا صفية.

فلما دخل علىٰ سودة ـ تقول سودة: والذي لا إله إلا هو، لقد كدت أن أباديه بالذي قلت لي وإنه علىٰ الباب، فرقاً منك ـ فلما دنا رسول الله ﷺ قلت: يا رسول الله، أكلت مغافير؟ قال: (لا)، قلت: فما هذه الريح؟ قال: (سقتني حفصة شربة عسل) قلت: جرست نحله العرفط.

تقول عائشة: ولما دخل علي قلت له مثل ذلك.

ودخل علىٰ صفية، فقالت له مثل ذلك.

فلما دخل علىٰ حفصة قالت له: يا رسول الله، ألا أسقيك منه؟ قال: (لا حاجة لي به).

قالت: تقول سودة: سبحان الله، لقد حرمناه.

قالت: قلت لها: اسكتي[2].

وإذا كانت عائشة تقص علينا أخبار انتصاراتها، فهي أيضاً تعترف بفشلها بعض الأحيان فتقول:

كان النبي ﷺ إذا خرج في سفر أقرع بين نسائه، فطارت القرعة لعائشة وحفصة، وكان ﷺ إذا كان بالليل سار مع عائشة يتحدث.

فقالت حفصة: ألا تركبين الليلة بعيري وأركب بعيرك، تنظرين وأنظر؟ فقالت: بلىٰ، فركبت.

فجاء النبي ﷺ إلىٰ جمل عائشة ـ وعليه حفصة ـ فسلّم عليها، ثم سار حتىٰ نزلوا وافتقدته عائشة. فلما نزلوا جعلت رجليها بين الإذخر وتقول: يا رب سلط عليّ عقرباً أو حيّة تلدغني، ولا أستطيع أن أقول شيئاً[3].

* * *

---

(١) جرست نحله العرفط: أي رعت نحل هذا العسل العرفط، والعرفط: شجر ينتج الصمغ المسمىٰ بالمغافير، ذو الرائحة الكريهة.

(٢) رواه البخاري (٦٩٧٢)، ومسلم (١٤٧٤).

(٣) رواه البخاري (٥٢١١)، ومسلم (٢٤٤٥).

ومن المواقف التي أغضبت النبي ﷺ ما ذكره الإمام أحمد في «مسنده» عن عائشة رضي الله عنها.

قالت: دخل علي النبي ﷺ بأسير، فلهوت عنه، فذهبَ[1]..

فجاء النبي ﷺ فقال: (ما فعل الأسير؟).

قالت: لهوتُ عنه مع النسوة فخرج.

فقال: (ما لكِ!! قطع الله يديك) فخرج فآذن الناس فطلبوه، فجاؤوا به.

قالت: فدخل عليَّ وأنا أقلب يديَّ، فقال: (ما لكِ؟ أجننت؟). قالت: قلت: دعوتَ عليَّ فأنا أنظر أيهما يقطعان..

فحمد النبي ﷺ الله، وأثنىٰ عليه، ورفع يديه مداً، وقال: (اللهم إني بشر، أغضب كما يغضب البشر، فأيما مؤمن أو مؤمنة دعوت عليه فاجعله له زكاة وطهوراً)[2].

ويلاحظ القارئ لهذا الحديث:

ـ أنه ﷺ عندما غضب، لم يعاقب لم يضرب.. ولم يكن منه إلا هذه الكلمة التي دفع بها الغضب.

ـ أنه عاد إلىٰ البيت ثانية وقد ذهب عنه الغضب، وعادت نفسه إلىٰ صفائها، وكأنه نسي الحادثة، ولم يتذكرها إلا عندما رأىٰ عائشة وهي تقلب يديها.. فلم يعنف ولم يطل الحديث والتعليق علىٰ تقصيرها.. وانتهىٰ الموضوع كله في الموقف الأول.

وبهذا المسلك الكريم يبين ﷺ كيف ينبغي حصر دائرة الغضب في وقت محدود والتخلص من آثاره بقصره علىٰ وقت الحدث وعدم العودة إليه عتاباً وملامة..

إنه ﷺ صاحب الخلق الكريم.

* * *

---

(١) هذه الحادثة كانت ـ والله أعلم ـ قبل فرض الحجاب.

(٢) «المسند» برقم (٢٤٢٥٩) طبعة مؤسسة الرسالة. قال الشيخ شعيب الأرناؤوط: صحيح على شرط الشيخين.

تلك بعض الوقائع التي تسجل جانباً من حياة أمهات المؤمنين.. وفيها الرضا.. والغضب.. والغيرة.. تسجلها السنة المطهرة، ليعلم الناس كيف كانت حياته ﷺ مع زوجاته، ومدىٰ صبره عليهن، مع ما هو فيه من إدارة شؤون المسلمين، وقيادة المعارك، وتبليغ الدعوة.

لكل بيت استقلاله:

هذا وقد كان لكل بيت من بيوت رسول الله ﷺ استقلاله عن بقية البيوت. فقد كان ﷺ يسوِّي بالنفقة بين زوجاته، وتبقىٰ لكل منهن خصوصيتها في بيتها.

وقد رأينا كيف أن عمر بن الخطاب ﷺ طلب من ابنته حفصة أن تسأله ما تريد من مال أو متاع، ولا تثقل بطلباتها عليه ﷺ.

ومن هذا يفهم أنه كان لبعضهن بعض الموارد التي تصلهن من أهلهن أو أقربائهن أو معارفهن.

ومما يدل علىٰ هذه الاستقلالية: أن الهدايا التي كانت تصل إلىٰ بيت من بيوته ﷺ ما كان يأمر صاحبة ذلك البيت أن تقسمها بين بقية البيوت.

فهذه حفصة تصلها هدية من عسل وتسقي منها رسول الله ﷺ.

وهذه زينب بنت جحش كذلك تصلها هدية من عسل وتسقي رسول الله ﷺ منها.

وهذه ميمونة تهدي لها أختها حفيدة بنت الحارث أقطاً وسمناً وأضباً.. فيأكل النبي من الأقط والسمن ويترك الضب.

والهدايا التي كانت تصل إلىٰ عائشة كثيرة، وكانت سبباً لمشكلة سبق الحديث عنها.

وهذه أم سلمة تبني جدار حجرتها باللبن ـ بعد أن كان من سعف النخيل ـ أثناء غيابه ﷺ في إحدىٰ الغزوات.

وهذه زينب ترفض مساعدة صفية في إفقارها بعيراً.. كما رأينا.. وهذا

يعني أنه تملُّك خاص بها، ولم يكن لرسول الله ﷺ، وإلا لما كان بحاجة إلىٰ استئذانها..

وهذه عائشة رضي الله عنها تقول: دخل علي سائل مرة، وعندي رسول الله ﷺ، فأمرت له بشيء، ثم دعوت به فنظرت إليه، فقال رسول الله ﷺ: (أما تريدين أن لا يدخل بيتك شيء ولا يخرج إلا بعلمك؟) قالت: نعم، قال: (مهلاً يا عائشة، لا تحصي فيحصي الله عز وجل عليك)[1].

وهو ﷺ لم ينكر عليها معرفتها كل ما يجري في بيتها، وإنما وجهها إلىٰ عدم إحصاء ما تنفق في سبيل الله تعالىٰ.

ومما يؤكد استقلالية هذه البيوت، ما رأينا من أمر النبي ﷺ يوم غارت عائشة من الطعام الذي بعثت به أم سلمة.. فكسرت الصحفة، فقال ﷺ: (وعاء بوعاء..).

وخلاصة القول: أنه ﷺ كان يعدل بين بيوته في النفقة والقسم.. ولكن هذا لا يمنع أن يكون لكل بيت استقلاله.. كما رأينا.. إذ لكل زوجة علاقاتها الاجتماعية بالأهل والأقارب وعلاقاتها المادية، فقد تكون صاحبة أموال.. وذات غنىٰ.

المباسطة.. والمزاح:

قال حنظلة الأُسيدي: يا رسول الله، نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة، حتىٰ كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات. نسينا كثيراً.

فقال رسول الله ﷺ: (والذي نفسي بيده، إنْ لو تدومون علىٰ ما تكونون عندي، وفي الذكر، لصافحتكم الملائكة علىٰ فرشكم وفي طرقكم، ولكن ـ يا حنظلة ـ ساعة وساعة)[2].

---

(١) رواه النسائي (٢٥٤٨).

(٢) رواه مسلم (٢٧٥٠).

ولقد كان لهذه الساعة مكانها في بيوته ﷺ.

فاللهو والمرح والمزاح أمر ضروري في الحياة، شأنه شأن الملح للطعام، القليل منه يؤدي الغرض، فإذا كثر أفسد الطعام.

ولنذكر بعض ما كان من ذلك بينه ﷺ وبين زوجاته..

● قالت عائشة رضي الله عنها: كنت في سفر مع النبي ﷺ، قالت: فسابقته فسبقته علىٰ رجلي، فلما حملت اللحم سابقته فسبقني، فقال: (هذه بتلك السبقة)(١)..

وقوله: (هذه بتلك) إنما هو من باب تطييب خاطرها حين سبقها.

● وقالت مرة: وارأساه.

فقال رسول الله ﷺ: (ذاك لو كان وأنا حيٌّ، فأستغفر لك، وأدعو لك).

فقالت عائشة: واثكلياه، والله إني لأظنك تحب موتي، ولو كان ذلك لظللت آخر يومك معرساً ببعض أزواجك..(٢).

● وقالت رضي الله عنها: حدَّث رسول الله ﷺ نساءه ذات ليلة حديثاً، فقالت امرأة منهن: يا رسول الله، كأن الحديث حديث خرافة.

فقال: (أتدرون ما خرافة؟ إن خرافة كان رجلاً من عذرة، أسرته الجن في الجاهلية، فمكث فيهن طويلاً، ثم ردوه إلىٰ الإنس فكان يحدث الناس بما رأىٰ فيهم من أعاجيب، فقال الناس: حديث خرافة)(٣).

---

(١) رواه أبو داود (٢٥٦٨). ولفظ الإمام أحمد: خرجت مع النبي ﷺ في بعض أسفاره وأنا جارية لم أحمل اللحم ولم أبدن، فقال للناس: تقدموا، ثم قال لي: (تعالي حتىٰ أسابقك) فسابقته فسبقته، فسكت عني حتىٰ إذا حملت اللحم وبدنت، ونسيت، خرجت معه في بعض أسفاره، فقال للناس: (تقدموا) فتقدموا، ثم قال لي: (تعالي حتىٰ أسابقك) فسابقته فسبقني، فجعل يضحك ويقول: (هذه بتلك) (٢٦٢٧٧).

(٢) رواه البخاري (٥٦٦٦).

(٣) رواه الإمام أحمد، «الفتح الرباني» للبنا (٢٠٥/١٩) وقال: سنده جيد.

ومحل الشاهد اجتماعه بهن وحديثه إليهن..

ويبدو أن إحداهن لم تستوعب الحديث أو كان أمراً غريباً، فقالت بلغة فيها الكثير من الأدب: «كأن الحديث حديث خرافة» أي شيء لا يصدق.

ولم يغضب ذلك رسول الله ﷺ لما فيه ـ بشكل غير مباشر ـ من عدم تصديقها له، بل شرح لهم أن خرافة كان اسماً لرجل وأن ما كان يقوله كان حقيقة واقعاً[1].

● قالت عائشة رضي الله عنها: أهدي لرسول الله ﷺ قلادة من جزع ملمعة بالذهب، ونساؤه مجتمعات في بيت كلهن، وأمامة بنت أبي العاص بن الربيع جارية تلعب في جانب البيت بالتراب.

فقال رسول الله ﷺ: (كيف ترين هذه؟).

فنظرنا إليها فقلنا: يا رسول الله، ما رأينا أحسن من هذه قط ولا أعجب.

فقال: (اردنها إليّ) فلما أخذها قال: (والله، لأضعنها في رقبة أحب أهل البيت إليّ).

قالت عائشة: فأظلمت عليَّ الأرض بيني وبينه، خشية أن يضعها في رقبة غيري منهن، ولا أراهن إلا أصابهن مثل الذي أصابني. ووجمنا جميعاً سكوت.

فأقبل بها حتى وضعها في رقبة أمامة بنت أبي العاص.

---

(١) ومثل هذا ما رواه أبو هريرة قال: صلى رسول الله ﷺ الصبح ثم أقبل على الناس فقال: (بينا رجل يسوق بقرة إذ ركبها فضربها، فقالت: إنا لم نخلق لهذا، إنما خلقنا للحرث)، فقال الناس: سبحان الله، بقرة تتكلم، فقال ﷺ: (فإني أؤمن بهذا أنا وأبو بكر وعمر) وما هما ثمّ [رواه البخاري: ٣٤٧١].

وهكذا استغرب الصحابة ما لم تجرِ العادة به، كما استغربت المتكلمة كلامه ﷺ.. لأنه كان من هذ النوع.

قالت عائشة: فسري عنا[1].

وما كان ﷺ ليضعها في رقبة إحداهن، لأن ذلك مخالف لمسلك العدل الذي عرف منه، ولأنه لم يكن ليجرح شعور الجميع لتفرح واحدة، وإنما كان ذلك منه في دائرة المزاح، الذي جعلهنَّ في الوضع الذي وصفته عائشة ثم سرِّي عن الجميع.

● وقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: دخل عليَّ رسول الله ﷺ وعندي جاريتان تغنيان بغناء بعاث، فاضطجع على الفراش وحوّل وجهه.

ودخل أبو بكر، فانتهرني وقال: مزمارة الشيطان عند النبي ﷺ؟!

فأقبل عليه رسول الله ﷺ فقال: (دعهما).

فلما غفل غمزتهما فخرجتا.

وكان يوم عيد، يلعب السودان بالدرق والحراب، فإما سألت النبي ﷺ وإما قال: (تشتهين تنظرين؟) فقلت: نعم. فأقامني وراءه خدي على خده، وهو يقول: (دونكم يا بني أرفده) حتى إذا مللت قال: (حسبك؟) قلت: نعم، قال: (فاذهبي)[2].

● وقالت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أتيت النبي ﷺ بخزيرة طبختها له، وقلت لسودة ـ والنبي ﷺ بيني وبينها ـ: كلي، فأبت. فقلت لها: كلي، فأبت، فقلت لها: لتأكلين أو لألطخن بها وجهك. فأبت.

فوضعت يدي في الخريزة، فلطخت بها وجهها.

فضحك النبي ﷺ فوضع فخذه لها، وقال: (الطخي وجهها).

فلطخت وجهي، فضحك ﷺ[3].

* * *

(١) «مجمع الزوائد» (٢٥٤/٩) وقال: رواه الطبراني واللفظ له، وأحمد باختصار وأبو يعلى. وإسناد أحمد وأبي يعلى حسن.
(٢) رواه البخاري (٩٤٩، ٩٥٠)، ومسلم (٨٩٢).
(٣) «المواهب اللدنية» للقسطلاني (٣٤٩/٢).

تلك نماذج من مباسطته ومزاحه في بيوت زوجاته، تبين سماحته وخلقه العظيم الذي وصفه الله تعالىٰ به.

منهج للبشر:

من خلال ما سبق، تبرز حقيقة واضحة ناصعة، ينبغي ألا تغيب عن الفكر، وهي أن زوجاته ﷺ كنّ يتعاملن معه من خلال بشريته ﷺ لا من خلال نبوته، فتارة يحتالون له، وتارة يحتالون عليه، وتارة يغاضبنه أو تغاضبه إحداهن، وتارة يجد علىٰ الواحدة منهن..

وهو بسلوكه معهن يرسم لنا الصورة البشرية كاملة، لتكون معلماً للأزواج في تعاملهم مع أزواجهم..

ومن تمام هذه الصورة اهتمامه ﷺ بأمر أزواجه بعد موته، كما هو مسلك كل إنسان يترك بعد موته من هو بحاجة إلىٰ الرعاية والعطف.

فقد أخرج الإمام أحمد والترمذي من حديث عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ كان يقول: (إن أمركن مما يهمني بعدي، ولن يصبر عليكن إلا الصابرون)(١).

وفي رواية أخرىٰ للإمام أحمد: قالت عائشة رضي الله عنها: إن رسول الله ﷺ أحنىٰ علي فقال: (إنكن لأهم ما أترك إلي وراء ظهري، والله لا يعطف عليكن إلا الصابرون أو الصادقون)(٢).

وهكذا نجده ﷺ يرسم لنا الصورة كاملة واضحة، من خلال الواقع الذي يحسه كل إنسان..

كان همه قائماً بمن يخلف وراءه..

وتحدثت عائشة بهذا الحديث إلىٰ أبي سلمة بن عبدالرحمٰن بن عوف،

---

(١) رواه الترمذي (٣٧٤٩)، والإمام أحمد «الفتح الرباني» للبنا (١٥١/٢٢).
(٢) رواه الإمام أحمد «الفتح الرباني» (١٥٢/٢٢).

ثم قالت: فسقىٰ الله أباك من سلسبيل الجنة ـ تريد عبدالرحمٰن بن عوف ـ وكان وصل أزواج النبي ﷺ بمال بيعت بأربعين ألفاً[1].

وهكذا كان عبدالرحمٰن واحداً ممن ذهب بدعوة عائشة رضي الله عنها، وبوصف الصابرين والصادقين الذي ذكره رسول الله ﷺ.

لقد كان ﷺ يسنّ للناس، يسنّ للإنسان، بكل ما في الإنسان من عواطف واهتمامات.

وكان نساؤه كذلك، لهن اهتمامات النساء، فكانت صورة التعامل الإنساني الواقعي قائمة بكل أبعادها، ضمن إطار الشرع الذي كان يبينه ﷺ بقوله وفعله. ولنضرب بعض الأمثلة من حياتهن رضي الله عنهن.

● كانت عائشة تستعير الحلي لتتزين به، كما هو شأن كل امرأة، ومن المعروف أن سبب قصة «الإفك» أنها استعارت عقداً من أختها ففقدته أثناء قضاء حاجتها فرجعت في التماسه..

وكان عقد آخر لعائشة فقدته أيضاً في إحدىٰ الغزوات، حتىٰ حبس الرسول ﷺ الناس علىٰ التماسه. وقالت عائشة: لقيت من أبي بكر ما شاء الله وقال لي: يا بنية، في كل سفر تكونين عناء وبلاء، وليس مع الناس ماء، فأنزل الله رخصة التيمم.. وعندما قام البعير وجد العقد تحته[2].

ومحل الشاهد: أن عائشة كانت حريصة علىٰ الزينة في السفر، وحتىٰ لو كانت هذه الزينة علىٰ سبيل الاستعارة.

● وفي بعض العمليات التجميلية كان نساء النبي ﷺ يأخذن من شعر رؤوسهن كما جاء ذلك في «صحيح مسلم»، حيث قال: «وكان أزواج

---

(١) رواه الترمذي (٣٧٤٩)، والمقصود بالمال: حديقة بيعت بالمبلغ المذكور، كما جاء إيضاح ذلك في حديث الترمذي (٣٧٥٠).

(٢) «سيرة خير العباد» لابن القيم، نشره المكتب الإسلامي (ص١٨١ ـ ١٨٢).

النبي ﷺ يأخذن من رؤوسهن حتىٰ تكون كالوفرة[1]»[2].

وهكذا كان شأنهن شأن بقية النساء.

● وفي شأن الثياب روىٰ البخاري عن أيمن قال: دخلت علىٰ عائشة رضي الله عنها وعليها درع قطر، ثمن خمسة دراهم، فقالت: ارفع بصرك إلىٰ جاريتي، انظر إليها، فإنها تزهىٰ أن تلبسه في البيت، وقد كان لي منهن درع علىٰ عهد رسول الله ﷺ فما كانت امرأة تقين[3] بالمدينة إلا أرسلت إلي تستعيره»[4].

وفي الحديث معان كثيرة، ومحل الشاهد فيه أن عائشة رضي الله عنها كان لها ثوب في زمنه ﷺ تستعيره كل عروس عندما تزف لزوجها، مما يدل علىٰ نفاسته في زمنه.

ومن هذه الأمثلة وغيرها نتبين أنهن رضي الله عنهن كنّ كبقية النساء، لهن كل رغباتهن.. في اللباس والزينة والهندام..

---

(١) الوفرة: الشعر إذا كان إلىٰ الأذنين.

(٢) رواه مسلم (٣٢٠).

(٣) تقين: أي تجلىٰ علىٰ زوجها.

(٤) رواه البخاري (٢٦٢٨).

الفصل الثامن
ما ضرب النبي ﷺ امرأة قط

مسألة «ضرب الزوجة» هي إحدىٰ مسائل الفصل السابق، فهي جزء من سلوك الرجل في بيته، وكان ينبغي ذكرها كفقرة فيه، حيث لم يضرب النبي ﷺ امرأة قط في حياته.

ولكنه لما طغىٰ الجهل لدىٰ كثير من المسلمين، بات بعضهم يرىٰ أن ضرب الزوجة هو حق من حقوق الزوج، لأن القرآن الكريم يقول: ﴿وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ﴾.

ومثل هذا الإنسان مثل من يقول: إن القرآن نهىٰ عن الصلاة فقال: ﴿لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

ولما لهذه المسألة من خطر، ولكون «الضرب» أمراً لم يفعله رسول الله ﷺ، كان البيان أمراً واجباً، ولذا رأيت تخصيص هذا الفصل لذلك.

* * *

قالت عائشة رضي الله عنها: «ما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قط بيده، ولا امرأة، ولا خادماً، إلا أن يجاهد في سبيل الله»[1].

وهذا الحديث وحده كافٍ لإزالة اللبس، وبيان السنّة النبوية في هذا الشأن..

ولكن للأسباب المذكورة في مقدمة الفصل، كان التفصيل ضرورة.

جاء الإسلام والناس يضربون نساءهم وعبيدهم، فعالج الموضوعين، وحتىٰ نفهم كيف فعل ذلك بالنسبة للنساء، لا بد لنا من معرفة كيفية معالجة أمر الأرقاء.

لقد كان السيد يقتل عبده فلا يسأل عما فعل، وعندما جاء الإسلام حدث التغيير الجذري الذي نقرؤه في الأحاديث التالية التي سجلت هذه العملية.

---

(١) رواه مسلم (٢٣٢٨).

١ ـ قال أبو مسعود الأنصاري ﷺ: كنت أضرب غلاماً لي، فسمعت من خلفي صوتاً: (إعلم أبا مسعود، لَلَّهُ أقدر عليك منك عليه) فالتفت فإذا هو رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، هو حرٌّ لوجه الله، فقال: (أما لو لم تفعل للفحتك النار)[١].

٢ ـ وقال معاوية بن الحكم السلمي ﷺ: كانت لي جارية ترعىٰ لي غنماً لي قِبَل جبل أُحد، فاطلعت ذات يوم، فإذا الذئب قد ذهب بشاة من غنمها، وأنا رجل من بني آدم، آسف كما يأسفون، فصككتها صكة[٢]، فأتيت رسول الله ﷺ.. فعظَّمَ ذلك عليَّ.

قلت: يا رسول الله، أفلا أعتقها؟ قال: (أعتقها) فأعتقتها[٣].

٣ ـ وقال معاوية بن سويد: لطمت مولىً لنا، فهربتُ ثم جئت قبيل الظهر فصليت خلف أبي، فدعاني ودعاه، ثم قال: اقتصَّ.. فعفا[٤].

٤ ـ وقال سويد بن مقرن ﷺ: لقد رأيتني سابع سبعة من بني مقرن، ما لنا خادم إلا واحدة، فلطمها أصغرنا، فأمرنا رسول الله ﷺ أن نعتقها..[٥].

٥ ـ وهذا عبدالله بن عمر ﷺ، يضرب غلاماً له.. ثم قال له: أوجعتك؟ قال: لا، قال: فأنت عتيق.

ثم أخذ عبدالله شيئاً من الأرض، فقال: ما لي فيه من الأجر ما يزن هذا، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (مَن ضرب غلاماً له، أو لطمه، فإن كفارته أن يعتقه)[٦].

وبهذه المعالجة أنهىٰ الإسلام هذه المظلمة..

---

(١) رواه مسلم (١٦٥٩).
(٢) أي: ضربها بيده مبسوطة.
(٣) رواه مسلم (٥٣٧).
(٤) رواه مسلم (١٦٥٨).
(٥) رواه مسلم (١٦٥٨).
(٦) رواه مسلم (١٦٥٧).

فإن كان الضارب هو مالك العبد فعليه أن يعتقه، مقابل ذلك كفارة لهذا الذنب، كما في الأحاديث السابقة.

وإن كان الضارب لا يملك العبد المضروب، فعليه القصاص، كما في حديث معاوية بن سويد.

وبهذا أعاد الإسلام للإنسان الرقيق كرامته، وفقاً لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠] والأرقاء من بني آدم.

والضرب يتنافىٰ مع الكرامة، ولذا منعه الإسلام، وجعله ـ عند وقوعه ـ وسيلة للتحرر والتخلص من إسار العبودية.

هذا هو الإسلام.

فهل مثل هذا الدين يسمح للزوج أن يضرب زوجته؟

وهل الزوجة أقلّ شأناً وأقلّ كرامة من الأمة؟

ونترك الإجابة عن ذلك إلىٰ ما بعد الفقرة التالية.

***

ونسأل: هل ضرب رسول الله ﷺ زوجة من زوجاته في يوم من الأيام؟

وتجيب علىٰ ذلك أم المؤمنين عائشة إذ قالت: «ما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قط بيده، لا امرأة، ولا خادماً»[1].

وقد يقول قائل: إن نساءه كنّ علىٰ درجة من التقوىٰ والطاعة بحيث لا يحتاج معهن إلىٰ استعمال الضرب.

وجواباً علىٰ ذلك نذكُر بواحد من المواقف التي سيأتي ذكرها في «فصل

---

(١) رواه مسلم (٢٣٢٨).

الغيرة». يوم ضربت عائشة صحفة الطعام التي بعثت بها أم سلمة إلىٰ النبي ﷺ وعنده أصحابه، فكسرتها.. فقال ﷺ: (غارت أمكم).

وحتىٰ نعرف فداحة الفعل ينبغي أن نتخيله ونصوّره في أفكارنا، ونقدّر أنه لو حصل مع واحد منا.

إنسان عنده أصحابه، يريد أن يقدم لهم طعام، ثم تأتي زوجته فتكسر الصحفة علىٰ مرأىٰ ومسمع منهم.

إنه ـ ولا شك ـ سيرىٰ في ذلك استهانة به، واستخفافاً بحقه، واستصغاراً لأصحابه.. وسيذهب يميناً وشمالاً في تضخيم الموضوع.. مما يدفعه إلىٰ ضربها إن لم يكن إلىٰ طلاقها..

ولكنه ﷺ لم يفعل أكثر من قوله: (غارت أمكم..).

إن قضية الضرب غير متصورة من قبله ﷺ، ولذلك فهو يستغرب فعل من يضرب زوجته، فيقول: (يعمد أحدكم بجلد امرأته جلد العبد[1] فلعله يضاجعها من آخر يومه)[2]! أي: كيف يجتمع الضرب والمضاجعة، وكيف سيكون حال هذه المضاجعة؟!

وفي حديث آخر يقول ﷺ: (بمَ يضرب أحدكم امرأته ضرب الفحل، ثم لعله يعانقها)[3] فيسأل عن السبب الداعي إلىٰ الضرب؟؟

وخطب ﷺ يوماً فقال: (لقد طاف بآل محمد نساء كثير يشكون أزواجهن ليس أولئك بخياركم)[4].

أي: إن الذي يفعل ذلك ليس من خيار الناس.

وإنه ﷺ لم يفعل ذلك.

* * *

---

(١) هذا بحسب ما كان قبل الإسلام.

(٢) رواه البخاري (٤٩٤٢)، ومسلم (٢٨٥٥).

(٣) رواه البخاري (٦٠٤٢).

(٤) رواه أبو داود (٢١٤٦)، وابن ماجه (١٩٨٥).

ونعود إلىٰ السؤال الذي طرحه الرسول ﷺ (بمَ يضرب أحدكم امرأته ضرب الفحل؟).

ألأنها قصرت في الطبخ وإعداد الطعام؟

أم لأنها قصرت في كنس البيت وتنظيفه؟

أم لأنها قصرت في غسل ثياب زوجها؟

أم لأنها...؟

ونتساءل ـ وبناء علىٰ معاملة الرقيق التي سبق ذكرها ـ لو أن أمة الرجل الرقيقة المملوكة، قصرت في إعداد ما سبق ذكره، فهل كان يجرؤ علىٰ ضربها؟

إنه لن يفعل ذلك.. لأنه يعلم أن كفارة ضربها هو عتقها.

وإذن فهل مكانة المرأة ـ التي هي الزوجة ـ أقل شأناً من مكانة الرقيقة المملوكة؟

إنه سؤال يطرح للتفكير.. للإجابة عليه.

* * *

ونعود إلىٰ أصل المسألة.

فقد أذن القرآن الكريم بضرب المرأة في حال نشوزها.

قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا﴾ [النساء: ٣٤].

والذين يوردون هذه الآية الكريمة دليلاً علىٰ مشروعية الضرب يغفلون عن السُنّة التي جاءت بياناً للقرآن وتفسيراً له.

ومن المستحسن أن نضع بين الأيدي بعض النصوص من السنة الشريفة

والتي تبين المقصود بالضرب الوارد في الآية الكريمة، ومتىٰ يكون ذلك، والأسباب المبيحة له. ومن هذه الأحاديث:

١ ـ عن عمرو بن الأحوص: أنه شهد حجة الوداع مع رسول الله ﷺ، فحمد الله وأثنىٰ عليه، وذكَّر ووعظ، فذكر في الحديث قصة فقال: (ألا واستوصوا بالنساء خيراً، فإنما هنَّ عوان[1] عندكم، ليس تملكون منهن شيئاً غير ذلك، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع واضربوهنَّ ضرباً غير مبرح[2]، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً، ألا إن لكم علىٰ نسائكم حقاً، ولنسائكم عليكم حقاً، فأما حقكم علىٰ نسائكم، فلا يوطئن فرشكم من تكرهون، ولا يأذنَّ في بيوتكم لمن تكرهون. ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهنَّ وطعامهن)[3].

٢ ـ ومما جاء في خطبة حجة الوداع قوله ﷺ: (فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهنَّ ضرباً غير مبرح..)[4].

* * *

ويتبين من الحديثين السابقين أنهما يحددان متىٰ يباح للرجل ضرب امرأته، وأن ذلك لا يكون إلا في حالة واحدة، وهي شعور الزوج بوجود الانحراف الخلقي لدىٰ زوجته، أو وجود مؤشرات عليه.

وهذا ما يسجله الحديث الأول بقوله:

(إلا أن يأتين بفاحشة مبينة) ثم بيَّنَ المقصود بهذه الفاحشة حينما بيَّن حقوق الرجل علىٰ زوجته بقوله: (فلا يوطئن فرشكم من تكرهون، ولا يأذنَّ

---

(١) عوان: قال الترمذي: يعني أسرىٰ في أيديكم.
(٢) غير مبرح: المبرح: الشديد الشاق.
(٣) رواه الترمذي (١١٦٣)، وابن ماجه (١٨٥١).
(٤) رواه مسلم (١٢١٨).

في بيوتكم لمن تكرهون) فإن فعلن ذلك فقد أذن بضربهن كما ورد في الآية الكريمة.

وهذا أيضاً ما سجله الحديث الثاني بقوله:

(ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح).

وبهذا يتبين أن الضرب الوارد ذكره في الآية الكريمة إنما يكون عند إدخال المرأة عليها من لا يريد الزوج دخوله، والذي يكون في دخوله محل ريبة، ومظنة حصول الفاحشة عادة..

بل إن الآية الكريمة تؤكد بسياقها هذا المعنى، فقد قال تعالى:

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ ...﴾ [النساء: ٣٤].

فقد ذكرت الآية الكريمة أن النساء قسمان:

قسم: صالحات مطيعات.

وقسم: عاصيات متمردات.

فالصالحات حافظات لأوامر الله تعالى.. قائمات بحفظ أنفسهن عن الفاحشة، وبحفظ أموال أزواجهن عن الضياع، فهن عفيفات أمينات فاضلات.

وأما القسم الثاني: فهن الناشزات المترفعات على أزواجهن. وبعض هؤلاء ذهبن في سلوكهن في الطرف الآخر من سلوك الفريق الأول في شأن حفظ أنفسهن.. وهؤلاء هن اللواتي أذن القرآن الكريم بضربهن.

وهكذا فالآية الكريمة ترتب معالجة نشوز المرأة بشكل عام بالخطوات التالية:

الأولىٰ: الموعظة الحسنة.

الثانية: الهجر في المضاجع.

وهاتان الخطوتان لمعالجة أنواع النشوز بشكل عام.

وعندما يكون النشوز باتجاه الانحراف الخلقي بحيث تُدخل المرأة عليها من لا يرغب الرجل بدخوله، ففي هذه الحالة فقط يكون اللجوء إلىٰ الخطوة الثالثة وهي الضرب.

وتحديد الضرب بهذه الحالة هو من بيان الرسول ﷺ في خطبة حجة الوداع والذي سبق إيراده في الحديثين السابقين.

وكون ذلك في حجة الوداع يعني أن هذا البيان جاء في آخر حياته ﷺ، فلم يأتِ بعده ما ينسخه أو يغيره.

ويذهب الإمام الشوكاني إلىٰ أبعد من ذلك فيجعل الهجر كالضرب لا يكونان إلا في حال الإتيان بفاحشة مبينة.

قال الشوكاني: وظاهر حديث الباب ـ أي حديث عمرو بن الأحوص، وقد سبق ذكره ـ أنه لا يجوز الهجر في المضجع والضرب إلا إذا أتين بفاحشة مبينة لا بسببٍ غير ذلك[1].

* * *

علىٰ أن الضرب الوارد الأمر به في الآية الكريمة ليس علىٰ سبيل الوجوب، وإنما هو علىٰ سبيل الإباحة، أي ليس واجباً علىٰ الزوج عندما يجد من زوجته ذلك أن يضربها، بل مباح له أن يفعل ذلك أو أن يتركه.

وإذن فللزوج أن لا يلجأ إلىٰ الضرب، وأن يجد لنفسه من الوسائل ما يوصله إلىٰ غايته، كأن يلجأ إلىٰ تحذيرها عن طريق أهلها، أو غير ذلك.

وإذا ما غلب علىٰ ظنه أن الضرب هو الوسيلة المجدية، فعليه أن يتقيد ويراعي الضوابط التي وضعها الإسلام لذلك.

---

(١) «نيل الأوطار» (٤١٢/٧).

١ ـ ومنها: أن لا يكون الضرب علىٰ الوجه. جاء هذا في حديث معاوية القشيري ﷺ، حيث سأل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ما حق زوجة أحدنا عليه؟ قال: (أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تقبح، ولا تهجر إلا في البيت)[(١)].

٢ ـ ومنها: أن يكون الضرب غير مبرح، أي غير شديد وشاق. وقد ورد ذلك في حديث عمرو بن الأحوص السابق ذكره وغيره من الأحاديث.

قال ابن عباس وعطاء: الضرب غير المبرح بالسواك ونحوه[(٢)].

وقال ابن حزم: «ضربها بما لا يؤلم، ولا يجرح، ولا يكسر، ولا يعفن، فإن ضربها بغير ذلك أقيدت منه»[(٣)].

٣ ـ ومنها: أن يكون فعل الضرب فيما بينها وبينه، بعيداً عن أعين الناس، وعن أعين الأبناء والأهل.

وإذا كان حديث معاوية القشيري ﷺ يمنع الهجر في غير البيت حيث يخلو الرجل بزوجته، فإن الضرب من باب أولىٰ أن يكون بينه وبينها، إذ المقصود التأديب لا إذلال الزوجة.

وعندما يُنفَّذ الضرب وفقاً لهذه القيود فلن يكون فيه أي محذور، ولن تجد فيه المرأة أي غضاضة، لأنه سيكون في إطار غيرة الرجل علىٰ زوجته، ولا شك بأن كل امرأة تحمد للرجل غيرته عليها.

❋ ❋ ❋

وعندما يخرج الضرب عن هذه الحدود التي وضعها الشرع، فمن حق المرأة أن تطالب بالقصاص.

---

(١) رواه أبو داود (٢١٤٢ ـ ٢١٤٤)، وابن ماجه (١٨٥٠).
(٢) «تفسير آيات الأحكام» للصابوني (٤٦٩/١).
(٣) «تحرير المرأة في عصر الرسالة» لعبدالحليم أبو مشقة (٢٤٧/٥) نقلاً عن «المحلىٰ» (٤١/١٠).

يقول الإمام ابن حزم - في تتمة كلامه السابق -: «وإنما أباح الشارع الضرب ولم يبح الجراح، ولا كسر العظام، ولا تعفين اللحم، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ فصحّ أنه إن اعتدىٰ عليها بغير حق، فالقصاص عليه».

وقال الشيخ الدردير: «ولا يجوز الضرب المبرح، ولو علم أنها لا تترك النشوز إلا به، فإن وقع فلها التطليق عليه والقصاص، وهو الوارد في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ﴾» [المائدة: ٤٥][(١)].

فلو أن رجلاً ضرب امرأته فكسر يدها، فهل يترك وشأنه بحجة أنه استعمل حقه الوارد في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾؟

لا شك بأن القاضي المسلم سيحكم بالقصاص في هذه الحادثة وأمثالها، إذا طالب صاحب الحق بحقه، أو طالب ورثته بذلك إذا أدىٰ الضرب إلىٰ الموت.

* * *

هذا ويمكن **تلخيص** ما سبق بالنقاط التالية:

١ ـ كرَّم الإسلام كل بني آدم، الرجال والنساء علىٰ حد سواء.

٢ ـ عند نشوز المرأة، يعظها الزوج أولاً، فإن لم يُجْدِ الوعظ لجأ إلىٰ الهجر في الفراش.

٣ ـ إذا كان النشوز يمثل انحرافاً خلقياً، فللزوج اللجوء إلىٰ الضرب بعد الوعظ والهجر، إن غلب علىٰ ظنه فائدة الضرب.

٤ ـ في حال اختيار الزوج طريقة الضرب فعليه الالتزام بالقيود التي وضعها الشرع لذلك.

٥ ـ يمكن للزوج بعد الهجر أن يلجأ إلىٰ التحكيم دون العمل بطريقة الضرب.

---

(١) المرجع السابق نقلاً عن «شرح الدردير» (٢/٤٠١)، و«مواهب الجليل» (٤/١٩٥).

٦ ـ وفي كل الحالات ـ وحتى في حال وجود دواعي الضرب ـ فترك الضرب أولى اقتداء وتأسياً به ﷺ حيث لم يضرب أحداً، وتطبيقاً لقوله ﷺ: (وليس خيركم من يفعله) فضمان الخيرية بعدم الضرب.

٧ ـ في حال تجاوز الزوج الحدود التي قررها الشرع للضرب، وحصول جرح أو كسر، فللمرأة المطالبة بالقصاص[1].

(١) وانظر البحث كاملاً في كتاب «نظرات في هموم المرأة المسلمة» للمؤلف.

الفصل التاسع
حبّه ﷺ لزوجاته

تزوج النبي ﷺ السيدة خديجة وأحبّها، ولم يتزوج عليها. فانفردت طيلة حياتها بهذا الحب حتىٰ توفاها الله تعالىٰ.. ثم استمر هذا الحب اهتماماً بكل من يلوذ بها.. حتىٰ غارت منها السيدة عائشة رضي الله عنها.

ثم جاءت السيدة عائشة فكان لها مثل هذا الحب أو قريباً منه، وقد اشتهر أمر ذلك بين المسلمين ولم يكن سراً، حتىٰ رأينا الصحابة الذين يريدون تقديم الهدايا له يتحينون يومها الذي يكون عندها فيه.. كما رأينا.

وتُعد السيدة عائشة أقدم زوجاته ـ علىٰ صغر سنها ـ باستثناء السيدة سودة، ولقد كان فيها من الخصال.. ما لم يتوفر مثله فيمن جاء بعدها، ولذلك ظلت مكانة هذا الحب علىٰ حالها لم تتغير..

وإذا كان الحب يبدأ وينمو بـ«الإعجاب» فقد كان في عائشة مع مضي كل يوم جديد ظهور ما يعجب به النبي ﷺ ويحبه.

قال ابن القيم: وكان ﷺ إذا هَوِيَتْ شيئاً لا محذور فيه تابعها عليه، وكانت إذا شربت من الإناء أخذه فوضع فمه في موضع فمها وشرب، وكان إذا تعرقت عَرْقاً ـ وهو العظم الذي عليه لحم ـ أخذه فوضع فمه موضع فمها، وكان يتكئ في حجرها..[1].

ويحسن أن نسجل بعض ما امتازت به السيدة عائشة رضي الله عنها:

● فقد كانت وحدها الفتاة البكر التي تزوجها رسول الله ﷺ. أما بقية زوجاته جميعاً فكل منهن كانت متزوجة من رجل قبله أو أكثر..

---

(١) «زاد المعاد» (١/١٥٢)، وعند مسلم في الحديثين (٣٠٠، ٣٠١).

وفي هذا قالت السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: قلت: يا رسول الله، أرأيت لو نزلت وادياً وفيه شجرة قد أُكل منها، ووجدت شجراً لم يؤكل منها، في أيها كنت تُرْتِعُ بعيرك؟ قال: (في التي لم يُرْتَعْ منها) تعني أن رسول الله ﷺ لم يتزوج بكراً غيرها[1].

- وهي بنت أحب الناس إلىٰ النبي ﷺ وهو أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أتيت النبي ﷺ فقلت له: أي الناس أحب إليك؟ قال: (عائشة) فقلت: من الرجال؟ قال: (أبوها)[2].

- وهي أصغر نسائه ﷺ سناً.

- وهي من أجملهن إن لم تكن أجملهن.

- وكانت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عاقلة متكلمة ذات منطق وحجة، وهذا ـ والله أعلم ـ هو الذي عناه ﷺ بقوله: (إنها بنت أبي بكر) عندما ردّت علىٰ زينب كما مرّ في الفصل السابق..

ومعروف عن أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سرعة بديهته وقوة حجته، وقد شهد له بذلك عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو يصف ما حدث يوم السقيفة:

قال عمر: أردت أن أتكلم يومئذ، وقد زوَّرت[3] في نفسي مقالة قد أعجبتني، أريد أن أقدمها بين يدَي أبي بكر.. فقال أبو بكر: علىٰ رسلك يا عمر، فكرهت أن أغضبه، فتكلم، وهو كان أعلم مني وأوقر، فوالله ما ترك من كلمة أعجبتني من تزويري إلا قالها في بديهته، أو مثلها أو أفضل[4].

---

(١) رواه البخاري (٥٠٧٧).

(٢) رواه البخاري (٣٦٦٢)، ومسلم (٢٣٨٤).

(٣) أي: هيأتها وأصلحتها.

(٤) «سيرة ابن هشام» (٢/٦٥٩)، وأصله في «البخاري» (٣٦٦٧، ٣٦٦٨).

لقد كانت مثل أبيها منطقاً وحجةً وعقلاً..

قال معاوية ﷺ: والله ما رأيت خطيباً قط أبلغ ولا أفصح ولا أفطن من عائشة[1].

يضاف إلىٰ ذلك أدبها الجم الذي بدا في موقفها مع زينب، حيث احتملت قولها حتىٰ اطمأنت إلىٰ أن الرسول ﷺ لا يكره أن تنتصر لنفسها.

● وكانت توصف بالرزانة والحكمة. ومن مواقفها التي تُظهر ذلك، موقفها يوم حادثة الإفك، حيث مضىٰ شهر علىٰ الحادث، والرسول ﷺ لا يكلمها، ثم كان المشهد الأخير يوم نزل عليه الوحي ببراءتها، وفي المجلس والداها..

فقالت لها أمها: قومي إلىٰ رسول الله ﷺ فاشكريه.

فقالت عائشة: والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله تعالىٰ.

وقد علّق ابن القيم علىٰ هذا الموقف بقوله:

«ومن تأمل قول الصدِّيقة، علم معرفتها، وقوة إيمانها، وتوليها النعمة لربها، وإفراده بالحمد في ذلك المقام، وتجريدها التوحيد، وإدلالها ببراءة ساحتها، وأنها لم تفعل ما يوجب قيامها في مقام الراغب في الصلح الطالب له..

ولله ما كان أحبها إليه حين قالت: لا أحمد إلا الله، فإنه هو الذي أنزل براءتي، ولله ذلك الثبات والرزانة منها.. فلم تبادر إلىٰ القيام إليه ﷺ والسرور برضاه وقربه، مع شدة محبتها له، وهذا غاية الثبات والقوة»[2].

وما من شك بأن سروره ﷺ بهذا الموقف منها أكبر من سروره لو

(١) «الفتح الرباني» للبنا (١٢٨/٢٢).

(٢) «سيرة خير العباد» للإمام ابن القيم، نشره المكتب الإسلامي (ص١٨٦ ـ ١٨٧).

قامت إليه، لأنها اتجهت بالشكر لمن يستحق الشكر وهو الله تعالىٰ الذي أنزل براءتها..

وكيف لا يزيد مثل هذا الموقف الحكيم محبتها في نفس رسول الله ﷺ؟!

● ومما امتازت به رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ما أفصح عنه النبي ﷺ بقوله لأم سلمة، حينما جاءت نائبة عن بقية أزواجه:

(يا أم سلمة، لا تؤذيني في عائشة، فإن الوحي لم يأتني وأنا في ثوب امرأة إلا عائشة)[1].

وهذه خصوصية لها من قبل الله تعالىٰ تدل علىٰ مكانتها.

وهو تعليل منه ﷺ لسلوكه تجاهها بسبب هذه الخصوصية.

● وخصوصية أخرىٰ لا تقل عن هذه، وهي: أن زواجه منها إنما كان بتوجيه من الله تعالىٰ، وقد سبق الحديث عن ذلك.

● ومن خصائصها: أنها كانت لها القدرة علىٰ توجيه غيرها.. نلمح ذلك في قصة عسل زينب: حيث كلفت سودة أن تقول للرسول قولاً عند دخوله عليها.. تقول سودة: والذي لا إله إلا هو، لقد كدت أن أباديه بالذي قلت لي، وإنه لعلىٰ الباب، فَرَقاً منك.. والخطاب لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

● ولمكانتها عند رسول الله ﷺ لجأت إليها صفية لاسترضائه ﷺ عليها، كما سبق ذكر ذلك، كما لجأت إليها حفصة لتستأذنه في أمر اعتكافها، كما سيأتي.

● وكما حمل النبي ﷺ السلام للسيدة خديجة من جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، كذلك كان الشأن مع عائشة أيضاً، فقد قال لها ﷺ يوماً: (يا عائشة هذا جبريل يقرأ عليك السلام) فقالت: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته[2].

---

(١) رواه البخاري (٣٢١٧)، ومسلم (٢٤٤٧).

(٢) رواه البخاري (٣٢١٧)، ومسلم (٢٤٤٧).

ولم يحصل هذا لغيرهما من زوجاته ﷺ.

ولعل هذه الأمور وغيرها، هي التي كانت ترفع مكانتها في نفسه ﷺ فكان لها هذا الحب الذي تميزت به.

وكانت عائشة رضي الله عنها تعرف هذه المكانة وهذا الحب، ولذلك كانت تحب أن تدلَّ به علىٰ ضرائرها..

فقد جاء في حديث الترمذي، عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ جالساً، فسمعنا لغطاً وصوت صبيان، فقام رسول الله ﷺ فإذا حبشية تزفن والصبيان حولها، فقال: (يا عائشة، تعالي فانظري) فجئت فوضعت لحييَّ علىٰ منكب رسول الله ﷺ، فجعلت أنظر إليها ما بين المنكب إلىٰ رأسه، فقال لي: (أما شبعتِ؟ أما شبعتِ؟) قالت: فجعلت أقول: لا، لأنظر منزلتي عنده[1].

وكأنها تقول: قد بلغت ما أردت من النظر إليهم، ولكني أحببت أن يبلغ النساء مقامه لي، ومكاني منه.

ولكن ذلك ـ وكما سبق القول ـ لم يكن بشكل من الأشكال علىٰ حساب عدله ﷺ بينهن، الذي سبق الحديث عنه.

ومما جاء في هذا الموضوع: أن عروة بن الزبير سأل خالته عائشة رضي الله عنها فقال: يا خالة، أي نساء رسول الله ﷺ كانت آثر عنده؟

فقالت: لقد كانت زينب بنت جحش وأم سلمة لهما مكانة عنده، وكانتا أحب نسائه إليه ـ فيما أحسب ـ بعدي[2].

(١) رواه الترمذي (٣٦٩١).

(٢) «طبقات ابن سعد» (١/١١٤).

الفصل العاشر
الغيرة بين أمهات المؤمنين

الغيرة: مشتقة من تغير القلب، وهيجان الغضب، بسبب المشاركة فيما به الاختصاص. وأشد ما تكون بين الزوجين(١).

وأصل الغيرة غير مكتسب للنساء(٢).

والغيرة لا بد أن تظهر عند تعدد النساء عند الرجل الواحد، فهي نتيجة لازمة لذلك.

ولم يخرج نساء الرسول ﷺ عن هذه القاعدة، وهو أمر طبيعي، غير مستغرب، لأن أصله قائم في جبلة المرأة.

والمقصود من الحديث عن هذا الموضوع: التعرف على موقف الرسول ﷺ من ذلك وكيف كان تصرفه تجاهه. وقد سبق ذكر بعضٍ من ذلك.

* * *

كان الرسول ﷺ مع بعض أصحابه في بيت عائشة رضي الله عنها، فأرسلت أم سلمة إليه بطعام في صحفة، فضربت عائشة يد الخادم، فسقطت الصحفة فانفلقت. فجمع النبي ﷺ فلق الصحفة، ثم جعل يجمع الطعام الذي كان فيها، ويقول: (كلوا، غارت أمكم) مرتين.

ثم حبس ﷺ الخادم حتى أُتي بصحفة من عند عائشة، فدفعها إلى الخادم بدلاً عن المكسورة(٣).

* * *

---

(١) «فتح الباري» (٣٢٠/٩).

(٢) «فتح الباري» (٣٢٦/٩).

(٣) رواه النسائي (٣٩٦٦)، وأصله عند البخاري (٥٢٢٥).

وفي قصة أخرىٰ: قالت عائشة: ما رأيت صانعاً طعاماً مثل صفية، صنعت لرسول الله ﷺ طعاماً، فبعث به، فأخذني أفكَلٌ[1]، فكسرتُ الإناء.

فقلت: يا رسول الله، ما كفارة ما صنعت؟ قال: (إناء مثل إناء، وطعام مثل طعام)[2].

* * *

وفي قصة عند ابن ماجه: عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ مع أصحابه، فصنعت له طعاماً، وصنعت له حفصة طعاماً. قالت: فسبقتني حفصة، فقلت للجارية: انطلقي فاكفئي قصعتها، فلحقتها وقد همّت أن تضع بين يدَي رسول الله ﷺ، فأكفأتها فانكسرت القصعة، وانتشر الطعام.

قالت: فجمعها رسول الله ﷺ وما فيها من الطعام علىٰ النطع، فأكلوا، ثم بعث بقصعتي، فدفعها إلىٰ حفصة فقال: (خذوا ظرفاً مكان ظرفكم، وكلوا ما فيها).

قالت: فما رأيت ذلك في وجه رسول الله ﷺ[3].

* * *

وعن عائشة: أن رسول الله ﷺ خرج من عندها ليلاً، قالت: فغرت عليه، فجاء فرأىٰ ما أصنع، فقال: (ما لكِ يا عائشة، أغرتِ؟) فقلت: وما لي لا يغار مثلي علىٰ مثلك؟! فقال: (أقد جاءك شيطانك؟) قالت: يا رسول الله، أوَمعي شيطان؟ قال: (نعم) قلت: ومع كل إنسان؟ قال: (نعم) قلت: ومعك يا رسول الله؟! قال: (نعم، ولكن ربي أعانني عليه حتىٰ أسلم)[4].

* * *

---

(١) أفكل: رعدة تصيب الإنسان من برد أو خوف.
(٢) رواه أبو داود (٣٥٦٨)، والنسائي (٣٩٦٧).
(٣) رواه ابن ماجه (٢٣٣٣).
(٤) رواه مسلم (٢٨١٥).

تلك نماذج من قصص الغيرة التي كانت تحدث بين أمهات المؤمنين، والقصص الأولىٰ متشابهة، ولولا تسمية الأطراف في كل قصة لأمكن القول بأنها قصة واحدة. ولكنه لما كانت صاحبة الطعام في الأولىٰ أم سلمة، وفي الثانية صفية، وفي الثالثة حفصة.. فهي قصص متكررة.

والذي ينبغي أن يسجل:

ـ أنه في قصتين منها كان عند الرسول ﷺ أصحابه، فلم ينفعل، ولم يعتبر أن ما حدث أمر كبير، وإنما وبكل البساطة أرجع الأمر إلىٰ سببه المباشر فقال: (غارت أمكم).

وليتخيل أي قارئ لو حصل هذا الأمر عنده، ماذا سيكون تصرفه.

إنه درس في الحلم وفي حسن المعاملة وصدق ﷺ بقوله: (وأنا خيركم لأهلي).

وهكذا مرت الحادثة بدون لوم أو عتاب، حتىٰ بعد انصراف الصحابة، ولم يكن لذلك أي أثر بعد ذلك في تعامله ﷺ معهن. كما قالت: فما رأيت ذلك في وجه رسول الله ﷺ.

ـ إن الغيرة بعض الأحيان قد تكون شديدة، كما حدث لعائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، الأمر الذي يتحول فيه العامل النفسي إلىٰ عامل جسدي. فقد تملكتها رعدة هزّت جسمها كرعدة من أصابه البرد الشديد، أو الخائف..

وفي مثل هذه الحالة ينبغي أن يعذر صاحبها.

ـ ويفهم من القصة الأخيرة أن الشيطان يكون وراء هذه الغيرة. فإذا انتبهت المرأة إلىٰ هذا الأمر استطاعت أن تفوّت علىٰ الشيطان غرضه، وتظل غيرتها في إطار العامل النفسي الذي لا يتجسد في فعل قد يكون غير محمود العواقب.

ـ والغيرة لا تعفي صاحبتها من المسؤولية المادية، ولذلك قال ﷺ: (إناء مثل إناء) و(خذوا ظرفاً مكان ظرفكم..).

* * *

إنه درس عظيم لمن عنده أكثر من زوجة، يتعلم منه كيف يتعامل مع الغيرة التي تصدر عن نسائه: سعة الصدر، والحلم، وكظم الغيظ..

* * *

وقبل ختم هذا الفصل، لا بد لنا من الوقوف أمام مشهد آخر من مشاهد الغيرة قد لا يخطر بالبال.

قالت عائشة رضي الله عنها: كان النبي ﷺ يعتكف في العشر الأواخر من رمضان، فكنت أضرب له خباء، فيصلي الصبح ثم يدخله. فاستأذنت حفصة عائشة أن تضرب خباء فأذنت لها، فضربت خباء، فلما رأته زينب بنت جحش ضربت خباء آخر. فلما أصبح النبي ﷺ رأى الأخبية، فقال: (ما هذا؟) فأخبر فقال: (آلبر ترون بهن؟) فترك الاعتكاف ذلك الشهر وأمر بتقويض الأخبية، ثم اعتكف عشراً من شوال[1].

وتفصيل ما حدث أن عائشة ضربت الخباء للنبي ﷺ واستأذنته بضرب خباء لنفسها فأذن لها، ثم استأذنت حفصة النبي ﷺ بضرب خباء لها عن طريق عائشة فأذن لها..

فجاءت زينب فأقامت خباء بغير استئذان.. وربما فعل غيرها ذلك.

فلما رأى النبي ﷺ ذلك أمر بتقويض الأخبية..

وتساءل ﷺ: (آلبر ترون بهن؟) وفي رواية أبي داود: (آلبر تردن؟)

لقد رأى أن الباعث عند بعض أزواجه لم يكن هو الطاعة والعبادة والتقرب إلى الله تعالى، وإن كان الأمر في ظاهره يوحي بذلك.

لقد كان وراء بعض ذلك باعث الغيرة.. وإذا كانت الغيرة هي الباعث على العبادة، فهذه العبادة لا فائدة فيها، بل ربما كان وزرها أكبر، لأن الرياء سيكون من بعض مقوماتها.

---

(١) رواه البخاري (٢٠٣٣)، ومسلم (١١٧٣).

إن العبادة ينبغي أن تكون خالصة لله تعالىٰ.

ولذلك لم يسكت هنا ﷺ كما سكت في المسائل الأخرىٰ.

* * *

وقد تجر الغيرة إلىٰ الإثم..

قالت عائشة رضي الله عنها - في حديث لها مع النبي ﷺ -: حسبك من صفية كذا وكذا، تعني أنها قصيرة.

فقال النبي ﷺ: (لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته)[1].

فهذا مما يحرم لأنه انتقاص لها مما لا كسب لها فيه، وهو من خلق الله ﷻ.

وهذا ميدان آخر لا ينبغي أن يكون مسرحاً للغيرة.

(١) رواه أبو داود (٤٨٧٥).

الفصل الحادي عشر
مشاركة أمهات المؤمنين في الأمور العامة

كان رسول الله ﷺ أعظم رجل فاعل في التاريخ، وكانت الأحداث عظيمها وصغيرها ترجع إليه ليعطي رأيه فيها، وكانت بيوت أزواجه قريباً من المسجد، مما جعلهن قريباً من مسرح العمليات ـ إن صحّ التعبير ـ فكنَّ علىٰ علم بالأمور أول فأول.

وينقل لنا الإمام مسلم صورة من اهتمامهن ومشاركتهن، فها هي أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في بيتها، تقول: «بينما الجارية تمشطني، فسمعت رسول الله ﷺ يقول: (أيها الناس) فقلت للجارية: استأخري عني، قالت: إنما دعا الرجال ولم يدْعُ النساء. فقلت: إني من الناس..»[1].

وهكذا تسرع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لتشارك، وهي لا تعلم ما الذي سوف تسمعه، ولكنها سمعته ﷺ يقول: (أيها الناس) وهي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا من الناس. وهذا هو الفقه.

وكان ﷺ إذا سافر أقرع بين نسائه، فمن خرج سهمها انطلقت معه في سفره، وربما أخرج معه أكثر من واحدة بعض الأحيان، الأمر الذي جعلهن علىٰ صلة مستمرة بالواقع العام، في حال المقام وفي السفر، في السلم وفي الحرب.

وقد كانت هذه المشاركات فاعلة في كثير من الأحيان، ولنذكر بعض الأمثلة علىٰ ذلك:

● كانت خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا سنداً للرسول ﷺ منذ اليوم الأول الذي نزل عليه الوحي فيه، فكانت تقف إلىٰ جانبه وتؤيده، وكان مركزها الاجتماعي في مكة يساعدها علىٰ ذلك، فكانت في هذا الجانب لا تقل عن عمه أبي طالب، وقد شاركته دخول الشعب وبذلت من أموالها الكثير في سبيل التخفيف عن المسلمين في ذلك الحصار الاقتصادي.

وقد شعر ﷺ بذلك الفراغ الذي تركته بعد موتها ـ هي وعمه أبو طالب ـ حتىٰ سمي ذلك العام عام الحزن.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٩٥).

● وينقل لنا أنس ﷺ مشاهد مما حدث يوم أُحد ومن ذلك.. «ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم، وإنهما لمشمرتان، أرىٰ خدم[1] سوقهما، تنقزان[2] القرب علىٰ متونهما، تفرغانه في أفواه القوم، ثم ترجعان، فتملآنها، ثم تجيئان فتفرغانه في أفواه القوم..»[3].

● وقد سبق في ترجمة أم سلمة ﵂، ذكر مشورتها علىٰ النبي ﷺ حينما أمر أصحابه بالحلق والتحلل، فلم يفعلوا، وكان ما أشارت به فيه الخير، الذي ردّ الصحابة إلىٰ صوابهم فسارعوا إلىٰ تنفيذ الأمر.

● وفي حجة الوداع يدخل ﷺ علىٰ عائشة ﵂ وهو غضبان ليذكر لها تردد الناس فيما أمرهم به.

قالت عائشة ﵂: قدم رسول الله ﷺ لأربع مضين من ذي الحجة أو خمس، فدخل عليَّ وهو غضبان، فقلت: مَن أغضبك يا رسول الله!؟ أدخله الله النار، قال: (أوَما شعرتِ أني أمرتُ الناس بأمر فإذا هم يترددون[4]؟ ولو أني استقبلت من أمري ما استدبرت، ما سقت الهدي معي حتىٰ أشتريه، ثم أحل كما حلوا)[5].

إنه ﷺ أصابه همّ عظيم بسبب عدم مبادرة أصحابه لتنفيذ ما أمرهم به، فلم يجد إلا أن يدخل علىٰ عائشة يخفف من همه بذكر ما حدث.

● وعندما كان ﷺ في الطريق إلىٰ فتح مكة، لقيه ابن عمه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وابن عمته عبدالله بن أبي أمية. فالتمسا الدخول عليه ﷺ فلم يقبل ذلك.

---

(١) خدم: جمع خدمه، وهي الخلخال.

(٢) تنقزان: تسرعان المشي كالهرولة، والنقز: الوثب.

(٣) متفق عليه (خ٤٠٦٤، م١٨١١).

(٤) أمر رسول الله ﷺ كل من لم يسق معه الهدي: أن يطوف ويسعىٰ ويتحلل من إحرامه ويجعلها عمرة، وهو ما يعرف بالتمتع، وكان شيئاً جديداً بالنسبة لهم فتباطؤوا قليلاً بالامتثال.

(٥) أخرجه مسلم في كتاب الحج (١٣٠).

فكلمته أم سلمة رضي الله عنها فقالت: يا رسول الله، ابن عمك وابن عمتك!!

قال: لا حاجة لي بهما، أما ابن عمي فهتك عرضي[1]، وأما ابن عمتي فهو الذي قال لي ما قال[2].

فقالت: لا يكن ابن عمك وابن عمتك أشقىٰ الناس بك.

فلما خرج الخبر إليهما بذلك، قال أبو سفيان ـ ومعه ابن له ـ والله ليأذنن لي أو لآخذن بيد ابني هذا، ثم لنذهبن في الأرض حتىٰ نموت عطشاً وجوعاً..

فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ رقَّ لهما ثم أذن لهما فدخلا عليه فأسلما..

وهكذا كانت أم سلمة عاملاً من عوامل الخير في التمهيد لرضا رسول الله ﷺ.

تلك نماذج من مشاركات أمهات المؤمنين رضي الله عنهن في الأمور العامة[3].

---

(١) كان شاعراً يهجو رسول الله ﷺ، وقد أجابه عنه حسان بن ثابت كثيراً.

(٢) هو ابن عمته عاتكة، وهو أخو أم سلمة لأبيها، وكان قوله: والله لا آمنت بك حتىٰ تتخذ سلماً إلىٰ السماء، فتعرج فيه وأنا أنظر، ثم تأتي بصك وأربعة من الملائكة يشهدون أن الله أرسلك «شرح المواهب» (٣٠١/٢).

(٣) بعض هذا الفصل من كتاب «من معين الشمائل» للمؤلف (ص٧٩ ـ ٨١).

الفصل الثاني عشر
طهارة بيوته ﷺ

برز النفاق بعد غزوة بدر، ليكون العدو الداخلي الذي يعيش في صفوف المسلمين، فيعرف من ثغرات الضعف لديهم، ما لا يمكن للعدو الخارجي معرفته.

وكانت أول مواقفه الخبيثة، في تخذيل جيش المسلمين في غزوة أُحد، حيث رجع رأس النفاق عبدالله بن أبي بثلث الجيش.

ثم كانت غزوة الخندق، التي لم يقتصر دور المنافقين فيها علىٰ عدم المشاركة، بل جعلوا يضعفون عزائم المسلمين بما يذيعونه عن قوة المشركين..

ثم كانت غزوة بني المصطلق حيث بلغ النفاق فيها ذروة الخط البياني، فظهر منهم في عداوة المسلمين ما لم يحدث من قبل، وبرز ذلك في أمرين:

الأول: قول زعيمهم: لئن رجعنا إلىٰ المدينة ليخرجن الأعز منا الأذل.

والثاني: قصة الإفك التي كانت موجَّهة إلىٰ ذات الرسول ﷺ في شخص أحب الناس إليه..

وهو استهداف مباشر للنيل من بيت النبوة، وهو من أسوأ ما قام به المنافقون، فقد باءت جهودهم بالفشل علىٰ أرض المعارك، وعلىٰ الصعيد السياسي، فاتجهوا إلىٰ أسلوب جديد، وهو محاولة النيل من بيت النبوة.. وهو ما عرف بقصة الإفك.

وبما أن هذا الحديث ذا ارتباط شديد ببيت النبوة كان لا بد من الوقوف عنده، نستطلع فيه تصرفه ﷺ في هذا الأمر الخطير، وكيف تمت معالجته.

ولنترك الحديث للسيدة عائشة رضي الله عنها، صاحبة الشأن في هذه القصة لتروي لنا تفاصيلها وملابساتها:

«قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين أزواجه، فأيتهن خرج سهمها، خرج بها معه.

قالت: فأقرع بيننا في غزوة غزاها، فخرج فيها سهمي، فخرجت مع رسول الله ﷺ بعدما أنزل الحجاب، فكنت أُحمل في هودجي وأُنزل فيه.

فسرنا، حتىٰ إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفل، ودنونا من المدينة قافلين، آذن ليلة بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل، فمشيت حتىٰ جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلىٰ رحلي، فلمست صدري، فإذا عقد لي من جَزْعِ ظَفَار قد انقطع، فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه.

قالت: وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون لي، فاحتملوا هودجي، فرحّلوه علىٰ بعيري الذي كنت أركب عليه، وهم يحسبون أني فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافاً.. إنما يأكلن العُلقة من الطعام، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل فساروا.

ووجدت عقدي، بعدما استمر الجيش، فجئت منازلهم، وليس بها منهم داع ولا مجيب، فقصدت منزلي الذي كنت فيه، وظننت أنهم سيفقدونني فيرجعون إليّ.

فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي من وراء الجيش، فأصبح عند منزلي فرأىٰ سواد إنسان نائم، فعرفني حين رآني، وكان رآني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخمرت وجهي بجلبابي، ووالله ما تكلمنا بكلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، وهوىٰ حتىٰ أناخ راحلته، فوطئ علىٰ يدها، فقمت إليها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتىٰ أتينا الجيش في نحر الظهيرة وهم نزول».

***

ووجد عبدالله بن أبي فرصته السانحة، ليطعن في عائشة رضي الله عنها، وكان هو الذي تولىٰ كبر الإفك، فكان يتحدث به عنده، فيقره ويستمعه ويستوشيه.. فكان مصدراً لانتشار الخبر وذيوعه.

***

قالت عائشة: فقدمنا المدينة، فاشتكيت حين قدمت شهراً، والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك، لا أشعر بشيء من ذلك.

ويريبني في وجعي، أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرىٰ منه حين أشتكي، إنما يدخل عليّ رسول الله فيسلّم، ثم يقول: (كيف تيكم؟) ثم ينصرف، فذلك يريبني ولا أشعر بالشر.

حتىٰ خرجت حين نقهت، فخرجت مع أم مسطح قِبَل المناصع ـ وكان متبرزنا ـ وكنا لا نخرج إلا ليلاً إلىٰ ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريباً في بيوتنا..

قالت: فانطلقت أنا وأم مسطح ـ وهي ابنة خالة أبي بكر، وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن عبد المطلب ـ فلما فرغنا أقبلنا قبل بيتي، فعثرت أم مسطح في مرطها، فقالت: تعس مسطح.

فقلت لها: بئس ما قلت، أتسبين رجلاً شهد بدراً؟ فقالت: أوَلم تسمعي ما قال؟ قلت: وما قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك.

قالت: فازددت مرضاً علىٰ مرضي، فلما رجعت إلىٰ بيتي، دخل عليّ رسول الله ﷺ، فسلّم ثم قال: (كيف تيكم؟) فقلت له: أتأذن لي أن آتي أبوَي؟ قالت: وأريد أن أستيقن الخبر من قبلهما.

قالت: فأذن لي رسول الله ﷺ. فقلت لأمي: يا أمتاه، ماذا يتحدث الناس؟

قالت: يا بنية، هوّني عليك، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها، لها ضرائر، إلا أكثرن عليها.

قالت: فقلت: سبحان الله، أوَلقد تحدث الناس بهذا؟

قالت عائشة: فبكيت تلك الليلة حتىٰ أصبحت، لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت أبكي..

* * *

هذا شأن عائشة..

أما شأن رسول الله ﷺ فكان يتوقع أن ينزل عليه الوحي بشأن هذه المشكلة فلما تأخر الوحي، وكثر لغط الناس من المنافقين، ومن المغفلين

من المسلمين دعا رسول الله ﷺ عليّ بن أبي طالب وأسامة بن زيد، يسألهما ويستشيرهما في فراق أهله.

فأما أسامة، فأشار علىٰ رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله، فقال: أهلك ولا نعلم إلا خيراً.

وأما عليّ، فقال: يا رسول الله، لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وسل الجارية تصدقك.

ودعا ﷺ بريرة ـ عملاً بإشارة علي ﷺ ـ فقال: (أي بريرة، هل رأيت من شيء يريبك؟).

قالت بريرة: والذي بعثك بالحق، ما رأيت عليها أمراً قط أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن فتأكله.

وسأل رسول الله ﷺ زينب بنت جحش عن أمر عائشة، فقال: (ماذا علمت، أو رأيت؟) فقالت: يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت إلا خيراً.

فقام رسول الله ﷺ بعد ذلك علىٰ المنبر فقال: (يا معشر المسلمين، من يعذرني من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهلي ـ يعني عبدالله بن أُبي ـ والله ما علمت علىٰ أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما يدخل علىٰ أهلي إلا معي).

فقام أسيد بن حضير، فقال: أنا أعذرك يا رسول الله، فإن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج، أمرتنا ففعلنا أمرك.

فقام سعد بن عبادة ـ وهو سيد الخزرج ـ فقال لأسيد: كذبت، لعمر الله لا تقتله، ولا تقدر علىٰ قتله، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل.

وكان سعد بن عبادة رجلاً صالحاً، ولكن احتملته الحمية.

فقال أسيد لسعد: كذبت، لعمر الله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين.

فثار الحيان الأوس والخزرج، حتىٰ همُّوا أن يقتتلوا.

فلم يزل رسول الله ﷺ ـ وهو قائم علىٰ المنبر ـ يخفضهم حتىٰ سكتوا وسكت.

* * *

قالت عائشة: وسمع أبو بكر صوتي وأنا أسأل أمي، وكان فوق البيت يقرأ فنزل. فقال لأمي: ما شأنها؟ قالت: بلغها الذي ذكر من شأنها، ففاضت عيناه، وقال: أقسمت عليك أي بنية إلا رجعت، فرجعت.

قالت: وأصبح أبواي عندي، وقد بكيت ليلتين ويوماً، لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، حتىٰ إني لأظن أن البكاء فالق كبدي.

قالت: فبينا نحن علىٰ ذلك، دخل رسول الله ﷺ علينا فسلّم، ثم جلس. قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها، وقد لبث شهراً لا يوحىٰ إليه في شأني بشيء.

قالت: فتشهّد ﷺ حين جلس، ثم قال: (أما بعد، يا عائشة، إنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة، فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب، فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف ثم تاب، تاب الله عليه).

قالت: فلما قضىٰ رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعي، حتىٰ ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي: أجب رسول الله ﷺ عني فيما قال.

فقال أبي: والله، ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ.

فقلت لأمي: أجيبي رسول الله ﷺ فيما قال.

قالت أمي: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ.

فقلت ـ وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ من القرآن كثيراً ـ: إني والله لقد علمت، لقد سمعتم هذا الحديث حتىٰ استقر في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم: إني بريئة، لا تصدقونني، ولئن اعترفت لكم بأمر ـ والله يعلم

أني منه بريئة - لتصدقني، فوالله لا أجد لي ولكم مثلاً إلا أبا يوسف حين قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

ثم تحولت، واضطجعت على فراشي، والله يعلم أني حينئذ بريئة، وأن الله مبرئي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل في شأني وحياً يتلى، لشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بأمر، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها.

فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه، ولا خرج أحد من أهل البيت، حتى أنزل الله عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء، فسري عنه وهو يضحك، فكانت أول كلمة تكلم بها أن قال: (يا عائشة، أما الله فقد برأك).

قالت: فقالت لي أمي: قومي إليه.

فقلت: والله لا أقوم إليه، فإني لا أحمد إلا الله ﷻ.

قالت: وأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ [النور: ١١] العشر الآيات، ثم أنزل الله هذا في براءتي[١].

وتصف عائشة حالة أبويها عند نزول الوحي فتقول: أما أنا، فقلت: إن الله لا يقول إلا الحق، وأما أبواي، فوالذي ذهب بأنفاسهما، ما أقلع عن رسول الله ﷺ إلا خفت أن أرواحهما ستخرجان.

* * *

تلك هي قصة هذه الحادثة، كما جاءت على لسان السيدة عائشة في «الصحيحين» وغيرهما.

ويحسن بنا أن نتوقف عند سلوك النبي ﷺ إزاء هذا الحدث المؤلم، الذي أهمه خلال شهر من الزمن..

---

(١) رواه البخاري (٤١٤١)، ومسلم (٢٧٧٠)، والترمذي (٣١٨٠).

هذا الشهر يمضي دون أن تشعر عائشة بما يدور في المدينة، ولم يشعرها النبي ﷺ بذلك، لأنه كان ـ والله أعلم ـ مطمئناً إلى براءتها، وكان ينتظر أن يأتيه الوحي فيحل عقدة هذه المسألة قبل أن تعلم بها عائشة.

إن عدم إعلامها كان منه ﷺ حرصاً علىٰ عدم جرح مشاعرها بتوجيه التهمة لها.. وهي لم تشعر بشيء إلا بعدم اهتمامه بها في مرضها، كما كان يفعل فيما سبق.

وهذا أمر كان لا بد منه، توافقاً مع حالته النفسية ﷺ، فهو لم يصدق الخبر ولكن الخبر يلوكه الناس..

وهذا ما ألجأه بعد مضي قرابة الشهر إلىٰ استشارة أسامة وعلي رضي الله عنهما، وإلىٰ سؤال بريرة، وإلىٰ سؤال زينب بنت جحش.. الأمر الذي كان يؤكد براءتها.

وهذا ما دفعه إلىٰ ارتقاء المنبر.. كما رأينا..

ولكن كل هذه الأمور لم توصله إلىٰ يقين يستطيع به إخراس الألسنة الحاقدة، فكان لا بد من مفاتحة عائشة رضي الله عنها بالموضوع ومعرفة حقيقة ما حدث.

وعندها نزل الوحي.

* * *

واقتضت حكمة الله أن يكون الوحي قرآناً يتلىٰ، لأنه لو كان الوحي رؤيا منامية كما كانت تتوقع السيدة عائشة، لكان للمنافقين مقال في ذلك، بأنه ﷺ قال ذلك استنقاذاً لبيته الكريم ولصديقه الحميم أبي بكر، ولكان ذلك غير قاطع للألسنة الخبيثة، فكان نزول ذلك آياتٍ بينات، إحقاقاً للحق وإثباتاً للبراءة وحسماً لهذه الفرية العظيمة.

* * *

وقد يتساءل بعضهم: كيف لم تفكر السيدة عائشة وهي تقدم مع صفوان بن المعطل بما قد يقال؟

والجواب: لا يحتاج إلىٰ إعمال فكر، فالمرأة الحرة الشريفة لم يكن ليطرأ علىٰ فكرها مثل هذا الخاطر، والذي يبدو أن هذه القضايا كانت تحدث في الجاهلية مروءة وشهامة، وقد مرّ معنا في ترجمة أم سلمة، كيف أن عثمان بن طلحة قد صحبها من مكة إلىٰ المدينة ـ وكان ما يزال علىٰ شركه ـ وهذا من القيم التي كان العرب يفاخرون بها.

فلم ترَ السيدة عائشة فيما حدث ما يشين، أو ما يكون محل استشكال، بل لم يخطر ذلك علىٰ فكرها، بل ولم يخطر علىٰ فكر صفوان أيضاً، فقد قال حين بلغه خبر ما يقال: سبحان الله، والله ما كشفت كنف[1] أنثىٰ قط.

هذا ولولا فعل المنافقين وما خبوا به وأوضعوا لما كان لهذا الحدث أي وجود.

إن قدوم عائشة وصفوان علىٰ الرسول ﷺ في نحر الظهيرة، وفي وضح النهار، لدليل علىٰ براءتهما، ولو كان غير ذلك لتحينا وقتا آخر يكون فيه بعيداً عن الأعين.

❋ ❋ ❋

ولقد كانت أمهات المؤمنين جميعاً، علىٰ قدر عال من الأمانة، ولا شك بأنه ﷺ سألهن كما سأل زينب.. ولم يثبت أن واحدة منهن تكلمت بكلمة فيها ما يخدش من مقام السيدة عائشة، بل كنّ جميعاً كما كانت زينب رضي الله عنهن جميعاً، فلم تحملهن الغيرة علىٰ الولوغ في عرض أختهن زوراً وبهتاناً.

❋ ❋ ❋

وعندما نزلت الآيات ببراءة السيدة عائشة، أقام ﷺ حد القذف علىٰ من ثبت عليه ذلك، وكانوا ثلاثة، رجلان وامرأة.

---

(١) الكنف: الجانب، والمراد هنا: ثوبها الذي يسترها.

أما الرجلان فهما: حسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وأما المرأة فهي حمنة بنت جحش، أخت زينب زوج النبي ﷺ.

وقد يستغرب القارئ لهذه الحادثة: كيف أن عبدالله بن أبي بن سلول - وهو الذي تولىٰ كبر هذه الجريمة، وهو الذي كان ينشرها كما جاء ذلك في «الصحيحين» - لم يثبت عليه ذلك، ولا علىٰ أحد من المنافقين، ولذا لم يقم عليهم الحد، وذلك أنهم كانوا يتداولونه سراً، ومن وراء وراء.. فيقع في ذلك البسطاء من المسلمين والمغفلون، كما حدث لحسان ومسطح وحمنة.

وقد كان ﷺ علىٰ يقين من دور عبدالله بن أُبي، ولكنه لما لم تتوفر في حقه البينة اللازمة، لم يحكم عليه بإقامة الحد، ولم يعمل ﷺ بعلمه في ذلك.

ومن هذه الواقعة وأمثالها قال فقهاء الأمة: إن القاضي لا يعمل بعلمه، بل بالبينة المقدمة له.

* * *

واستكمالاً لهذا البحث، في موضوع طهارة بيوته ﷺ، لا بد لنا من الوقوف علىٰ الحديث الذي أخرجه مسلم عن أنس ﷺ، حيث قال:

إن رجلاً كان يتهم بأم ولد رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ لعلي: (اذهب فاضرب عنقه) فأتاه علي، فإذا هو في ركي[١] يتبرد فيها، فقال له علي: اخرج، فناوله يده فأخرجه، فإذا هو مجبوب ليس له ذكر، فكفَّ علي عنه، ثم أتىٰ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إنه لمجبوب[٢].

وجاء في «الإصابة»: أن المقوقس بعث إلىٰ رسول الله ﷺ بمارية وأختها سيرين وبعث معهما بخصي يقال له: مأبور..

---

(١) الركي: البئر.

(٢) رواه مسلم (٢٧٧١).

والذي يبدو أن هذا الخصي كان يدخل على مارية ـ وهي أم ولد رسول الله ﷺ ـ بعامل المعرفة السابق بينهما وعيشهما في بيت المقوقس..

والكلام الذي دار حول مأبور، إنما كان بسبب عدم معرفة الناس بأنه خصي.

والذي يستوقفنا في حديث الإمام مسلم: هو أمره ﷺ بقتل الرجل دون التثبت من ذنبه، وهو الذي جاء لإقامة العدل وإحقاق الحق.

والذي يبدو ـ والله أعلم ـ أن رسول الله ﷺ كان على علم بحاله بواسطة مارية أو أن الله أطلعه على ذلك.

وأن إرسال علي رضي الله عنه في نحر الظهيرة ليقتله، إنما كان عن وحي ليجد الرجل وهو يتبرّد، ويراه عارياً، ويظهر للناس كذب ظنهم.

والرسول ﷺ الذي لم يقم الحد على عبدالله بن أبي في شأن عائشة، وكان على يقين من مشاركته في ذلك لعدم وجود البينة، ما كان ليأمر بقتل إنسان على الظن، مع الفارق الكبير بين إقامة حد القذف، وبين القتل الذي هو إزهاق الروح.

فما من شك بأن الأمور كانت مرتبة بواسطة الوحي ليطلع علي رضي الله عنه على واقع رجل.. ويعلم الناس بذلك من بعد.

وبهذا تظل بيوته ﷺ فوق الشكوك والريب والشبهات، كيف لا يكون ذلك. والله يقول في حق نساء النبي ﷺ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

* * *

وأخيراً، لا بد من وقفة مع معالجته ﷺ لحادثة الإفك، فقد كان ذلك في روية وأناة، ولم يستعجل الأمور.

وكم ذهب الاستعجال بهذه الأمور وعدم الروية فيها بأنفس بريئة، تبينت براءتها بعد فوات الأوان.

وقد روىٰ الإمام البخاري في «الأدب المفرد»[1] عن الحسن: أن رجلاً ذهب بطلب العلم وترك امرأته حاملاً.. وطالت غيبته، فلقي عالماً.. فقال له العالم: إذا أردت أن تنطلق فقل لي أعلمك.

فلما أراد الرجل الرجوع إلىٰ بلده قال للعالم: حضر مني الخروج فعلمني.

فقال له: اتقِ الله، واصبر، ولا تستعجل.

قال الحسن: في هذا الخير كله.

فجاء الرجل أهله، ولا يكاد ينساهن، إنما هنَّ ثلاث. فلما دخل الدار إذا هو برجل نائم متراخ عن المرأة، وإذا امرأته نائمة. قال: والله ما أريد أن أنتظر بهذا؟ وكأنه نسي أنه ترك امرأته حاملاً.

فرجع إلىٰ راحلته، فلما أراد أن يأخذ السيف قال: اتقِ الله، واصبر، ولا تستعجل.

فرجع، فلما قام علىٰ رأسه، قال: ما أنتظر بهذا شيئاً.

فرجع إلىٰ راحلته، فلما أراد أن يأخذ سيفه، ذكره، فرجع إليه. فلما قام علىٰ رأسه استيقظ الرجل، فإذا هو ابنه، فلما رآه وثب إليه فعانقه وقبّله وساءله فقال: ما أصبت بعدي؟

فقال الأب: أصبت والله بعدك خيراً كثيراً. أصبت والله بعدك أني مشيت الليلة بين السيف وبين رأسك ثلاث مرار، فحجزني ما أصبت من العلم عن قتلك.

وهكذا كان في التؤدة دفع شر محقق.

وقد أوصىٰ النبي ﷺ بذلك أحد أصحابه فقال: (إذا أردت أمراً فعليك بالتؤدة، حتىٰ يريك الله منه المخرج، أو حتىٰ يجعل الله لك مخرجاً)[2].

---

(١) «الأدب المفرد» الحديث (٥٨٣).

(٢) «الأدب المفرد» (٨٨٨).

الفصل الثالث عشر
خصائص أمهات المؤمنين

ذكر الفقهاء ـ رحمهم الله ـ لأزواج النبي ﷺ عدداً من الخصائص التي أكرمهن الله بها، باعتبارهن أزواج النبي ﷺ، ولهذا السبب خاصة.

ولذا فهي بهذا المعنىٰ من خصائص التوقير والاحترام له ﷺ.

ونذكر منها:

١ ـ أنهن أمهات المؤمنين.

قال الله تعالىٰ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

قال ابن كثير: أي في الحرمة والاحترام، والتوقير والإكرام والإعظام، ولكن لا تجوز الخلوة بهن، ولا ينتشر التحريم إلىٰ بناتهن وأخواتهن بالإجماع.

وهن أمهات المؤمنين من الرجال دون النساء.

وأخرج البيهقي عن عائشة رضي الله عنها: أن امرأة قالت لها: يا أمه، فقالت: أنا أم رجالكم، لست بأمك[1].

وفي هذا ما يدل علىٰ أن أمومتهن لا تتعدىٰ إلىٰ غيرهن أيضاً وقوفاً عند النص. فلا بناتهن أخوات للمؤمنين، ولا إخوتهن وأخواتهن أخوال المؤمنين وخالاتهم، فلا يقال: معاوية خال المؤمنين.

فالنص يثبت خصوصية لأزواج النبي ﷺ بإطلاق لفظ الأمهات عليهن فلا يتجاوزهن ذلك إلىٰ غيرهن.

٢ ـ تفضيلهن علىٰ سائر النساء باستثناء فاطمة رضي الله عنها.

(١) «سنن البيهقي» كتاب النكاح. باب ما خص به من أن أزواجه أمهات المؤمنين (٧/٧٠).

٣ ـ جعل ثوابهن وعقابهن مضاعفاً.

قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [الأحزاب].

قال الشافعي: قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٢] فأبانهنَّ به ﷺ من نساء العالمين، ومعنىٰ هذا أنه جعلهن مباينات لأجل صحبة رسول الله ﷺ لنساء سائر العالمين، في الثواب عند التقوىٰ وفعل الخير، وكذا في جزاء الجريمة لو اتفقت منهن والعياذ بالله حاشاهن من ذلك[١].

٤ ـ تحريمهن من بعده ﷺ علىٰ غيره:

قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٣].

وسبب نزول الآية كما ذكر المفسرون: أن طلحة بن عبيدالله رضي الله عنه قال: لو قبض النبي ﷺ تزوجت عائشة رضي الله عنها، فنزلت الآية.

قال ابن كثير: ولهذا أجمع العلماء قاطبة علىٰ أن من توفي عنها رسول الله ﷺ من أزواجه، أنه يحرم علىٰ غيره تزوجها من بعده، لأنهن أزواجه في الدنيا والآخرة وأمهات المؤمنين.

٥ ـ أنهن يسألن من وراء حجاب:

قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

قال العلماء: لا يحل لأحد أن يسألهن إلا من وراء حجاب، وأما غيرهن فيجوز أن يسألهن مشافهة[٢].

---

(١) «غاية السول» (ص٢٥٢).

(٢) «الخصائص الكبرىٰ» (٢/٤٣٨).

٦ ـ ستر أشخاصهن:

قال السيوطي: قال القاضي عياض والنووي في «شرح مسلم»: خصصن بفرض الحجاب عليهن بلا خلاف في الوجه والكفين، فلا يجوز لهن كشف ذلك لشهادة ولا لغيرها، ولا إظهار شخوصهن، وإن كنَّ مستترات إلا لضرورة خروجهن للبراز. وكن إذا قعدن للناس جلسن وراء حجاب، وإذا خرجن حجبن وسترن أشخاصهن، وأن زينب بنت جحش جعلوا لها قبة فوق نعشها لستر شخصها[1].

فقد جاء في «طبقات ابن سعد»: أنه لما ماتت رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه منادياً: «ألا يخرج معها إلا ذو محرم».

فقالت بنت عميس: يا أمير المؤمنين، ألا أريك شيئاً رأيت الحبشة تصنعه بنسائهم؟ فجعلت نعشاً وغشته ثوباً.

فقال: ما أحسن هذا وأستره، وأمر منادياً فنادىٰ: أن اخرجوا علىٰ أمكم[2].

واستدل القائلون بذلك بحديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: خرجت سودة بعدما ضرب الحجاب لحاجتها، وكانت امرأة جسيمة لا تخفىٰ علىٰ من يعرفها، فرآها عمر بن الخطاب فقال: يا سودة، أما والله ما تخفين علينا، فانظري كيف تخرجين، قالت: فانكفأت راجعة، ورسول الله ﷺ في بيتي وإنه ليتعشىٰ وفي يده عَرْقٌ، فدخلت فقالت: يا رسول الله، إني خرجت لبعض حاجتي، فقال لي عمر كذا وكذا، قالت: فأوحىٰ الله إليه، ثم رفع عنه، وإن العرق في يده ما وضعه فقال: (إن الله أذن لكن أن تخرجن لحاجتكن)[3].

واستدلوا أيضاً بأن حفصة لما توفي عمر سترها النساء عن أن يرىٰ شخصها.

---

(١) «الخصائص الكبرىٰ» (٢/٤٣٨).

(٢) «طبقات ابن سعد» (٨/١١١).

(٣) «فتح الباري» (٨/٥٣٠).

قال ابن حجر: وليس فيما ذكره ـ صاحب هذا الرأي ـ دليل على ما ادعاه من فرض ذلك عليهن. وقد كنَّ بعد النبي ﷺ يحججن ويطفن، وكان الصحابة يسمعون منهن الحديث وهن مستترات الأبدان لا الأشخاص[1].

(١) هذا الفصل من كتاب «من معين الخصائص النبوية» للمؤلف. (ص١٧٨ ـ ١٨١).

الفصل الرابع عشر

تربية قرآنية وأجر عظيم

سبق الحديث عند الكلام عن معيشته ﷺ عن مطالبة زوجاته بالنفقة وكيف نزلت آية التخيير علاجاً لهذه المشكلة.

ولكن هذه الآية لم تنزل وحدها، وإنما تبعتها آيات أخرىٰ تبين ما ينبغي أن يكون عليه أزواجه ﷺ..

ولذا يحسن بنا ونحن في نهاية هذا الباب أن نتوقف أمام هذه الآيات التي حددت معالم الطريق لنساء النبي ﷺ، ومن ورائهن نساء المسلمين عامة.

قال تعالىٰ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾.

يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾.

يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾.

وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾.

وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [الأحزاب].

والآيتان الأولىٰ والثانية من هذا النص الكريم تتعلقان بأمر الله تعالىٰ لنبيه ﷺ أن يخيِّر زوجاته بين البقاء عنده علىٰ الحياة التي عهدنها وبين تسريحهن إن كنّ يرغبن في زينة الحياة الدنيا.

وقبل أن نتحدث عن معاني هذا التخيير وفوائده وآثاره نتوقف عند الطريقة التي سلكها ﷺ لتبليغ هذا الأمر لزوجاته.

«كان ﷺ يحب عائشة حباً ظاهراً، ويحب لها أن ترتفع إلىٰ مستوىٰ القيم التي يريدها الله له، ولأهل بيته، فيبدأ بها في التخيير، ويريد أن يساعدها علىٰ الارتفاع والتجرد، فيطلب إليها ألا تعجل في الأمر حتىٰ تستشير أبويها، وقد علم أنهما لم يكونا يأمرانها بفراقه، كما قالت..

وهذه العاطفة الحلوة في قلب النبي ﷺ لا تخطئ عائشةُ رضي الله عنها من جانبها في إدراكها، فتسرها وتحفل بتسجيلها في حديثها..

وكذلك تبدو عائشة رضي الله عنها إنسانة يسرُّها أن تكون مكينة في قلب زوجها فتسجل بفرح حرصه عليها، وحبه لها، ورغبته أن تستعين بأبويها علىٰ اختيار الأفق الأعلىٰ، فتبقىٰ معه علىٰ هذا الأفق الوضيء.

ثم نلمح مشاعر الأنوثة كذلك، وهي تطلب إليه ألا يخبر أزواجه الأخريات أنها اختارته حين يخيرهن، وما في هذا الطلب من رغبة أن يظهر تفردها في هذا الاختيار، وميزتها علىٰ بقية نسائه، أو علىٰ بعضهن في هذا المقام.

وهنا نلمح عظمة النبوة من جانب آخر في ردّ رسول الله ﷺ وهو يقول لها: (إن الله تعالىٰ لم يبعثني معنفاً ولكن بعثني معلماً ميسراً، لا تسألني واحدة منهن عما اخترتِ إلا أخبرتها).

فهو لا يودُّ أن يحجب عن إحدىٰ نسائه ما قد يعينها علىٰ الخير، ولا يمتحنها امتحان التعمية والتعسير، بل يقدم العون لكل من تريد

العون، كي ترتفع على نفسها، وتتخلص من جواذب الأرض ومغريات المتاع»[1].

ولقد اختار جميعهن ﷺ الله ورسوله والدار الآخرة.

ويسجل لنا هذا التخيير **فوائد كثيرة**:

«**منها**: اعتناء الله تعالى برسوله والغيرة عليه أن يكون بحالة يشق عليه كثرة مطالب زوجاته الدنيوية.

ومنها: تنزيهه عما لو كان فيهن من يؤثر الدنيا على الله ورسوله والدار الآخرة.

ومنها: سلامة زوجاته ﷺ عن الإثم والتعرض لسخط الله ورسوله، فحسم الله بهذا التخيير عنهن التسخط على الرسول، الموجب لسخطه المسخط لربه الموجب لعقابه.

ومنها: إظهار رفعتهن، وعلو درجتهن، وبيان علو هممهن أنْ كان الله ورسوله والدار الآخرة مرادَهن ومقصودهن، دون الدنيا وحطامها.

ومنها: استعدادهن بهذا الاختيار لأن يكنَّ زوجاته في الدنيا والآخرة.

ومنها: ظهور المناسبة بينه وبينهن، فإنه أكمل الخلق، وأراد الله أن تكون نساؤه كاملات مكمَّلات، طيبات مطيبات ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ [النور: ٢٦].

ومنها: أن هذا التخيير داع وموجب للقناعة التي يطمئن لها القلب، وينشرح لها الصدر، ويزول عنهن جشع الحرص، وعدم الرضا الموجب لقلق القلب واضطرابه وهمّه وغمّه.

---

(١) «في ظلال القرآن» (٥/٢٨٥٦).

ومنها: أن يكون اختيارهن هذا سبباً لزيادة أجرهن ومضاعفته، وأن يكنَّ بمرتبة ليس فيها أحد من النساء..»[1].

***

وتبدأ الآيتان - الثالثة والرابعة - من النص الكريم السابق بخطاب نساء النبي اللاتي آثرن الله ورسوله والدار الآخرة على زينة الحياة الدنيا مبينة لهن مكانتهن ومسؤوليتهن..

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [الأحزاب].

«إنها تبعة المكان الكريم الذي هنَّ فيه، وهنَّ أزواج رسول الله ﷺ، وهنَّ أمهات المؤمنين، وهذه الصفة وتلك، كلتاهما ترتبان عليهن واجبات ثقيلة، وتعصمانهن كذلك من مقارفة الفاحشة، فإذا فرض وقارفت واحدة منهن فاحشة مبينة واضحة لا خفاء فيها، كانت مستحقة لضعفين من العذاب، وذلك فرض يبين تبعة المكان الكريم الذين هنَّ فيه.. ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ لا تمنعه ولا تصعبه مكانتهن من رسول الله المختار.. كما قد يتبادر إلى الأذهان.

﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ والقنوت: الطاعة والخضوع، والعمل الصالح هو الترجمة العملية للطاعة والخضوع.. ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ كما أن العذاب يضاعف للمقارفة ضعفين.. [فكذلك الأجر يضاعف مرتين] ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ فهو حاضر مهيأ ينتظرها فوق مضاعفة الأجر، فضلاً من الله ومنّة»[2].

***

(١) «تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان» للسعدي.
(٢) «الظلال» عند الآية الكريمة.

وتجمع الآيات الواردة بعد ذلك عدداً من التوجيهات الكريمة مبتدئة بتوجيه الأنظار إلىٰ خصوصية نساء النبي ومكانتهن.

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ﴾.

قال ابن كثير رحمه الله تعالىٰ: «هذه آداب أمر الله تعالىٰ بها نساء النبي ﷺ ـ ونساء الأمة تبع لهن في ذلك ـ فقال تعالىٰ مخاطباً لنساء النبي ﷺ بأنهن إذا اتقين الله ﷻ كما أمرهن، فإنه لا يشبههن أحد من النساء، ولا يلحقهن في الفضيلة والمنزلة».

ثم قال: ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾.

«ينهاهن حين يخاطبن الأغراب من الرجال، أن يكون في نبراتهن ذلك الخضوع اللين الذي يثير شهوات الرجال ويحرك غرائزهم، ويطمع مرضىٰ القلوب ويهيج رغباتهم.

ومن هن اللواتي يحذرهن الله هذا التحذير؟ إنهن أزواج النبي ﷺ، وأمهات المؤمنين، اللواتي لا يطمع فيهن طامع، ولا يرف عليهن خاطر مريض، فيما يبدو للعقل أول مرة، وفي أي عهد يكون هذا التحذير؟ في عهد النبي ﷺ وعهد الصفوة المختارة من البشرية في جميع الأعصار.

ولكن الله الذي خلق الرجال والنساء يعلم أن في صوت المرأة حين تخضع بالقول، وتترفق في اللفظ، ما يثير الطمع في قلوب، ويهيج الفتنة في قلوب، وأن القلوب المريضة التي تثار وتطمع موجودة في كل عهد، وفي كل بيئة، وتجاه كل امرأة، ولو كانت هي زوج النبي الكريم، وأم المؤمنين، وأنه لا طهارة من الدنس، ولا تخلص من الرجس، حتىٰ تمتنع الأسباب المثيرة من الأساس».

ثم قال: ﴿وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾.

«نهاهن من قبل عن النبرة اللينة، واللهجة الخاضعة، وأمرهن في هذه أن يكون حديثهن في أمور معروفة غير منكرة، فإن موضوع الحديث قد يُطمع مثل لهجة الحديث، فلا ينبغي أن يكون بين المرأة والرجل لحن ولا

إيماء، ولا هذر ولا هزل، ولا دعابة ولا مزاح، كي لا يكون مدخلاً إلىٰ شيء آخر وراءه من قريب أو من بعيد.

والله سبحانه الخالق العليم بخلقه، وطبيعة تكوينهم، هو الذي يقول هذا الكلام لأمهات المؤمنين الطاهرات، كي يراعينه في خطاب أهل زمانهن، خير الأزمنة علىٰ الإطلاق.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾.

من وقر، يقر، أي: ثقل واستقر، وليس معنىٰ هذا الأمر ملازمة البيوت فلا يبرحنها إطلاقاً، إنما هي إيماءة لطيفة، إلىٰ أن يكون البيت هو الأصل في حياتهن، وهو المقر، وما عداه استثناءً طارئاً لا يثقلن فيه ولا يستقررن، إنما هي الحاجة تقضىٰ، وبقدرها.

والبيت هو مثابة المرأة التي تجد فيها نفسها علىٰ حقيقتها، كما أرادها الله تعالىٰ، غير مشوهة ولا منحرفة ولا ملوثة، ولا مكدودة في غير وظيفتها التي هيأها الله لها بالفطرة.

وإن خروج المرأة لتعمل كارثة علىٰ البيت، قد تبيحها الضرورة، أما أن يتطوع بها الناس، وهم قادرون علىٰ اجتنابها، فتلك هي اللعنة التي تصيب الأرواح والضمائر والعقول، في عصور الانتكاس والشرور والضلال.

فأما خروج المرأة لغير العمل، خروجها للاختلاط ومزاولة الملاهي، والتسكع في النوادي والمجتمعات.. فذلك هو الارتكاس في الحمأة، الذي يردّ البشر إلىٰ مراتع الحيوان».

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾..

«ذلك حين الاضطرار إلىٰ الخروج، بعد الأمر بالقرار في البيوت.

ولقد كانت المرأة في الجاهلية تتبرج، ولكن جميع الصور التي تروىٰ عن تبرج الجاهلية الأولىٰ تبدو ساذجة أو محتشمة حين تقاس إلىٰ تبرج أيامنا هذه في جاهليتنا الحاضرة.

قال مجاهد: كانت المرأة تخرج تمشي بين الرجال، فذلك تبرج الجاهلية.

وقال قتادة: وكانت لهن مشية تكسر وتغنج، فنهىٰ الله عن ذلك.

وقال مقاتل بن حيان: والتبرج أنها تلقي الخمار علىٰ رأسها ولا تشده، فيداري قلائدها وقرطها وعنقها، ويبدو ذلك كله منها، وذلك التبرج.

وقال ابن كثير في «التفسير»: كانت المرأة منهن تمر بين الرجال، مسفحة بصدرها لا يواريه شيء، وربما أظهرت عنقها وذوائب شعرها، وأقرطة آذانها، فأمر الله المؤمنات أن يستترن في هيئاتهن وأحوالهن.

هذه هي صور التبرج في الجاهلية التي عالجها القرآن الكريم، ليطهر المجتمع الإسلامي من آثارها ويبعد عنه عوامل الفتنة، ودواعي الغواية، ويرفع آدابه وتصوراته ومشاعره وذوقه كذلك».

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾.

«والإسلام وحدة تجمع الشعائر والآداب والأخلاق والتشريعات والنظم.. كلها في نطاق العقيدة، ولكل منها دور تؤديه في تحقيق هذه العقيدة، وتتناسق كلها في اتجاه واحد، ومن هذا التجمع والتناسق يقوم الكيان العام لهذا الدين، وبدونهما لا يقوم هذا الكيان.

ومن ثم كان الأمر بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الله ورسوله، هو خاتمة التوجيهات الشعورية والأخلاقية والسلوكية لأهل البيت الكريم، لأنه لا يقوم شيء من تلك التوجيهات بغير العبادة والطاعة.. وكل ذلك لحكمة وقصد وهدف.

ثم قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

وفي التعبير إيحاءات كثيرة..

فهو يسميهم «أهل البيت» بدون وصف للبيت ولا إضافة، كأنما هذا

البيت هو «البيت» الواحد في هذا العالم، المستحق لهذه الصفة، فإذا قيل «البيت» فقد عرف وحدد ووصف، ومثل هذا قيل عن الكعبة «بيت الله» فسميت: البيت، والبيت الحرام، فالتعبير عن بيت رسول الله ﷺ كذلك تكريم وتشريف واختصاص عظيم.

وهو يقول: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ وفي العبارة تلطف ببيان علة التكليف وغايته، تلطف يشي بأن الله سبحانه يُشعرهم بأنه بذاته العلية، يتولىٰ تطهيرهم وإذهاب الرجس عنهم، وهي رعاية علوية مباشرة بأهل هذا البيت.

وحين نتصور من هو القائل ـ سبحانه وتعالىٰ ـ رب هذا الكون، الذي قال للكون: كن، فكان، الله ذو الجلال والإكرام، المهيمن العزيز الجبار المتكبر.. حين نتصور من هو القائل ـ جلّ وعلا ـ ندرك مدىٰ هذا التكريم العظيم..

وأخيراً، فإنه ـ سبحانه ـ يجعل تلك الأوامر والتوجيهات وسيلة لإذهاب الرجس وتطهير البيت، فالتطهير من التطهر، وإذهاب الرجس يتم بوسائل يأخذ الناس بها أنفسهم، ويحققونها في واقع الحياة العملي، وهذا هو طريق الإسلام، شعور وتقوىٰ في الضمير، وسلوك وعمل في الحياة، يتم بهما معاً تمام الإسلام، وتتحقق بها أهدافه واتجاهاته في الحياة.

ويختم هذه التوجيهات لنساء النبي ﷺ بمثل ما بدأها به.. بتذكيرهنّ بعلو مكانتهن، وامتيازهن علىٰ النساء، بمكانهن من رسول الله ﷺ، وبما أنعم الله عليهن فجعل بيوتهن مهبط القرآن، ومنزل الحكمة، ومشرق النور والهدىٰ والإيمان.

﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾.

وإنه لحظ عظيم يكفي التذكير به، لتحس النفس جلالة قدره، ولطيف صنع الله فيه، وجزالة النعمة التي لا يعدلها نعيم.

وهذا التذكير يجيء كذلك في ختام الخطاب الذي بدأ بتخيير نساء النبي ﷺ بين متاع الحياة الدنيا وزينتها، وإيثار الله ورسوله والدار الآخرة، فتبدو جزالة النعمة التي ميزهن الله بها، وضآلة الحياة الدنيا بمتاعها كله وزينتها»[1].

* * *

كان التخيير امتحاناً واختباراً.

وقد تخطّى جميع أزواجه ﷺ هذا الامتحان بنجاح باهر.

وعندئذ أصبحن أهلاً لتلقي هذه التوجيهات التي تجعلهن لسن كأحد من النساء..

ومن ثم أهلاً لحمل شهادة «أهل البيت» التي تعني الكثير الكثير من معاني الرفعة والتكريم..

وإذا كان ﷺ هو «الأسوة» فنساؤه أيضاً هن «الأسوة» للمسلمات، ولذا فهذه التوجيهات وإن كان المخاطب بها نساء النبي ﷺ، فهي عامة مطلوبة من جميع المسلمات..

---

(١) «في ظلال القرآن» عند الآيات الكريمة.

الفصل الخامس عشر
واجب الاحترام والتقدير لأمهات المؤمنين

وَبَعْـد . .

فهؤلاء هن زوجات الرسول الكريم ﷺ ورضي عنهن.

زوجاته اللاتي اختارهن الله له وجعلهن أهلاً لهذه الخصوصية.

وهن اللاتي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة.

وهن اللاتي قال الله تعالىٰ في حقهن: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾.

وهن من آل البيت اللواتي قال الله في حقهن: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ٣٣﴾ [الأحزاب].

وهن أمهات المؤمنين.

* * *

هذا بعض ما جاء في حقهن رضي الله عنهن وهو يعطي بعض التصور عن المكانة والشرف والتقدير الذي أراد الله لهن أن يتبوّأنه.

وإذا كان الأمر كذلك، فمن واجب المسلم أن يضعهن في المكانة التي رفعهن الله إليها.

فَيُكِنُّ لهنَّ كل تقدير وتوقير واحترام، ويحفظ حقهن في الحرمة والإعظام.

قال القرطبي: «شرّف الله تعالىٰ أزواج نبيه ﷺ بأن جعلهن أمهات المؤمنين، أي في وجوب التعظيم والمبرة والإجلال، وحرمة النكاح علىٰ الرجال، وحجبهن رضي الله تعالىٰ عنهن، بخلاف الأمهات».

وقال ابن كثير في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾ أي: في الحرمة والاحترام والتوقير والإعظام.

ومما يزيد الأمر وضوحاً قوله تعالىٰ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾ حيث بيّن عظيم رعاية الرسول ﷺ للمؤمنين، حتىٰ بلغت أن يكون حرصه علىٰ ما ينفعهم أكثر من حرصهم علىٰ مصالح أنفسهم..

وجاء في المقابل قوله: ﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾ وذلك يوحي بما تعنيه الأمومة من

العطف.. ومن الأبناء من التوقير والاحترام، فكأن الأمومة هنا في مقابل «الأبوة» وقد ورد ذلك في إحدىٰ القراءات «وهو أب للمؤمنين».

قال ابن كثير: وقد روي عن أُبي بن كعب وابن عباس رضي الله عنهم أنهما قرأا: ﴿النبي أولَى بالمؤمنين مَن أنفسهم وأزواجه أُمهاتهم وهُو أب لهم﴾ وروي نحو هذا عن معاوية ومجاهد وعكرمة والحسن. اهـ.

وعلىٰ هذا فيكون مقام النبي ﷺ بما له من تقدير وتوقير وحب، في مقام الأبوة، ويكون في الطرف المقابل مقام أزواجه في مقام الأمهات وهو ما نصت عليه الآية الكريمة.. ويكون لهن بالتالي من الحب والتوقير ما يتناسب مع هذه المكانة.

* * *

وإذا كان هذا واجب التوقير والاحترام لأمهات المؤمنين، فإن التطاول عليهن أو النيل منهن أو من بعضهن أمر خطير قد يؤدي بصاحبه إلىٰ الخذلان والعياذ بالله.

فقد قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ۝٥٧﴾ [الأحزاب].

والنيل من زوجاته ﷺ إيذاء له يستحق صاحبه ما جاء في هذه الآية الكريمة.

وأما من قذف عائشة رضي الله تعالىٰ عنها بما برأها الله منه، فقد كفر لأنه كذَّب ما جاء في القرآن الكريم.

* * *

فعلىٰ المسلم أن يعرف لأمهات المؤمنين حقهن من التوقير والاحترام والتقدير رضي الله عنهن جميعاً.

خاتمة الباب

كانت تلك جولة تعرّفنا فيها علىٰ النبي الكريم باعتباره زوجاً، وهذا ما ساقنا إلىٰ الحديث عن زوجاته وحكمة تعددهن، ثم وصف بيوته التي كان يسكنها وطراز المعيشة فيها.

وتحدثنا عن شخصه الكريم زوجاً، وأنه خير الأزواج.

وتحدثنا عن عدله بين زوجاته.

ثم كان لنا وقفة مع سلوكه في بيته، فرأينا نماذج من تصرفاته.. وأنه لم يضرب واحدة منهن..

وكان الختام الحديث عن أمهات المؤمنين ومشاركتهن في الأمور العامة، وما خصهن الله به من الفضائل.

وأظن أن ما مرَّ معنا من أمثلة ووقائع، يعطي بعض التصور عما كانت عليه بيوته ﷺ..

لعل متأسٍّ يتأسّىٰ بسلوكه ﷺ.

أو متعظٍ يتّعظ ببساطة حياته ﷺ.

أو متعلمٍ يقتبس من كريم أخلاقه ﷺ.

والله الهادي إلىٰ سواء السبيل.

الباب الثاني

النبيّ ﷺ الأبُ الرحيم

كان الحديث في الباب الأول عن النبي ﷺ باعتباره الزوج الكريم، ولاستكمال صورة هذا البيت الطاهر رأيت أن أتحدث في هذا الباب عن أولاده ﷺ في فصلين:

الأول: وفيه ترجمة موجزة لكل ولد من أولاده ﷺ.

والثاني: وفيه مشاهد من سلوكه الأبوي الكريم.

والرجل عادة وفي بيته بين تعامل مع زوجته وبين تعامل مع أبنائه، ومن خلال هذين التعاملين تتكون صورة البيت.

الفصل الأول
في ذكر أولاده ﷺ

قال ابن كثير: لا خلاف أن جميع أولاده من خديجة بنت خويلد. سوىٰ إبراهيم، فمن مارية بنت شمعون القبطية[1].

وقال ابن القيم: أولهم القاسم، ثم زينب، ثم رقية وأم كلثوم وفاطمة، ثم ولد عبدالله ـ وفي زمن ولادته اختلاف ـ ثم ولد إبراهيم بالمدينة[2].

ويحسن بنا أن نذكر كلمة موجزة عن كل منهم:

❋ ❋ ❋

١ ـ القاسم ابن النبي ﷺ

هو أول ولدٍ ولد له ﷺ قبل النبوة، وبه كان يكنىٰ.

واختلف في المدة التي عاشها، وقيل إنه عاش سبعة عشر شهراً.

وهو أول من مات من ولده ﷺ.

❋ ❋ ❋

٢ ـ عبدالله ابن النبي ﷺ

قيل: مات صغيراً بمكة، وهل ولد بعد النبوة أو قبلها؟ فيه اختلاف، وصحح بعضهم أنه ولد بعد النبوة، ولذا لقب بالطيب والطاهر، وقيل: إنهما ولدان آخران، وصحح ابن القيم كونهما لقبين لعبدالله[3].

❋ ❋ ❋

(١) «البداية والنهاية» لابن كثير (٥/٣٠٦ ـ ٣٠٧).
(٢) «زاد المعاد» (١/١٠٣).
(٣) «زاد المعاد» (١/١٠٣).

٣ ـ زينب بنت النبي ﷺ

هي أكبر بناته ﷺ. قال ابن إسحاق: ولدت في سنة ثلاثين من مولد النبي ﷺ.

زوجها ﷺ من أبي العاص بن الربيع ـ ابن أخت السيدة خديجة رضي الله عنها ـ بناء علىٰ رغبة السيدة خديجة، التي كانت تعده بمنزلة ولدها، وكان من رجال مكة المعدودين: مالاً وأمانة وتجارة.

ولما أكرم الله رسوله ﷺ بالنبوة، آمنت خديجة وبناتها جميعاً، وبقي أبو العاص علىٰ شركه.

وكان ﷺ قد زوّج السيدة رقية عتبة بن أبي لهب، والسيدة أم كلثوم عتيبة ابن أبي لهب. فلما بادىٰ قريشاً بأمر الله تعالىٰ قالوا: إنكم قد فرَّغتم محمداً من همه فردوا عليه بناته فاشغلوه بهن.

فأما ولدا أبي لهب فاستجابا لهذا النداء، وفارقا زوجتيهما قبل الدخول، وزُوّج عتبةُ بنت أبان بن سعيد بن العاص، مقابل فراقه بنت رسول الله ﷺ التي أكرمها الله بإخراجها من يده.

ومشوا إلىٰ أبي العاص، فقالوا له: فارق صاحبتك، ونحن نزوجك أي امرأة من قريش شئت. فقال: لا والله، إني لا أفارق صاحبتي، وما أحب أن لي بامرأتي امرأة من قريش.

وكان رسول الله ﷺ يثني عليه خيراً.

وعاشت السيدة زينب مع زوجها. وهي مسلمة، وهو مشرك. ولم تكن الآيات نزلت بتحريم ذلك.

وهاجر ﷺ وبقيت زينب مع زوجها في مكة، فلما كانت غزوة بدر، كان أبو العاص في جملة الأسرىٰ.. وبعثت السيدة زينب في فداء زوجها بقلادة لها كانت خديجة قد أهدتها لها يوم زفافها فلما رآها رسول الله ﷺ

رقّ لها رقة شديدة، وقال: (إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها مالها فافعلوا). ففعلوا[1].

وأطلق رسول الله ﷺ سراحه، بعد أن وعده بأن يخلي سبيل زينب لتهاجر إلىٰ المدينة بعد أن فرق الإسلام بينهما. وأرسل معه زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار، وأمرهما أن ينتظرا السيدة زينب خارج مكة ببطن يأجج علىٰ الطريق إلىٰ المدينة، لكي يكونا بصحبتها.

ووفىٰ أبو العاص بوعده، فطلب من زوجته أن تتجهز للسفر إلىٰ المدينة.. وطلب إلىٰ أخيه كنانة بن الربيع أن يخرج بها إلىٰ حيث زيد وصاحبه في انتظارها، ولعله فعل ذلك حتىٰ لا يشهد وداعها، الأمر الذي ستكون ذكراه مؤلمة له.

وأخذ كنانة قوسه وكنانته ثم خرج بها نهاراً، وهي في هودج لها، وتحدث بذلك رجال من قريش. فخرجوا في طلبها، وكان أول من سبق هبار بن الأسود فروَّعها بالرمح وهي في هودجها... وبرك كنانة، ونثر كنانته ثم قال: والله لا يدنو مني رجل إلا وضعت فيه سهماً. فتراجع الناس عنه.

وجاء أبو سفيان في جلَّة من قريش فقال: أيها الرجل، كفَّ عنا نبلك حتىٰ نكلمك، فكفَّ، فأقبل أبو سفيان حتىٰ وقف عليه فقال: إنك لم تُصِبْ، خرجت بالمرأة علىٰ رؤوس الناس علانية، وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا، وما دخل علينا من محمد، فيظن الناس إذا خرجت بابنته علانية علىٰ رؤوس الناس من بين أظهرنا، أن ذلك عن ذلّ أصابنا، وأن ذلك منا ضعف ووهن، ولعمري ما لنا بحبسها عن أبيها من حاجة، وما لنا في ذلك من ثؤرة[2]. ولكن ارجع بالمرأة، حتىٰ إذا هدأت الأصوات، وتحدث الناس أن قد رددناها، فاخرج بها سراً وألحقها بأبيها. وفعل كنانة ما أشار به

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٦٩٢).

(٢) الثؤرة: طلب الثأر.

أبو سفيان[١].

ووصلت زينب إلىٰ المدينة، وعلم الرسول ﷺ بما أصابها.

وما كان ﷺ ليسكت علىٰ ما أصاب ابنته، ففي «البخاري» عن أبي هريرة قال: بعثنا رسول الله ﷺ في بعث فقال: (إن وجدتم فلاناً وفلاناً فأحرقوهما بالنار) ثم قال رسول الله ﷺ حين أردنا الخروج: (إني أمرتكم أن تحرقوا فلاناً وفلاناً، وإن النار لا يعذب بها إلا الله، فإن وجدتموهما فاقتلوهما)[٢].

وقد أوضحت الروايات الأخرىٰ عند غير البخاري ومنها رواية ابن إسحاق ـ كما عند ابن هشام ـ أن الرجلين هما هبار وصاحبه.

ومرت الأيام، وأبو العاص في مكة، بعيداً عن زوجته، لم يفكر بالزواج من غيرها، ومن يقوم مقامها جمالاً وحسباً ونسباً؟!.

فلما كان العام السادس من الهجرة، خرج أبو العاص تاجراً إلىٰ الشام ـ وكان رجلاً مأموناً ـ بمال له وأموال لرجال من قريش، فلما فرغ من تجارته وأقبل قافلاً، لقيته سرية لرسول الله ﷺ، فأصابوا ما معه، وأعجزهم هارباً، فلما قدمت السرية بما أصابوا من ماله، أقبل أبو العاص تحت الليل، حتىٰ دخل علىٰ زينب بنت رسول الله ﷺ فاستجار بها، فأجارته.

فلما خرج رسول الله إلىٰ صلاة الصبح، وكبّر، وكبّر الناس معه، صرخت زينب من صفة النساء: أيها الناس، إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع.

فلما سلّم ﷺ من الصلاة، أقبل علىٰ الناس، فقال: (أيها الناس، هل سمعتم ما سمعت؟) قالوا: نعم، قال: (أما والذي نفس محمد بيده ما علمت بشيء من ذلك حتىٰ سمعت ما سمعتم، إنه يجير علىٰ المسلمين أدناهم).

---

(١) «سيرة ابن هشام» (١/٦٥٤).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠١٦).

ثم انصرف رسول الله ﷺ فدخل على ابنته فقال: (أي بنية، أكرمي مثواه، ولا يخلصنَّ إليك، فإنك لا تحلين له).

وبعث ﷺ إلى رجال السرية الذين أصابوا مال أبي العاص فقال لهم: (إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم، وقد أصبتم له مالاً فإن تحسنوا وتردوا عليه الذي له، فإنا نحب ذلك، وإن أبيتم، فهو فيء الله الذي أفاء عليكم، فأنتم أحق به) فردوه عليه.

وعاد أبو العاص بأمواله إلى مكة، فردّ الأموال إلى أصحابها، ثم قال: هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه؟ قالوا: لا، فجزاك الله خيراً، فقد وجدناك وفياً كريماً. قال: فأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، والله ما منعني من الإسلام عنده إلا تخوف أن تظنوا أني إنما أردت أن آكل أموالكم، فلما أداها الله إليكم وفرغت منها أسلمت. ثم خرج حتى قدم المدينة.

ورد رسول الله ﷺ زينب عليه، على النكاح الأول لم يحدث شيئاً[1].

والتأم البيت الكريم مرة أخرى، ولكن هذا لم يدم طويلاً، فقد توفيت زينب رضي الله عنها في العام الثامن من الهجرة.

❋ ❋ ❋

وولدت زينب علياً وأمامة: فأما علي فقد مات بعد أمه في حياة أبيه، وقد ناهز الحلم، وكان ﷺ قد أخذه من بني غاضرة وكان مسترضعاً فيهم وأبوه مشرك بمكة. وكان رديف رسول الله ﷺ على ناقته يوم الفتح[2].

وأما أمامة فقد كانت صغيرة يوم ماتت أمها. وهي التي حملها النبي ﷺ في صلاة الصبح على عاتقه، وكان إذا ركع وضعها وإذا رفع رأسه من السجود أعادها[3].

(١) هذه الترجمة مصدرها «سيرة ابن هشام» (٦٥١/٢ ـ ٦٥٩).

(٢) «شرح الزرقاني على المواهب اللدنية» (١٩٧/٣).

(٣) متفق عليه (خ٥١٦، م٥٤٣).

وتزوجها علي ﷺ بعد موت خالتها السيدة فاطمة ﷺ، وتزوجت بعد استشهاده المغيرة بن نوفل الهاشمي، وماتت عنده، ولم تلد لعلي ولا للمغيرة.

وأما أبو العاص ﷺ فقد مات في السنة الثانية عشرة بعد أربع سنين من وفاة زوجته.

وقد أثنىٰ عليه رسول الله ﷺ خيراً. ففي «صحيح البخاري» أن رسول الله ﷺ خطب فقال: (أما بعد، فقد أنكحت أبا العاص بن الربيع فحدثني وصدقني..)[1].

***

٤ ـ رقية بنت النبي ﷺ

ولدت رقية سنة ثلاث وثلاثين من مولده ﷺ، وقد تزوجها عثمان بن عفان بمكة، بعد أن فارقها عتبة بن أبي لهب قبل الدخول بها.

وهاجرت مع زوجها الهجرتين، إلىٰ الحبشة، ثم إلىٰ المدينة، وكانت ذات جمال رائع.

وفي خبر هجرتهما إلىٰ الحبشة قال أنس ﷺ: خرج عثمان برقية بنت رسول الله ﷺ إلىٰ الحبشة، فأبطأ خبرهم، فقدمت امرأة من قريش، فقالت: يا محمد، قد رأيت ختنك ومعه امرأته، فقال: (علىٰ أية حال رأيتهما؟) قالت: رأيته حمل امرأته علىٰ حمار من هذه الدواب وهو يسوقها، فقال رسول الله ﷺ: (صحبهما الله، إن كان عثمان لأول من هاجر بأهله إلىٰ الله ﷻ بعد لوط ﷺ)[2].

وقد مرضت قبل خروج النبي ﷺ إلىٰ بدر، فخلَّف النبي ﷺ عثمان

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٢٩). وذكر ابن حجر في «شرحه» تاريخ وفاة أبي العاص.
(٢) «حياة الصحابة» للكاندهلوي (٣٤٢/١) نقلاً عن «دلائل النبوة» للبيهقي (٢٩٧/٢).

في المدينة من أجلها وقال له: (إن لك أجر رجل ممن شهد بدراً وسهمه)[1].

وتوفيت رَضِيَ اللهُ عَنْهَا في مرضها هذا، وجاء زيد بن حارثة بشيراً بالنصر ببدر، فوجدهم قد سووا قبرها.

وولدت له ابنه عبدالله وبه كان يكنى، وبلغ ست سنين ثم مات، ثم اكتنى بابنه عمرو.

* * *

٥ ـ أم كلثوم بنت النبي ﷺ

لا يعرف لأم كلثوم اسم، وإنما عرفت بكنيتها.

وقد زوّجها رسول الله ﷺ من عثمان بعد وفاة أختها رقية، وكان ذلك سنة ثلاث من الهجرة.

واستمرت عند عثمان حتى توفاها الله رَضِيَ اللهُ عَنْهَا سنة تسع من الهجرة. وصلّى عليها رسول الله ﷺ، وجلس على القبر وعيناه تذرفان ـ كما في البخاري ـ وقال: (هل فيكم أحد لم يقارف الليلة، فقال أبو طلحة: أنا، فقال: انزل قبرها فنزل)[2].

ولقب عثمان بذي النورين لزواجه من ابنتَيْ رسول الله ﷺ.

ولم تلد أم كلثوم لعثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

* * *

٦ ـ فاطمة بنت النبي ﷺ

لم يتفق على سنة ولادتها، فقال ابن الجوزي: ولدت قبل النبوة بخمس

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٩٨).

(٢) أخرجه البخاري (١٢٨٥).

سنين، وقال ابن عبدالبر: ولدت سنة إحدىٰ وأربعين من مولد النبي ﷺ[1].

وقد زوّجها النبي ﷺ من علي ﷺ، وذلك في السنة الثانية من الهجرة.

وقصة هذا الزواج بدأت بعد أن خطب أبو بكر ﷺ فاطمة ﷺ، ثم خطبها عمر ﷺ.. ولم يجبهما ﷺ.

فبلغ الأمر علياً بأن فاطمة تخطب، فذهب إلىٰ رسول الله ﷺ.

قال علي ﷺ: فلما قعدت بين يديه أفحمت، فوالله ما أستطيع أن أتكلم، فقال: ما جاء بك؟ فسكت.

فقال: (لعلك جئت تخطب فاطمة؟) قلت: نعم. قال: (وهل عندك شيء تستحلها به؟) فقلت: لا والله يا رسول الله. فقال: (ما فعلت بالدرع التي سلحتكها؟) فقلت: عندي. قال: (فأعطها إياها[2]).

فباع علي ﷺ الدرع، وجاء بثمنها إلىٰ النبي ﷺ، فأخذ النبي ﷺ بعض الثمن وأمر بلالاً أن يشتري به طيباً.. وكان نصيب المتاع ما تبقىٰ من الثمن.

وأما المتاع الذي جهزت به فاطمة ﷺ فكان عبارة عن: خميلٍ ـ وهو القطيفة البيضاء من الصوف ـ ووسادة حشوها إذخر، وقربة[3].

وتصف عائشة وأم سلمة إعداد بيت فاطمة الذي جهزت إليه، قالتا: أمرنا رسول الله ﷺ أن نجهز فاطمة حتىٰ نُدخلها علىٰ عليّ، فعمدنا إلىٰ البيت، ففرشناه تراباً ليناً من أعراض البطحاء[4]، ثم حشونا مرفقتين[5] ليفاً،

---

(١) «المواهب اللدنية» للقسطلاني (٢/٦٤).
(٢) رواه أبو داود (٢١٢٥، ٢١٢٦).
(٣) رواه النسائي (٣٣٨٤)، وابن ماجه (٤١٥٢).
(٤) أعراض البطحاء: أي جوانبها.
(٥) مرفقتين: مخدتين.

فنفشناه بأيدينا، ثم أطعمنا تمراً وزبيباً، وسقينا ماء عذباً، وعمدنا إلىٰ عود فعرضناه في جانب البيت ليلقىٰ عليه الثوب، ويعلق عليه السقاء. فما رأينا عرساً أحسن من عرس فاطمة[1].

وعلىٰ هذا الجهاز البسيط تمّ زواج بنت أكرم الخلق علىٰ الله سيدنا محمد ﷺ.

وسارت الأيام وحياة الزوجين هانئة سعيدة.. علي يعمل في السقاء بالأجر وفاطمة في أعمال البيت..

قال علي لفاطمة ذات يوم: والله لقد سنوت[2] حتىٰ لقد اشتكيت صدري، قال: وقد جاء الله أباك بسَبْيٍ فاذهبي فاستخدميه[3]، فقالت: أنا والله قد طحنت حتىٰ مجلت يدي.. فأتيا النبي ﷺ فسألاه فقال: (لا أعطيكما وأدع أهل الصفة تطوي بطونهم لا أجد ما أنفق عليهم، ولكني أبيعهم وأنفق عليهم أثمانهم)[4].

وهكذا كان لديه ﷺ سلّم للأولويات ينبغي العمل به.

❊ ❊ ❊

وسارت الأمور في بيت فاطمة هنية سعيدة، وإن كانت علىٰ شظف من العيش، فليست الرفاهية هي دائماً مصدر السعادة..

ومع مرور الأيام بدا لعلي ﷺ أن يخطب بنت أبي جهل.. فأثار ذلك حفيظة فاطمة التي كانت أحب أهل النبي ﷺ إليه، وكان يغضب لغضبها، ويرضىٰ لرضاها.. فجاءت إلىٰ النبي ﷺ تشكو إليه حالها بعد سماعها ما سمعت.

---

(١) رواه ابن ماجه (١٩١١).

(٢) سنوت: أي استقيت.

(٣) فاستخدميه: أي اطلبي منه خادماً.

(٤) رواه الإمام أحمد، «الفتح الرباني» للبنا (٤٤/٢١).

فقد أخرج الشيخان من حديث المسور بن مخرمة قال: إن علياً خطب بنت أبي جهل، فسمعت بذلك فاطمة، فأتت رسول الله ﷺ فقالت: يزعم قومك أنك لا تغضب لبناتك، وهذا علي ناكح بنت أبي جهل، فقام رسول الله ﷺ، فسمعته حين تشهّد يقول: (أما بعد، أنكحت أبا العاص بن الربيع فحدثني وصدقني، وإن فاطمة بضعة مني، وإني أكره أن يسوءها، والله لا تجتمع بنت رسول الله ﷺ وبنت عدو الله عند رجل واحد) فترك علي الخطبة.

وفي رواية لهما: (إن بني هشام بن المغيرة استأذنوا في أن ينكحوا ابنتهم علي بن أبي طالب، فلا آذن، ثم لا آذن، ثم لا آذن، إلا أن يريد ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم، فإنما هي بضعة مني، يريبني ما أرابها، ويؤذيني ما آذاها)[1].

وفاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا هي «سيدة نساء هذه الأمة» كما أخبرها بذلك ﷺ، فقد أخرج الشيخان من حديث عائشة قالت: إنا كنا أزواج النبي ﷺ عنده جميعاً، لم تغادر منا واحدة، فأقبلت فاطمة عَلَيْهَا السَّلَامُ تمشي، ولا والله ما تخفىٰ مشيتها من مشية رسول الله ﷺ، فلما رآها رحّب وقال: (مرحباً بابنتي)، ثم أجلسها عن يمينه أو عن شماله، ثم سارَّها، فبكت بكاءً شديداً، فلما رأىٰ حزنها، سارَّها الثانية، فإذا هي تضحك، فقلت لها أنا من بين نسائه: خصك رسول الله ﷺ بالسرِّ من بيننا، ثم أنت تبكين، فلما قام رسول الله ﷺ سألتها: عمَّ سارَّك؟ قالت: ما كنت لأفشي علىٰ رسول الله ﷺ سرَّه، فلما توفي قلت لها: عزمت عليك بما لي عليك من الحق لما أخبرتني، قالت: أما الآن فنعم، فأخبرتني قالت: أما حين سارني في الأمر الأول، فإنه أخبرني: أن جبريل كان يعارضه بالقرآن كل سنة مرة (وإنه قد عارضني به العام مرتين، ولا أرىٰ الأجل إلا قد اقترب، فاتقي الله واصبري، فإني نعم السلف أنا لك) قالت: فبكيت بكائي الذي رأيت، فلما رأىٰ جزعي سارني الثانية، قال: (يا فاطمة، ألا ترضين أن تكوني سيدة

---

(١) متفق عليه (خ٣٧٢٩ و٥٢٣٠، م٢٤٤٩).

نساء المؤمنين، أو سيدة نساء هذه الأمة)[1] وفي رواية للبخاري (أما ترضين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة)[2].

وتوفيت رَضِيَ اللهُ عَنْها بعد وفاة النبي ﷺ بستة أشهر.

❊ ❊ ❊

وولدت: حسناً وحسيناً، ومحسناً فمات محسن صغيراً، وأم كلثوم وزينب.

ولم يكن لرسول الله ﷺ عقب إلا من ابنته فاطمة، فانتشر نسله الشريف من جهة السبطين: الحسن والحسين فقط. ويقال للمنسوب للحسن: حَسَني، وللمنسوب للحسين: حُسَيْني.

وتزوج عمر بن الخطاب أم كلثوم بنت فاطمة فولدت له زيداً ورقية، ولم يعقبا، ثم تزوجت بعده بعون بن جعفر، ثم بعد وفاته بأخيه محمد بن جعفر، ثم مات عنها، فتزوجت بأخيهما عبدالله بن جعفر ثم ماتت عنده، ولم تلد لواحد من الثلاثة سوىٰ للثاني ابنة صغيرة فليس لها عقب.

وتزوج عبدالله بن جعفر أختها زينب بنت فاطمة. فولدت له عدة أولاد[3].

❊ ❊ ❊

٧ ـ إبراهيم ابن النبي ﷺ

ولد إبراهيم في ذي الحجة سنة ثمان من الهجرة، وأمه مارية القبطية.

أخرج مسلم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: (ولد لي الليلة غلام، فسمّيته باسم أبي، إبراهيم) ثم دفعه إلىٰ أم سيف، امرأة قين يقال له: أبو سيف[4].

---

(١) متفق عليه (خ٦٢٨٥ و٦٢٨٦، م٢٤٥٠).

(٢) رواه البخاري (٣٦٢٣، ٣٦٢٤).

(٣) «المواهب اللدنية» (٢/٦٦ ـ ٦٧).

(٤) أخرجه مسلم (٢٣١٥). والقين: الحداد.

وقد كان ﷺ ينطلق إلىٰ عوالي المدينة حيث كان بيت ظئر إبراهيم فيزوره ويقبله ثم يرجع.

أخرج مسلم عن أنس بن مالك قال: ما رأيت أحداً كان أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ. قال: كان إبراهيم مسترضعاً له في عوالي المدينة، فكان ينطلق ونحن معه، فيدخل البيت، وإنه ليدخن ـ وكان ظئره قيناً ـ فيأخذه فيقبله، ثم يرجع[1].

وفي رواية البخاري: فقبّله وشمّه[2].

ولم تطل حياة إبراهيم، فقد توفي وهو رضيع فقال ﷺ: (إن إبراهيم ابني، وإنه مات في الثدي، وإن له لظئرين تكملان رضاعه في الجنة)[3].

وتصور لنا رواية البخاري اللحظات الأخيرة من حياة إبراهيم، حيث قال أنس: ثم دخلنا عليه ـ أي إبراهيم ـ بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان، فقال له عبدالرحمٰن بن عوف ﷺ: وأنت يا رسول الله؟ فقال: (يا ابن عوف، إنها رحمة) ثم أتبعها بأخرىٰ. فقال ﷺ: (إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون)[4].

وقد كسفت الشمس يوم مات إبراهيم، فقال الناس: كسفت الشمس لموت إبراهيم، فقال ﷺ: (إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد، ولا لحياته، فإذا رأيتم فصلُّوا وادعوا الله)[5].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣١٦).
(٢) أخرجه البخاري (١٣٠٣).
(٣) أخرجه مسلم (٢٣١٦).
(٤) أخرجه البخاري (١٣٠٣).
(٥) متفق عليه (خ١٠٤٣، م٩١٥).

الفصل الثاني
النبي ﷺ الأب الرحيم

الأبوة الحانية:

من خلال العرض السابق لترجمة أولاده ﷺ تطلُّ علينا معالم الأبوة الفاضلة في شخصية النبي الكريم ﷺ.

هذه الأبوة التي تحمل في ثناياها كل معاني الرحمة والعطف والحنان، والرعاية والحب. تطل علينا من خلال واقع عملي، تعجز الكلمات عن احتواء معانيه، وبيان مراميه. فتظل رواية الوقائع هي المادة التي يستطيع الكاتب أن يضعها بين يدَي القارئ، ويترك له حرية التحليق بفكره وعقله علّه يدرك بعض ما تعنيه أو ترمي إليه.

ولعل أول مراحل التعبير عن سعادة الأب هي فرحه بقدوم مولوده، وإذا كانت العواطف ليس لها مقاييس حتى نحدد مقدار حرارتها، فإن بعض التصرفات المادية قد تكون مؤشراً على درجة تلك العاطفة.

قال ابن القيم وهو يتحدث عن إبراهيم وولادته: وبشره ـ أي النبي ﷺ ـ به أبو رافع مولاه، فوهب له عبداً[1].

كانت مكافأة البشارة عبداً، والعبد يومئذٍ قيمة كبيرة، فيها بعض التعبير عن سروره ﷺ.

وهل كان هذا المسلك منه ﷺ في حق إبراهيم خاصة؟ ما نعتقد ذلك وإنما لم يذكر شيء عن مسلكه ﷺ بشأن أولاده السابقين. لأن ولادتهم كانت بمكة، وقبل النبوة، ومن كانت ولادته بعدها كعبدالله، فإن ظروف مكة ما كانت تسمح بنقل مثل هذه المشاعر فقد كان الصحابة

---

(١) «زاد المعاد» (١/١٠٤).

في ظروف صعبة، مما لم يتح لهم أن ينقلوا لنا تصرفاته ﷺ يومئذٍ.

بل إننا نكاد نجزم بأن فرحه بأولاده الآخرين ربما كان أكثر من ذلك، فأمهم هي خديجة رضي الله عنها أحب زوجاته إليه ﷺ، بينما أم إبراهيم هي سريته مارية.

وقد كان ﷺ شغوفاً بهم في صغرهم فها هو ـ كما رأينا ـ يذهب إلىٰ العوالي ـ والعوالي علىٰ بُعد ثلاثة أميال من المدينة ـ ليزور ابنه إبراهيم فيقبّله ويشمه ثم يعود.

وينقل لنا أبو هريرة رضي الله عنه موقفاً من هذه المواقف فيقول: خرج النبي ﷺ في طائفة النهار، لا يكلمني ولا أكلمه، حتىٰ أتىٰ سوق بني قينقاع، فجلس بفناء بيت فاطمة، فقال: (أثَمَّ لُكَعُ، أثَمَّ لُكَعُ) فحبسته شيئاً، فظننت أنها تلبسه سخاباً، أو تغسله، فجاء يشتد حتىٰ عانقه وقبّله وقال: (اللهم أحبَّه وأحبَّ من يحبه)[1].

وهكذا يذهب ﷺ إلىٰ بيت فاطمة ليس له قصد سوىٰ تقبيل الحسن ومعانقته.

وقد كان هذا مسلكه ﷺ في مجالسه الخاصة والعامة، فقد قبّل يوماً الحسن بن علي والأقرع بن حابس التميمي جالس عنده، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبّلت منهم أحداً. فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: (مَن لا يَرحم لا يُرحم)[2].

وجاء أعرابي إلىٰ النبي ﷺ فقال: تقبلون الصبيان؟ فما نقبلهم. فقال النبي ﷺ: (أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة)[3].

إن حب الأولاد وتقبيلهم مؤشر علىٰ وجود الرحمة في القلوب.

---

(١) متفق عليه (خ٢١٢٢، م٢٤٢١). والمراد بلكع هنا: الصغير. والسخاب: قلادة من القرنفل ونحوه.
(٢) متفق عليه (خ٥٩٩٧، م٢٣١٨).
(٣) متفق عليه (خ٥٩٩٨، م٢٣١٧).

والطفل يحب المداعبة. وهي ضرورية لاستكمال بنائه النفسي والجسمي.. وهذا البراء ينقل لنا صورة من صور الكمال الإنساني فيقول: رأيت النبي ﷺ والحسن بن علي على عاتقه[١].

ودخل الحسن المسجد والنبي ﷺ يصلي .وقد سجد، فركب على ظهره، فأبطأ في سجوده حتى نزل الحسن، فلما فرغ قال له بعض أصحابه: يا رسول الله، قد أطلت سجودك. قال: (إن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله)[٢].

تلك صور من صور التعامل مع الأولاد سجلتها السنة المطهرة لتكون السبيل الذي يسير المسلمون فيه متتبعين آثار الخطى الكريمة.

وكان ﷺ يكرم بناته. وكان إذا دخلت عليه ابنته فاطمة يقوم لها ويقبلها، ويُجلسها عن يمينه، وربما بسط لها ثوبه.

وكان يحزن لحزنهن، فعن أسامة بن زيد قال: أرسلت ابنة النبي ﷺ إليه: إن ابناً لي قبض فائتنا. فأرسل يقرئ السلام ويقول: (إن لله ما أخذ وله ما أعطى، وكلٌ عنده بأجل مسمى، فلتصبر ولتحتسب) فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينها، فقام ومعه: سعد بن عبادة، ومعاذ بن جبل، وأُبي بن كعب، وزيد بن ثابت، ورجال، فرفع إلى رسول الله ﷺ الصبي، ونفسه تتقعقع، قال: حسبته أنه قال: كأنها شن، ففاضت عيناه، فقال سعد: يا رسول الله، ما هذا؟ فقال: (هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء)[٣].

كما كان يرحم المريض منهم ويهتم لمرضه، وقد رأينا كيف خلَّف عثمان عن غزوة بدر ليكون عند رقية في مرضها.

---

(١) متفق عليه (خ٣٧٤٩، م٢٤٢٢).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٣/٤٩٤)، وكذا النسائي (١١٤٠).

(٣) متفق عليه (خ١٢٨٤، م٩٢٣).

ومع كل هذا الحب وهذا العطف، فإنها ما كانت تأخذه العواطف في تنفيذ الأولويات، وقد رأينا كيف لم يلبِّ طلب فاطمة ﵂ يوم جاءت تطلب خادماً من السبي بتشجيع من علي ﵁ فقال ﷺ: (والله لا أعطيكما وأدع أهل الصفة تطوي بطونهم..)(١).

وحتىٰ الصغار لا تهاون معهم في تطبيق أوامر الله. فهذا الحسن والحسين ﵄ كانا يلعبان بتمر الصدقة، فأخذ أحدهما تمرة فجعلها في فيه، فقال له النبي ﷺ: (كخ كخ).. فأخرجها من فيه، ثم قال: (أما علمت أن آل محمد ﷺ لا يأكلون الصدقة)(٢).

إنها تربية الانضباط مع أوامر الشرع..

لا فرق بين ذكر وأنثىٰ:

قامت الحياة الجاهلية علىٰ تقديم الذكر علىٰ الأنثىٰ، والفرح بالمولود إذا كان ذكراً وبالحزن والأسىٰ إذا كان أنثىٰ، وقد سجل القرآن هذا السلوك الذي ساد فيهم فقال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِي التُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النحل].

وجاء الإسلام ليصحح المسار، ويعتني بالأنثىٰ عنايته بالذكر، وليقول إن المولود هبة من الله تعالىٰ، فينبغي للمسلم أن يفرح بهذه الهبة ناظراً إلىٰ مهديها. فإنه سبحانه ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذُّكُورَ﴾ [الشورىٰ: ٤٩] ومَن لم يكن كذلك فليراجع حساب إيمانه.

ولم يكبر أولاد النبي ﷺ من الذكور، حتىٰ نقارن بين سلوكه إزاء الذكور وسلوكه إزاء الإناث، ولكنا رأينا في مسلكه ﷺ تجاه بناته من الاحترام والتوقير والحب ما لا مزيد عليه، فهو يقوم لهن ويستقبلهن،

---

(١) انظر تفصيل ذلك في كتاب «من معين السيرة» للمؤلف، (ص٢٢٦).

(٢) متفق عليه (خ١٤٨٥ و١٤٩١، م١٠٦٩).

ويفرح لفرحهن ويحزن لحزنهن، الأمر الذي يجعلنا علىٰ يقين من أنه لو كان كبر أولاده الذكور لم يكن لهم أكثر من ذلك.

ولئن كان أولاد ابنته فاطمة يدخلون المسجد فيعتلون ظهره، فيطيل السجود لأجل ذلك، فلقد رآه المسلمون جميعاً وهو يؤمهم حاملاً ابنة بنته زينب، أمامة بنت أبي العاص بن الربيع، فإذا سجد وضعها، وإذا قام حملها[1].

وتبين لنا عائشة رضي الله عنها مكانة أمامة هذه عند رسول الله ﷺ فتقول: أهدي لرسول الله ﷺ قلادة من جزع ملمعة بالذهب، فقال: (والله لأضعنَّها في رقبة أحب أهل البيت إليّ) وأقبل بها حتىٰ وضعها في رقبة أمامة بنت أبي العاص[2].

وهكذا يأخذ أولاد بناته مكانتهم من نفس رسول الله ﷺ ذكوراً وإناثاً ويشملهم جميعاً بعطفه وحبه وحنانه.

اختيار الزوج المناسب للبنت:

أخرج النسائي عن بريدة قال: «خطب أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فاطمة، فقال رسول الله ﷺ: (إنها صغيرة) فخطبها علي فزوّجها منه»[3].

وسياق هذا الحديث والأحاديث الأخرىٰ في الموضوع تؤكد أن علياً خطبها إثر خطبة أبي بكر وعمر ﷺ جميعاً، فلم يكن هناك فاصل زمني.

فقوله ﷺ: (إنها صغيرة) لا يعني أنها ليست أهلاً للزواج، وإنما هي صغيرة باعتبار فارق السن بينها وبين أبي بكر، وبينها وبين عمر رضي الله عنهما.

---

(١) متفق عليه (خ٥١٦، م٥٤٣).

(٢) «مجمع الزوائد» (٩/٢٥٤) وقال الهيثمي: رواه الطبراني واللفظ له، وأحمد باختصار وأبو يعلىٰ، وإسناد أحمد وأبي يعلىٰ حسن.

(٣) أخرجه النسائي (٣٢٢١).

ولما تقدم علي، ولم يكن قد زاد عمرها شيئاً يذكر، وافق علىٰ خطبتها له، ذلك لما بينهما من تقارب في السنّ.

وفي هذه القضية من هديه ما فيها، فتلك مصلحة من مصالح البنت ينبغي علىٰ الأب مراعاتها، والسعي لتحقيقها.

ومن العجيب حقاً، أن كثيراً من الناس يدللون لزواج الطاعن في السن بالصغيرة بفعله ﷺ حين تزوج عائشة، وينسون فعله حين زوج فاطمة.

وهذا فعله، وهذا فعله، فلمَ يذكرون دائماً فعلاً واحداً وينسون الآخر تماماً وكأنه لا وجود له؟

إن كثيراً من ملابسات زواجه ﷺ بعائشة، تكاد تجعل هذا الزواج خصوصية من خصوصياته، وقد سبق الحديث عن ذلك.

وهكذا يسن ﷺ للآباء جميعاً أمر الاهتمام بشؤون بناتهن واختيار الأصلح مراعياً في ذلك الجانب الدنيوي والأخروي جميعاً.

رعاية البنات بعد الزواج:

ليس معنىٰ أن يزوج الرجل ابنته، أن تنقطع الصلة بينها وبينه بعد ذلك، ويتركها لمصيرها الذي آلت إليه، فيجهل كل شيء عنها.

فرعايتها بعد الزواج ضرورية كما هي قبله، ولقد رأينا رسول الله ﷺ كثيراً ما يزور بناته. وهذه الزيارات تطمئنه علىٰ أوضاعهن.

والذي نتوقف عنده في هذا الصدد، هو تصريحه ﷺ أن ما يؤذي بنته يؤذيه ولم يكن بقي يومئذٍ غير فاطمة رضي الله عنها.

وقد سبق ذكر ذلك عند الحديث عن فاطمة رضي الله عنها.

فهو ﷺ يستاء لما أحزن ابنته، ولا يجعل الأمر بينه وبين علي، ولكنه يعلنه علىٰ المنبر ليعرف الناس كلهم ذلك.

إنه تعليم للجميع لمعنىٰ الرعاية الأبوية، وأن واجب الأب أن يسعىٰ لما فيه صلاح أبنائه، كباراً وصغاراً.

وما ثناؤه ﷺ علىٰ أبي العاص، إلا لما علمه من حسن الرعاية منه لابنته، وكيف أنه لم يفكر بالزواج علىٰ الرغم من بعده عن زوجته حين أرسلها إلىٰ النبي ﷺ في المدينة، وبقي هو في مكة[1].

إنه من واجب كل أب أن يتأسىٰ بفعل رسول الله ﷺ من رعايته بناته وتفقد أحوالهن، والإحسان إليهن.

والملاحظة التي نحب أن نسجلها في هذا المقام: أن جميع بنات الرسول ﷺ لم يتزوج عليهن أزواجهن، وربما كان ذلك من التكريم لهن، واحتراماً لرغبة في نفس رسول الله ﷺ كما سبق إيضاحه في قصة خطوبة علي ﷺ.

العدل بين الأولاد:

إن إقامة العدل والقسط في الحياة، هي أولىٰ المهمات التي كلف بها الرسل عليهم الصلاة والسلام، وقد سجل القرآن الكريم هذا الأمر بوضوح كامل في قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

وفي مقدمة هؤلاء الرسل الكرام نبينا محمد ﷺ الذي أرسىٰ دعائم الحق في كل ميادين الحياة.. ومن جملة ذلك عدله ﷺ بين أولاده.

وبما أنه لم يكبر من أولاده الذكور أحد فلم يكن هناك ما ينقل لنا عن هذا الجانب، أما أولاده من البنات فلا شك بأنه ﷺ كان يعدل بينهن، وما

---

(١) قال ابن حجر في شرح (حدثني فصدقني) ـ أي أبو العاص ـ: «لعله كان شرط علىٰ نفسه أن لا يتزوج علىٰ زينب، وكذلك علي، فإن لم يكن كذلك فهو محمول علىٰ أن علياً نسي ذلك الشرط، فلذلك أقدم علىٰ الخطبة..» «فتح الباري» (٨٦/٧). والذي يبدو أن صدقه بوفائه بوعده بإرسال زينب، وربما عبّر بالصدق عن حسن المعاملة والاستقامة فيها، والله أعلم.

كان ﷺ ليأمر الناس بالأمر ثم لا يطبقه في ذات نفسه وفي أسرته، حاشاه من ذلك.

قال النعمان بن بشير ﷺ: أتىٰ أبي إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: إني أعطيت ابني ـ من عمرة بنت رواحة ـ عطية، وإن أمه طلبت مني أن أشهدك علىٰ ذلك يا رسول الله.

فقال رسول الله ﷺ: (ألك ولد سواه؟). قال: نعم.

قال: (أكلَّ ولدك أعطيته مثل هذا؟). قال: لا.

قال: (فلا تشهدني إذاً، فإني لا أشهد علىٰ جور، فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم).

وقال ﷺ: (أَيَسُرُّكَ أن يكونوا إليك في البر سوء؟). قال: بلىٰ.

قال: (فلا إذاً). قال النعمان: فرجع أبي فردَّ عطيته[1].

وهكذا يتقرر من خلال هذه الواقعة أن تمييز بعض الأولاد علىٰ بعض يعد من الجور والظلم، الذي جاء الإسلام ليخلص الناس منه.

ولا يكتفي ﷺ بذلك، بل يلفت النظر إلىٰ الآثار المترتبة علىٰ ذلك من خلل وفساد في بنية الأسرة، فالوالد عندما يقدم بعض أولاده، فإن الفريق الآخر سيخبو في نفوسهم الحب والاحترام والتقدير تجاه هذا الوالد، وهنا سيبدأ الجفاء بين الفريقين كامناً داخل النفوس، ثم يستفحل ويكبر كلما تمادىٰ الوالد بهذا التفضيل.

وهذا ما أوضحه ﷺ بقوله: (أيسرُّك أن يكونوا إليك في البر سواء؟) فحتىٰ يكونوا كذلك فلا بد من إشعارهم بأنهم سواء، ومن تحققهم أنهم أمام معاملة يتساوىٰ فيها الجميع.

وإذا كانت الغاية (أن يكونوا في البر سواء) فلا يكتفىٰ أن يكون العدل

---

(١) رواه البخاري (٢٥٨٦،٢٦٥٠)، ومسلم (١٦٢٣).

قائماً بين الأولاد في الجانب المادي فحسب، بل ينبغي أن يكون كذلك ـ أيضاً ـ في الجانب المعنوي.

فتكون الابتسامات موجهة لهم علىٰ قدم المساواة، وكذلك الكلمات الطيبة..

وإذا كان لبعض الأولاد في نفس الوالد بعض المنزلة التي ليست لغيره لسبب من الأسباب، فينبغي علىٰ الوالد أن لا يبدي ذلك.

وعندما يجافي أحدهم لانحراف أو خطأ فيحسن أن يبين له ذلك...

إن قضية العدل بين الأولاد مما أمر به النبي ﷺ إحقاقاً للحق، وحفاظاً علىٰ وحدة الأسرة وترابطها، واستدامة الحب والتعاطف بين أفرادها.

احترام الأولاد وتقديرهم:

أخرج أبو داود والترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما رأيت أحداً أشبه سمتاً وهدياً برسول الله ﷺ من فاطمة ابنته رضي الله عنها».

قالت: «وكانت إذا دخلت علىٰ النبي ﷺ قام إليها، فقبّلها وأجلسها في مجلسه، وكان النبي ﷺ إذا دخل قامت من مجلسها فقبّلته وأجلسته في مجلسها»(١).

هذه الصورة التي تنقلها السيدة عائشة رضي الله عنها عن سلوكه ﷺ تجاه ابنته عندما تدخل عليه زائرة تبين مدىٰ الحفاوة والإكرام الذين تستقبل بهما من قِبَل والدها ﷺ.

إنه درس ـ وأي درس ـ في التعامل مع الأبناء وكيفية تربيتهم، وأن مقام «الأبوة» لا يمنع من احترام الأبناء علىٰ قدم المساواة مع احترام الآخرين وهذا مما يرفع من حرارة الاحترام والتقدير للأب في نفوس الأبناء.

إنها صورة تستقر في نفس القارئ لهذا الخبر، وتأخذ أبعادها فيها،

(١) رواه أبو داود (٥٢١٧)، والترمذي (٣٨٧٢).

لوحة فريدة، تعجز الكلمات عن وصفها، ومتىٰ كانت الكلمات قادرة علىٰ وصف الألوان وتمازجها وتناسقها أو وصف درجة الحرارة في المشهد وحيويته؟

إنها صورة من السلوك النبوي الكريم الذي لا يوفيه حقه إلا شهادة العليم الخبير الذي قال في حقه ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم].

الباب الثالث

فقه التأسي به ﷺ في بنيه

الفصل الأول
نماذج من التاسي به ﷺ في شان بيته

إن سيرة النبي ﷺ في بيته، تعدّ ميداناً فسيحاً تعرض فيه أنماط السلوك المستقيم في الحالات المتنوعة.

وكل مسلم يجد فيها الأمر الذي ينبغي عليه أن يتأسىٰ بالنبي ﷺ فيه:

فالمسلم الذي اكتفىٰ بزوجة واحدة، يجد في زواج النبي ﷺ من خديجة رضي الله عنها ما يتأسىٰ به.. من حسن معاملته ﷺ لها، واكتفائه بها، وعدم الزواج عليها علىٰ الرغم من تقدمها في السن عليه.

وإذا اضطر إلىٰ الزوجة الثانية، فليقرأ بإمعان مسألة عدله ﷺ بين أزواجه، وصبره علىٰ غيرتهن واحتمال ذلك، وتوطين النفس عليه.

وإذا قدّر عليه موت الأولاد صغاراً، فإنه يجد في سيرته ﷺ من السلوىٰ ما يساعده علىٰ الصبر.

وإذا كانت ذريته من البنات فليفرح أنه كان له به ﷺ أسوة، حيث كانت ذريته التي قدّر لها أن تعيش من البنات. فليحسن معاملتهن وليتصور فاطمة رضي الله عنها عندما كانت تدخل علىٰ والدها ﷺ كيف كان يقوم لاستقبالها وإكرامها..

وإذا توفيت زوجته فليكن له أسوة في وفائه ﷺ لخديجة، حيث كان يذكرها دائماً بخير.. ويكرم من يلوذ بها..

وإذا انفعل في يوم من الأيام وأخذ الغضب منه مأخذه فليتذكر أنه ﷺ ما ضرب بيده شيئاً قط لا امرأة.. ولا خادماً..

وإذا ضاق به العيش، وتقطعت به السبل فلينظر في صبره ﷺ علىٰ مثل هذه الحال فسيكون له بذلك سلوىٰ.

وإذا كثرت أمواله وتضخمت ثروته وتطاول بنيانه.. وصاحب ذلك كبر

في النفس وتعالٍ على عباد الله.. فليقرأ وصف الحجرات التي سكنها ﷺ لعله يرجع إلى الصواب.. ويضع الفضول في مواضعها.

وإذا جاء إلى أهله فوجد زوجته وقد تراكمت عليها الأعمال بسبب الاشتغال بالأبناء الصغار.. أو أي أمر آخر.. فليمد يده لمساعدتها تأسياً بالمصطفى ﷺ الذي كانت سيرته.. أنه كان يكون في مهنة أهله.

وإذا كان في قلبه قساوة فلينظر في حسن معاملته ﷺ لأهله.. وعطفه على الصغار من أبناء بناته.. فالراحمون يرحمهم الرحمٰن.

تلك نماذج لما يمكن التأسي به.. من سيرته ﷺ في بيته، وغيرها كثير..

الفصل الثاني
تأسي بيت القيادة في الأمة به ﷺ

لعل أهم وأعظم ما أفاده المسلمون من التأسي به ﷺ في بيته وفي معيشته، هو ما فهمه الخلفاء الراشدون، وفي مقدمتهم الصديق ﷺ: من أن قصة التخيير الواردة في القرآن الكريم لم تكن قصة عابرة، وإنما تعني أن هذا الوضع الذي اختاره الله تعالىٰ لنبيه ﷺ، هو الوضع الذي ينبغي أن يكون عليه الخليفة في معيشته حتىٰ تستقيم الأمور في الأمة.

وهذا يعني أن الخليفة ينبغي له أن يلتزم تلك الحال التي كان عليها ﷺ حتىٰ تستقيم الأمور، وهذا ما أسميته «الفقر الملْتَزَم»[١].

ولا بد من بيان ذلك بشيء من التفصيل.

* * *

- ١ -

عن سالم بن عبدالله قال: لما ولي عمر ﷺ، قعد علىٰ رزق[٢] أبي بكر ﷺ الذي كانوا فرضوا له، فكان علىٰ ذلك، فاشتدت به الحاجة.

فاجتمع نفر من المهاجرين، منهم: عثمان وعلي وطلحة والزبير ﷺ، فقال الزبير: لو قلنا لعمر في زيادة نزيدها إياه في رزقه، فقال علي: وددنا أنه قبل ذلك.. فانطلقوا بنا إليه، فقال عثمان: إنه عمر! فهلموا.. فلنسأل حفصة ونستكتمها.

---

(١) «الفقر الملتَزَم» مصطلح وضعته لقصة التخيير وما ترتب عليها من فقه مما سنجده في هذا الفصل، وقد سبق بحث بعض ذلك في كتاب «من معين السيرة» وكتاب «هكذا نهم الصحابة».

(٢) قعد علىٰ رزق أبي بكر: أي تسلم الخلافة علىٰ أن يكون له الراتب نفسه الذي كان يأخذه أبو بكر.

فدخلوا عليها، وطلبوا منها: أن تخبر عمر بالخبر عن نفر، ولا تسمّي له أحداً، إلا أن يقبل.. وخرجوا من عندها.

فلقيت حفصة أم المؤمنين عمر في ذلك، فعرفت الغضب في وجهه.

قال: مَن هؤلاء؟

قالت: لا سبيل إلىٰ علمهم، حتىٰ أعلم رأيك.

قال: لو علمت من هم لسوَّدت وجوههم، أنت بيني وبينهم، أنشدك بالله، ما أفضل ما اقتنىٰ رسول الله ﷺ في بيتك من الملبس؟

قالت: ثوبين ممشقين[1]، كان يلبسهما للوفد ويخطب فيهما للجمع.

قال: فأي الطعام ناله عندك أرفع؟

قالت: خبزنا خبزة شعير فصببنا عليها وهي حارة أسفل عكة لنا، فجعلناها هشة دسمة، فأكل منها.

قال: فأي مبسط كان يبسط عندك كان أوطأ؟

قالت: كساء لنا ثخين، كنا نربعه في الصيف فنجعله تخيناً، فإذا كان الشتاء بسطنا نصفه، وتدثرنا بنصفه.

قال: يا حفصة! فأبلغيهم عني، أن رسول الله ﷺ قدر فوضع الفضول مواضعها، وتبلغ بالتزجية[2]، وإني قدرت، فوالله لأضعن الفضول مواضعها، لأتبلغن بالتزجية، وإنما مثلي ومثل صاحبي كثلاثة سلكوا طريقاً، فمضىٰ الأول، وقد تزوّد زاداً فبلغ، ثم اتبعه الآخر فسلك طريقه فأفضىٰ إليه، ثم اتبعه الثالث، فإن لزم طريقهما ورضي بزادهما لحق بهما، وكان معهما، وإن سلك غير طريقهما لم يجامعهما[3].

* * *

---

(١) ممشقين: مصبوغين بمشق.

(٢) التزجية: الاكتفاء.

(٣) «حياة الصحابة» للكاندهلوي. الباب الثامن (٨٩٦/٢).

تلك هي الكلمات التي لخص فيها ﷺ منهجه في عيشه.

إنه مسلك التزمه عن فقه في دين الله، كشفته بصيرته النافذة، ومهّد السبيل له تلك الصحبة والمعايشة للرسول الكريم ﷺ.

تعرَّف على هذا المسلك من خلال تطبيق عملي، رآه ببصره، ووعاه بقلبه.. فالتزم السير على طريق «الأسوة الحسنة» مبتغياً بذلك وجه الله تعالى.

فلقد رأى رسول الله ﷺ في بدء الهجرة ـ والمسلمون في شدة وضنك ـ فكان ﷺ واحداً منهم.. ثم رآه في آخر حياته ﷺ على تلك الحالة، على الرغم من التحسن المادي الكبير الذي طرأ على حياة المسلمين.

لقد فتحت خيبر.. وفتحت بعدها فدك، وكانت فيئاً خالصاً له ﷺ.. وها هو في العام الثامن من الهجرة يوزع غنائم هوازن.. وها هو في العام التاسع يجيز الوفود المتعددة، ويمنحهم الصلات العظيمة.. ومع ذلك ظل الوضع في أبياته على ما هو عليه.

❋ ❋ ❋

ولهذا السبب كانت مطالبة أمهات المؤمنين بالتوسيع بالنفقة.. ثم أنزل الله تعالى آية التخيير، وقد سبق الحديث عن ذلك..

وكان عمر ﷺ قد عاش حادثة التخيير بكل أبعادها.. وأخذت مكانها من قلبه وفكره..

وتواردت الحوادث على فكره متزاحمة، ومن جملة ما توارد على فكره: أن رسول الله ﷺ دخل على فاطمة فوجد في يدها سلسلة من ذهب، كان أهداها إليها علي، فقال: (يا فاطمة، بالعدل أن يقول الناس: فاطمة بنت محمد، وفي يدك سلسلة من نار)؟ ثم عزمها[1] عزماً شديداً، ثم خرج ولم يقعد.

---

(١) عزمها: أي لامها.

فأمرت فاطمة بالسلسلة فبيعت، واشترت بثمنها عبداً فأعتقته، فلما سمع بذلك النبي ﷺ كبّر، وقال: (الحمد لله الذي نجّىٰ فاطمة من النار)[1].

وتذكَّرَ أن رسول الله ﷺ كان يمنع أهله الحلية والحرير، ويقول: (إن كنتم تحبون حلية الجنة وحريرها فلا تلبسوها في الدنيا)[2].

وهكذا لم يكن شظف العيش قاصراً علىٰ أبيات أزواجه ﷺ، بل إنه تناول ابنته أيضاً.. وهؤلاء هم آل بيت النبوة.

* * *

وفكر عمر في كل هذه الحوادث، وغيرها كثير... فاستقر في وعيه أن تأكيده ﷺ علىٰ هذا المسلك كان مقصوداً، ولم يكن ناتجاً عن أحوال اضطرارية ألجأت إليه، فما كان هناك ما يدعو إلىٰ ذلك.

إن كل عمله ﷺ كان سنة للناس من بعده، ما لم يكن أمراً خاصاً به ﷺ، ولم يرد أن هذا المسلك في التزام الفقر كان أمراً خاصاً به. وقد جاء قوله تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب] ليجعل منه ﷺ أسوة، وهذه الأسوة في كل الميادين، وعلىٰ المسلم أن يتأسىٰ به في الميدان الذي يمارسه في حياته العملية.

وقد رأىٰ عمر في مسلكه ﷺ في التزام الفقر أمراً سنّه ﷺ لقائد الأمة، ولذا لم يطلب ﷺ من أصحابه أن يسلكوا هذا المسلك... ولقد تأكد لعمر هذا الفهم بنهيه ﷺ فاطمة عن لبس الذهب وهو الذي يقول في الحرير والذهب: (حُرِّم لباس الحرير والذهب علىٰ ذكور أمتي وأُحِلَّ لإناثهم)[3]. وإذن فهو لم يرضَ لها ذلك باعتبارها بنت رسول الله قائد هذه الأمة.

---

(١) «الفتح الرباني» (١٧/٢٦٠).

(٢) أخرجه النسائي (٥١٥١).

(٣) أخرجه الترمذي (١٧٢٠)، والنسائي (٥١٦٣، ٥٢٨٠).

وعندما طلب علي وفاطمة الخادم، إنما كانا يطلبانه من نصيب رسول الله ﷺ من الخمس، وليس من أموال المسلمين، ومع ذلك لم يلبِّ طلبهما.

وعندما كانت قضية أمهات المؤمنين بشأن مطالبتهن بالنفقة، لم يأمره تعالىٰ بالتوسيع عليهن، في الوقت الذي كان قادراً فيه علىٰ التوسيع من نصيبه من الفيء... وإنم أمرهن تعالىٰ - إن كن يردن الله ورسوله والدار الآخرة - أن يلتزمن بمسلكه ﷺ.

كل هذه كانت مؤشرات، فَهِمَ منها عمر أن التزام الفقر سنة في حق قائد الأمة الذي يتولىٰ منصب الخلافة، وهو منصب واحد في الدولة.

وكما أن من واجب كل قاض أن يتأسىٰ به ﷺ في عدله، ومن واجب كل زوج أن يتأسىٰ به في حسن معاملته لأهله، ومن واجب كل فرد أن يتأسىٰ به في طاعته لله ﷻ، ومن واجب كل مربٍ أن يتأسىٰ به في حسن تربيته... و... و... فمن واجب كل من تولىٰ منصب الخلافة في الأمة أن يتأسىٰ به في «التزام الفقر» وطرح الدنيا من حسابه... وفطم نفسه وأهله عنها...

إن قيادة الأمة وتولي شؤونها عمل كبير، ومسؤوليته عند الله أكبر. وعلىٰ من أنيط به هذا العمل أن يكون لديه من رصيد العقيدة والإيمان. ومن العفة والأمانة، ما يتمكن به من مقاومة الإغراء، والسيطرة علىٰ أهواء النفس، واضعاً نصب عينيه في كل وقت موقفه للحساب بين يدَيْ الله تعالىٰ... فهي منصب لمن أراد الآخرة وسعىٰ لها سعيها.

هذا ما فهمه عمر بن الخطاب ﷺ من التزامه ﷺ بالفقر.

* * *

ولقد أكد في نفسه هذا الفهم سيرة أبي بكر ﷺ إبان خلافته...

كان أبو بكر في جاهليته وإسلامه رجلاً تاجراً، يسَّرَ الله له من التجارة المال الكثير، ولم يعش عيشة الفقراء في حياته قط، إلا في وقت الأزمات التي كانت تعم المسلمين نتيجة لضغط الكفر... ولقد كان بيتَ مال المسلمين المتحرك إلىٰ جانب الرسول ﷺ...

وآلت إليه الخلافة... فكيف كانت معيشته؟

ونترك الجواب لعائشة، فقد نقلت لنا في الحديث الذي قاله والدها في مرض موته ما يكشف لنا عن تلك المعيشة بأبلغ كلام...

قالت عائشة: قال أبو بكر: «أمَا إنا منذ ولينا أمر المسلمين، لم نأكل لهم ديناراً ولا درهماً، ولكنا قد أكلنا من جريش[1] طعامهم في بطوننا، ولبسنا من خشن ثيابهم على ظهورنا. وليس عندنا من فيء المسلمين قليل ولا كثير، إلا هذا العبد الحبشي، وهذا البعير الناضح، وجرد[2] هذه القطيفة، فإذا مت فابعثي بهن إلى عمر، وابرئي منهن».

ففعلت.

فلما جاء الرسول عمرَ بكى حتى جعلت دموعه تسيل في الأرض، وجعل يقول: «رحم الله أبا بكر لقد أتعب من بعده، رحم الله أبا بكر لقد أتعب من بعده، يا غلام ارفعهن..»[3].

تلك هي سيرة أبي بكر في معيشته، إبان خلافته، الخشن من الطعام، والخشن من الثياب.. وليس من خلاف في أنه ﷺ كان أكثر الصحابة فهماً عن رسول الله واستمساكاً بهديه ﷺ.

ولم ينسَ عمر وصية أبي بكر وقد عهد إليه بالخلافة إذ قال:

«.. فإن أنت وليت عليهم أمرهم، فإن استطعت أن تجف يدك عن دمائهم، وأن تضمر بطنك من أموالهم، وأن تجف لسانك من أعراضهم فافعل ولا قوة إلا بالله..»[4].

* * *

كانت تلك المشاهد من عمرَ لرسول الله ﷺ وصاحبه عوامل الفقه الدقيق في دين الله تعالى. وقد لخص هذا الفقه بقوله السابق لحفصة:

---

(١) الخشن، وجراشة الشيء ما سقط منه جريشاً إذا أخذ ما دقّ منه.

(٢) انجرد الثوب: أي انسحق.

(٣) «طبقات ابن سعد» (١٩٦/٣).

(٤) «كنز العمال» (٦٧٧/٥ ح١٤١٧٦).

«يا حفصة.. وإنما مثلي ومثل صاحبي كثلاثة سلكوا طريقاً، فمضىٰ الأول، وقد تزوّد زاداً فبلغ، ثم اتبعه الآخر فسلك طريقه، فأفضىٰ إليه، ثم اتبعه الثالث، فإن لزم طريقهما ورضي بزادهما لحق بهما، وكان معهما، وإن سلك غير طريقهما لم يجامعهما».

إذن: فطريق «التزام الفقر» وفطم النفس عن الدنيا هو بعض معالم الطريق التي ينبغي أن يسير عليها قائد الأمة، ليضمن لنفسه الآخرة.. ويضمن لأمة المسلمين دنياهم، ويساعدهم علىٰ ضمان آخرتهم.

عليه أن يفتقر ليؤمن للناس الغنىٰ، وتلك ضريبة المسؤولية العظيمة.. أن يعيش الإنسان المؤمن من أجل غيره لا من أجل نفسه..

***

وهكذا كان عمر..

عن عكرمة بن خالد: أن حفصة وابن مطيع وعبدالله بن عمر كلموا عمر بن الخطاب فقالوا: لو أكلت طعاماً طيباً كان أقوىٰ لك علىٰ الحق، فقال: قد علمت أنه ليس منكم إلا ناصح، ولكني تركت صاحبيّ - يعني: رسول الله وأبا بكر - علىٰ جادة، فإن تركت جادتهما لم أدركهما في المنزل[1].

وقال ابن عمر: كان عمر يكتسي الحلة في الصيف، ولربما خرق الإزار حتىٰ يرقعه، فما يبدل مكانه حتىٰ يأتي الإبّان[2]، وما من عام يكثر فيه المال إلا كسوته فيما أرىٰ أدنىٰ من العام الماضي. فكلمته في ذلك حفصة فقال: إنما أكتسي من مال المسلمين وهذا يبلغني[3].

وعن الزهري، أن مالك بن أوس حدثه. قال: أرسل إلي عمر بن

---

(١) «كنز العمال» (١٢/٥٥٦ ح٣٥٧٥١).

(٢) أي: موعد العطاء.

(٣) «كنز العمال» (١٢/٥٦٢ ح٣٥٧٨١) نقلاً عن ابن سعد.

الخطاب، فجئته حين تعالىٰ النهار، قال: فوجدته في بيته جالساً علىٰ سرير، مفضياً[1] إلىٰ رماله[2]، متكئاً علىٰ وسادة من أدم...[3].

إنها الصورة نفسها التي أبكت عمر يوم رأىٰ رسول الله ﷺ وقد أثر الحصير في جنبه، تتكرر واقعاً عملياً، لا صنعة فيه.. إنه الطريق نفسه، والجادة نفسها..

وفي هذا الإطار كانت سياسته في عماله، وتوجيهه لهم، ونذكر رسالته إلىٰ أبي موسىٰ الأشعري كنموذج لهذه السياسة. فقد جاء فيها:

«.. فإنما أنت رجل منهم، غير أن الله جعلك أثقلهم حملاً، وقد بلغني أنه نشأ لك ولأهل بيتك هيئة في لباسك ومطعمك ومركبك ليس للمسلمين مثلها، فإياك يا عبدالله أن تكون بمنزلة البهيمة مرَّت بواد خصب، فلم يكن لها هَمّ إلا التسمُّن، وإنما حتفها في السمن..»[4].

وقد لخص لنا عثمان بن عفان ﷺ أسلوب الصاحبين في عيشهما بكلمات قليلة، كما روىٰ ذلك عنه المسور فقال: سمعت عثمان يقول: يا أيها الناس، إن أبا بكر وعمر كانا يتأولان في هذا المال ظلف[5] أنفسهما، وذوي أرحامهما..[6].

ولم يغب عن ذهن عمر، أنه في كثير من الأحيان ما يؤتىٰ الإنسان من قِبَلِ أهله وذوي رحمه، حيث تطغىٰ العاطفة علىٰ العقل، وقد قطع عمر طمع كل طامع في سلوك هذا السبيل، ونترك الحديث لابنه عبدالله يحدثنا عن ذلك.

---

(١) يعني: ليس بينه وبين رماله شيء. وإنما قال هذا لأن العادة أن يكون فوق الرمال فراش أو غيره.
(٢) رماله: هو ما ينسج من سعف النخل ونحوه ليضطجع عليه.
(٣) رواه مسلم (١٧٥٧).
(٤) «كنز العمال» (١٤٩/٣) كما في «حياة الصحابة» للكاندهلوي (١١٣/٢).
(٥) ظلف العيش: بؤسه وشدته وخشونته.
(٦) «كنز العمال» (٦٢٧/٥) الحديث (١٤١٠٦) من رواية ابن سعد.

قال: كان عمر إذا أراد أن ينهىٰ الناس عن شيء تقدم إلىٰ أهله فقال: «لا أعلمن أحداً وقع في شيء مما نهيت عنه إلا ضاعفت له العقوبة»[1].

ولئن قال عمر في حق أبي بكر - بعد وفاته - «لقد أتعب من بعده» فإن علياً خاطب بها عمر بن الخطاب في حياته فقال: «قد أتعبت الخلفاء من بعدك»[2].

***

- ٢ -

وجاء عثمان بن عفان ﷺ..

فسلك في خاصة نفسه المسلك ذاته..

قال عبدالملك بن شداد: رأيت عثمان بن عفان يوم الجمعة علىٰ المنبر، وعليه إزار عدني غليظ ثمنه أربعة دراهم..[3].

وعن شرحبيل بن مسلم: أن عثمان كن يطعم الناس طعام الإمارة، ويدخل بيته فيأكل الخل والزيت..[4].

وعثمان من هو في غناه وتجارته قبل أن تؤول إليه الخلافة.

***

- ٣ -

وآلت الخلافة إلىٰ علي ﷺ..

فكانت سيرته مثل سيرة من سبقه.

---

(١) «طبقات ابن سعد» (٣/٢٨٩).
(٢) «البداية والنهاية» (٧/١٣٦).
(٣) «حلية الأولياء» للحافظ الأصبهاني (١/٦٠).
(٤) المصدر السابق (١/٦٠).

عن عبدالله بن رزين قال: دخلت علىٰ علي بن أبي طالب ـ قال حسن: يوم الأضحىٰ ـ فقرّب إلينا خزيرة[1]، فقلنا: أصلحك الله لو أطعمتنا من هذا البط ـ يعني الأوز ـ فإن الله قد أكثر الخير..!![2].

وقال أبو عبيد: حدثنا عباد بن العوام عن مروان بن عتيرة عن أبيه قال: دخلت علىٰ علي بن أبي طالب بالخورنق، وعليه قطيفة وهو يرعد من البرد، فقلت: يا أمير المؤمنين، إن الله قد جعل لك ولأهل بيتك نصيباً في هذا المال، وأنت ترعد من البرد؟! فقال: إني ـ والله ـ لا أرزأ من مالكم شيئاً. وهذه القطيفة هي التي خرجت بها من بيتي ـ أو قال: المدينة ـ[3].

وعن ابن عباس قال: اشترىٰ علي قميصاً بثلاثة دراهم وهو خليفة[4].

***

وإذا كان عمر ﷺ قد علّل لنا سلوكه في التزام الفقر بالتأسي بالرسول الكريم ﷺ، فإن علي بن أبي طالب يلفت نظرنا إلىٰ جانب من الحكمة في هذا المسلك..

«فقد التزم عاصم بن زياد البعد عن الدنيا والزهد فيها، مما أحزن أهله وولده. فعاتبه علي في ذلك..

فقال عاصم: فعلام اقتصرت أنت يا أمير المؤمنين علىٰ لبس الخشن، وأكل الجشب «الرديء»؟

قال: إن الله افترض علىٰ أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بالعوام لئلا يشنع علىٰ الفقير فقره..»[5].

---

(١) الخزيرة: ـ كما في «القاموس» ـ شبه عصيدة بلحم وبلا لحم عصيدة أو مرقة من بلالة النخالة. اهـ والمقصود هنا: طعام متواضع..

(٢) «البداية والنهاية» لابن كثير (٣/٨).

(٣) المصدر السابق (٣/٨).

(٤) المصدر السابق (٣/٨).

(٥) عن كتاب «مع الله» للأستاذ محمد الغزالي (ص٤٥٥) تحت عنوان «قل مَن حرّم زينة الله».

كم هو عزاء جميل للفقير أن يعيش في مستوىٰ رئيس الدولة طعاماً ولباساً.. وكم هو عظيم أن يشارك رئيس الدولة الفقير فقره طواعية واختياراً، وعندئذٍ لن يكون المال مبجلاً، ولن يكون الأغنياء طبقة متميزة تتعالىٰ علىٰ الناس بجاهها ونفوذها..

إنها المواساة العملية التي تخفف عن الفقير آلام الفقر، وتبعد عن نفسه الشعور بالهوان، مما يدفعه إلىٰ الجد والعمل وهو مرتاح النفس، قوي العزم.

وبهذا يحقق الإسلام الأمن الاجتماعي. فلا يقف فقر الفقير عثرة في طريقه، يحول بينه وبين ما يريد، فالأبواب مفتوحة للجميع في كل المجالات يشرف علىٰ تنظيمها خليفة خاف الله تعالىٰ وراقبه، وفقدت الدنيا رصيدها في نفسه، فانعدمت شهواته إليها، وبات حراً طليقاً من أسرها.. ولهذا فلن تكون نظرته للناس من خلال انتفاخ جيوبهم.

هذا الفقه في التزام الفقر وَعَتْهُ الخلافة الراشدة، فطبقته تأسياً واتباعاً، وحصدت نتائجه أمةُ الإسلام عدالة وازدهاراً، وبات المعْلَم الأول من معالم استقامة المسؤول عن تدبير شؤون الأمة، وسمة علىٰ الرشد لمن ولي هذا المنصب.

وما نعتقد أن ديناً غير الإسلام يستطيع أن يحقق ذلك.

* * *

- ٤ -

وقد يظن بعضهم أن الارتقاء إلىٰ هذه القمة السامقة خاص بتلاميذ محمد ﷺ، أولئك الذين تربوا علىٰ يديه، وهم الذين تتابعوا علىٰ منصب الخلافة الراشدة بعده.. وأنه من الصعب تحقيق هذا السمو في وقت آخر، وفي أشخاص أناس آخرين؟!

وقد فاتهم أن الرسالة الخالدة إنما جاءت لتقرر منهجاً دائماً، لا يختص

بجيل من الأجيال، وأن قدرته على العطاء مستمرة، كلما توفرت له الشروط المطلوبة.

ومن هذه الشروط، ما نحن بصدد الحديث عنه ألا وهو «التزام الفقر» من قبل رئيس الأمة وأميرها، الأمر الذي التزم به الخلفاء الراشدون تأسياً به ﷺ.

هذا وقد سجل التاريخ عطاء المنهج المرة بعد المرة..

إن التاريخ كان على موعد في نهاية القرن الأول الهجري مع الخليفة الراشد الخامس، عمر بن عبدالعزيز.. فما هي الخطوة الأولى التي وضعته على الطريق الصحيح؟ إنها الخروج من الأعطيات التي منحت له من الخلفاء قبله.

قال إسماعيل بن أبي الحكم: سمعت منادي عمر بن عبدالعزيز ينادي: الصلاة جامعة، قال: فجئت المسجد فإذا عمر على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

أما بعد: فإن هؤلاء أعطونا عطايا ما كان ينبغي لنا أن نأخذها، وما كان ينبغي لهم أن يعطوها، وإني قد رأيت ذلك ليس عليّ فيه دون الله محاسب، وإني قد بدأت بنفسي وأهل بيتي. اقرأ يا مزاحم..

فجعل مزاحم يقرأ كتاباً كتاباً، ثم يأخذه عمر وبيده الجلم[١] فيقطعه، حتى نودي بالظهر[٢].

ثم دخل على زوجته فاطمة بنت عبدالملك فخيّرها بين أن تقيم معه على أسلوب من الحياة خشن، أو تلحق بأهلها، فآثرت البقاء معه..[٣] ومن أجل هذا البقاء تنازلت عن جواهرها وحليها التي أهداها لها أبوها،

---

(١) الجلم: المقص.

(٢) «حلية الأولياء» للحافظ الأصبهاني (٣٥٥/٥).

(٣) «البداية والنهاية» (١٩٨/٩)، و«سيرة عمر بن عبدالعزيز» لسيد الأهل (ص١٠١) نقلاً عن «سيرة ابن عبدالحكم» (ص٦٠).

والتي لم يرَ مثلها.. لتستقر في بيت مال المسلمين..[1].

وسارت حياة عمر المعاشية على الأسلوب الذي عهدناه من الخلفاء الراشدين.

صلّى يوماً الجمعة ثم جلس وعليه قميص مرقوع الجيب من بين يديه ومن خلفه. فقال له رجل: يا أمير المؤمنين: إن الله قد أعطاك، فلو لبست، فنكس ملياً، ثم رفع رأسه فقال: أفضل القصد عند الجدة، وأفضل العفو عند المقدرة[2].

وعن نعيم بن سلامة قال: دخلت على عمر بن عبدالعزيز فوجدته يأكل توماً مسلوقاً بزيت وملح[3].

وكان أكثر طعامه العدس.

وعن مسلمة بن عبدالملك، قال: دخلت على عمر بن عبدالعزيز أعوده في مرضه، فإذا عليه قميص وسخ، فقلت لفاطمة بنت عبدالملك: يا فاطمة، اغسلي قميص أمير المؤمنين، قالت: نفعل إن شاء الله، ثم عدت فإذا القميص على حاله، فقلت: يا فاطمة، ألم آمركم أن تغسلوا قميص أمير المؤمنين، فإن الناس يعودونه؟ قالت: والله ما له قميص غيره[4].

ومع التزامه بالفقر في ذات نفسه وفي أهل بيته، فإنه كان يوسع على عماله في النفقة. وكان يتأول: أنهم إذا كانوا في كفاية تفرغوا لأشغال المسلمين.. فقالوا له يوماً: لو أنفقت على عيالك كما تنفق على عمالك؟ فقال: لا أمنعهم حقاً لهم، ولا أعطيهم حق غيرهم[5].

إنه فقه الإسلام..

---

(١) «حلية الأولياء» (٥/٢٨٣).
(٢) «حلية الأولياء» (٥/٢٦١).
(٣) المصدر السابق (٥/٣١٥).
(٤) المصدر السابق (٥/٢٥٨).
(٥) «البداية والنهاية» (٩/٢٠٢).

وبهذا يستطيع المسؤول في الأمة أن يفطم كل ذوي الأطماع من قرابته ومن غيرهم أن تمتد أيديهم إلىٰ ما ليس لهم به حق.. وعندها تستقيم الأمور ويقوم العدل في الناس.

* * *

- ٥ -

ويستمر العطاء.. وحيثما وجدت مراكز الإشعاع الإسلامي.. فثمة التزام بسيرته ﷺ في بيت القيادة.

ونطالع في القرن السادس الهجري سيرة نور الدين محمود زنكي.. فنجد:

كان مقتصداً في الإنفاق علىٰ نفسه وعياله، في المطعم والملبس، حتىٰ قيل: إنه كان أدنىٰ الفقراء في زمانه أعلىٰ نفقة منه من غير اكتناز ولا استئثار بالدنيا[١].

وكان لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف إلا في الذي يخصه من ملك كان قد اشتراه من سهمه من الغنيمة. ولقد شكت إليه زوجته من الضائقة، فأعطاها ثلاث دكاكين في حمص كانت له، يحصل له منها في السنة نحو العشرين ديناراً، فلما استقلتها قال: ليس لي إلا هذا، وجميع ما بيدي أنا فيه خازن للمسلمين، لا أخونهم ولا أخوض نار جهنم لأجلك[٢]..

وفي أواخر القرن السادس أيضاً نقرأ سيرة صلاح الدين..

وكان متقللاً في ملبسه ومأكله ومركبه.. ولا سيما بعد أن أنعم الله عليه بالملك[٣].

---

(١) «البداية والنهاية» (٢٧٨/١٢).

(٢) «الكامل لابن الأثير» (١٢٥/٩).

(٣) «البداية والنهاية» (٥/١٣).

وبنىٰ له أتباعه مرة منزلاً أنيقاً في دمشق، فلم يكترث به ولم ينظر إليه طويلاً، بل قال: ما كنا لنجلس في هذا المكان إلىٰ الأبد، فهذا المنزل لا يصلح لمن يطلب الموت. وما نحن هنا إلا لنقوم بخدمة الله سبحانه[1].

وحين توفي لم يترك في خزانته من الذهب سوىٰ دينار واحد، ولم يترك داراً ولا عقاراً، ولا مزرعة ولا بستاناً، ولا شيئاً من أنواع الأموال[2].

* * *

تلك هي ثمرة تأسي بيوت القيادة في الأمة به ﷺ في بيته ومعيشته، وكلما أراد الله لهذه الأمة النهوض والتقدم هيأ لها إماماً مصلحاً، يعرف أن التأسي به ﷺ في بيته ومعيشته هو الطريق لإعادة سيرة الخلافة الراشدة لهذه الأمة[3].

(١) «صلاح الدين الأيوبي» لعبدالله علوان ط٣ ص(١٧٨).

(٢) «البداية والنهاية» (٤/١٣).

(٣) بعض هذا الفصل عن كتاب «هكذا فهم الصحابة» للمؤلف.

الفصل الثالث
الخطأ في التاسي

انتهج بعض المتصوفة التزام الفقر والبُعد عن الدنيا، بحجة التأسي برسول الله ﷺ في ذلك.

وهو مسلك خاطئ بعيد عن الصواب، فقد استعاذ ﷺ من الفقر، وما كان الفقر ليكون غاية تقصد في يوم من الأيام، والإسلام يرىٰ أن اليد العليا خير من اليد السفلىٰ.

وقد رأينا في الفصل السابق، كيف لام علي ﷺ عاصم بن زياد علىٰ زهده، وكيف اعترض عليه عاصم بقوله: فعلام اقتصرت أنت يا أمير المؤمنين علىٰ لبس الخشن..؟

فقال علي ﷺ: إن الله افترض علىٰ أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بالعوام لئلا يشنع علىٰ الفقير فقره.

إن علياً ﷺ، لا يصحح خطأ عاصم وحده، وإنما يصحح هذا المسار كله. ومن هنا نفهم كم استمر هذا الخطأ وشاع.. وكرّسه بعض المتصوفة بجهلهم وبُعدهم عن العلم.

الأمر الثاني الذي يقرره علي ﷺ: هو أن هذا المسلك خاص بأئمة العدل لاعتبارات كثيرة منها: حتىٰ لا يشنع علىٰ الفقير فقره، إذا رأىٰ نفسه في وضع يماثل وضع الخليفة.

وإذن: فالتزام الفقر، والتأسي به ﷺ في ذلك مطلوب في كل وقت من شخص واحد في الأمة، هو شخص الخليفة، ومن بيت واحد، هو بيت الخليفة.

وأما الذين يحاولون سلوك هذا الطريق، وليسوا في موقع قيادة الأمة، فهم جهلة لأنهم يضعون الأمور في غير مواضعها..

وهذه المسألة من دقائق العلم، التي غابت عن كثير من الناس.

***

قال الإمام ابن الجوزي: قال الإمام أحمد: أكره التقلل من الطعام، فإن أقواماً فعلوه فعجزوا عن الفرائض.

قال ابن الجوزي: وهذا صحيح، فإن المتقلل لا يزال يتقلل حتىٰ يعجز عن النوافل ثم الفرائض، ثم يعجز عن مباشرة أهله وإعفافهم، وعن بذل القوىٰ في الكسب لهم، وعن فعل خير كان يفعله.

وقال: وقد كان النبي ﷺ يأكل ما وجد، فإن وجد اللحم أكله، ويأكل لحم الدجاج، وأحب الأشياء إليه الحلوىٰ والعسل، وما نقل أنه امتنع من مباح[1].

وقد ذكر عن الحسن البصري أنه كان معتدلاً في طعامه، قال أبو هلال: «قلما دخلنا علىٰ الحسن إلا وقد رأينا قدراً يفوح منه ريح طيبة»[2].

وكان سفيان الثوري يحمل في سفره الفالوذج، والحَمَل المشوي، ويقول: إن الدابة إذا أحسن إليها عملت[3].

* * *

هذا ما كان عليه السلف الصالح رحمهم الله تعالىٰ، وهو محكوم بقوله ﷺ: (ثلث طعام، وثلث شراب، وثلث نفس)[4].

* * *

وخلاصة القول:

إن فقه التأسي به أمر واجب. وما حدث من انحرافات إنما منشؤه الجهل، ووضع الأمور في غير مواضعها الصحيحة.

(انتهىٰ الكتاب والحمد لله رب العالمين)

---

(١) «صيد الخاطر» الفصل (١٩).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (٥٨٤/٤).
(٣) «صيد الخاطر» الفصل (٣١).
(٤) رواه الترمذي (٢٣٨٠).

فهرس المحتويات

الموضوعات	الصفحة
المقدمة	٣
الباب الأول	
النبي ﷺ الزوج الكريم	٥ ـ ١٧٨
الفصل الأول: زوجات الرسول ﷺ	٧
١ ـ أم المؤمنين خديجة بنت خويلد	٨
٢ ـ أم المؤمنين سودة بنت زمعة	٢٠
٣ ـ أم المؤمنين عائشة بنت الصدِّيق	٢٤
٤ ـ أم المؤمنين حفصة بنت عمر	٣٨
٥ ـ أم المؤمنين زينب بنت خزيمة	٤٠
٦ ـ أم المؤمنين أم سلمة بنت أبي أمية	٤١
٧ ـ أم المؤمنين زينب بنت جحش	٤٨
٨ ـ أم المؤمنين جويرية بنت الحارث	٥٨
٩ ـ أم المؤمنين أم حبيبة بنت أبي سفيان	٦٠
١٠ ـ أم المؤمنين صفية بنت حيي	٦٣
١١ ـ أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث	٦٥
١٢ ـ جاريتان	٦٨
الفصل الثاني: بيوت النبي ﷺ	٧٠
الفصل الثالث: المعيشة في بيوته ﷺ	٧٨
الفصل الرابع: تعدد زوجاته ﷺ	٨٤
ـ تعدد الزوجات	٨٤

الموضوع	الصفحة

- تعدد زوجاته ﷺ ٨٧

الفصل الخامس: خيركم خيركم لأهله ٩٢

الفصل السادس: عدله ﷺ بين زوجاته ٩٨

الفصل السابع: سلوكه ﷺ في بيته ١٠٦

- في مهنة أهله ١٠٦
- رحمته ﷺ وحسن معاملته لأهله ١٠٩
- الغضب أحياناً ١١٣
- لكل بيت استقلاله ١٢٠
- المباسطة والمزاح ١٢١
- منهج للبشر ١٢٥

الفصل الثامن: ما ضرب النبي ﷺ امرأة قط ١٢٨

الفصل التاسع: حبه ﷺ لزوجاته ١٣٩

الفصل العاشر: الغيرة بين أمهات المؤمنين ١٤٤

الفصل الحادي عشر: مشاركتهن في الأمور العامة ١٤٩

الفصل الثاني عشر: طهارة بيوته ﷺ ١٥٢

الفصل الثالث عشر: خصائص أمهات المؤمنين ١٦٣

الفصل الرابع عشر: تربية قرآنية وأجر عظيم ١٦٧

الفصل الخامس عشر: واجب الاحترام والتقدير لأمهات المؤمنين ١٧٦

خاتمة الباب ١٧٨

الباب الثاني

النبي ﷺ الأب الرحيم ١٧٩ ـ ٢٠٢

الفصل الأول: ذكر أولاده ﷺ ١٨١

١ ـ القاسم ابن النبي ﷺ ١٨١

٢ ـ عبدالله ابن النبي ﷺ ١٨١

٣ ـ زينب بنت النبي ﷺ ١٨٢

٤ ـ رقية بنت النبي ﷺ ١٨٦

٥ ـ أم كلثوم بنت النبي ﷺ ١٨٧

الموضوع	الصفحة
٦ ـ فاطمة بنت النبي ﷺ	١٨٧
٧ ـ إبراهيم ابن النبي ﷺ	١٩١
الفصل الثاني: النبي ﷺ الأب الرحيم	١٩٣
ـ الأبوة الحانية	١٩٣
ـ لا فرق بين ذكر وأنثى	١٩٦
ـ اختيار الزوج المناسب للبنت	١٩٧
ـ رعاية البنات بعد الزواج	١٩٨
ـ العدل بين الأولاد	١٩٩
ـ احترام الأولاد وتقديرهم	٢٠١
الباب الثالث	
فقه التاسي به ﷺ	٢٠٣ ـ ٢٢٣
الفصل الأول: نماذج من التأسي به ﷺ في شأن بيته	٢٠٥
الفصل الثاني: تأسي بيت القيادة في الأمة به ﷺ	٢٠٧
الفصل الثالث: الخطأ في التأسي	٢٢٢
فهرس المحتويات	٢٢٥

كتب للمؤلف

في السنّة المطهّرة:

١ ـ الجامع بين الصحيحين، (٥ مجلدات).

٢ ـ زوائد السنن على الصحيحين، (٧ مجلدات).

٣ ـ تحقيق الجمع بين الصحيحين، للموصلي، (في مجلدين).

٤ ـ العناية بالأدب المفرد، للإمام البخاري.

٥ ـ تحقيق مشارق الأنوار، للقاضي عياض (تحت الطبع).

٦ ـ الوافي بما في الصحيحين.

في السيرة النبوية الشريفة:

١ ـ من معين السيرة.

٢ ـ من معين الشمائل.

٣ ـ من معين الخصائص النبوية.

٤ ـ السيرة النبوية (تربية أمة وبناء دولة).

٥ ـ تحقيق المواهب اللدنية، للقسطلاني، (٤ مجلدات).

٦ ـ أضواء على دراسة السيرة.

٧ ـ هكذا فهم الصحابة.

٨ ـ أهل الصفة (بعيداً عن الوهم والخيال).

٩ ـ الغرانيق، (قصة دخيلة على السيرة النبوية).

١٠ ـ المهذّب من الشفا، للقاضي عياض.

١١ ـ سيرة النبي ﷺ في بيته، (هذا الكتاب).

في الرقائق والأخلاق:

١ ـ مواعظ الصحابة.

٢ ـ المهذَّب من إحياء علوم الدين (في مجلدين).

٣ ـ تحقيق رسالة «شرح المعرفة»، للمحاسبي.

٤ ـ تهذيب حلية الأولياء، للأصبهاني، (٣ مجلدات).

٥ ـ سلسلة مواعظ السلف: صدر منها:

ـ مواعظ الإمام الحسن البصري.

ـ مواعظ الإمام سفيان الثوري.

ـ مواعظ الإمام عمر بن عبدالعزيز.

ـ مواعظ الإمام مالك بن دينار.

ـ مواعظ الإمام سلمة بن دينار.

ـ مواعظ الإمام إبراهيم بن أدهم.

ـ مواعظ الإمام عبدالله بن المبارك.

ـ مواعظ الإمام الفضيل بن عياض.

ـ مواعظ الإمام الشافعي.

ـ مواعظ الإمام أبي سليمان الداراني.

ـ مواعظ الإمام الحارث المحاسبي.

ـ مواعظ الشيخ عبدالقادر الجيلاني.

ـ مواعظ الإمام ابن الجوزي.

ـ مواعظ شيخ الإسلام ابن تيمية.

ـ مواعظ الإمام ابن القيم الجوزية.

ـ مواعظ الإمام الغزالي.

مشروع تقريب تراث الإمام ابن القيم رحمه الله:

صدر منه عن المكتب الإسلامي:

١ ـ تقريب طريق الهجرتين.

٢ ـ الوابل الصيّب من الكَلِم الطيّب.

٣ ـ سيرة خير العباد.

٤ ـ البيان في مصايد الشيطان.

٥ ـ القضاء والقدر.

٦ ـ قل انظروا.

٧ ـ فضل العلم والعلماء.

٨ ـ الطرق الحكمية في السياسة الشرعية.

٩ ـ الهدي النبوي في العبادات.

١٠ ـ الهدي النبوي في الفضائل والآداب.

١١ ـ الروح.

١٢ ـ إعلام الموقعين، (تحت الطبع).

وصدر عن دار القلم بدمشق:

١٣ ـ طب القلوب.

١٤ ـ الجواب الكافي (الداء والدواء).

١٥ ـ المهذب من مدارج السالكين.

موضوعات أخرى:

١ ـ محبة الله ورسوله شرط في الإيمان.

٢ ـ نظرات في هموم المرأة المسلمة.

٣ ـ الفرائض فقهاً وحساباً، (في جزأين).

٤ ـ الفن الإسلامي (التزام وإبداع).

٥ ـ الظاهرة الجمالية في الإسلام.

٦ ـ ميادين الجمال في الظاهرة الجمالية.

٧ ـ التربية الجمالية في الإسلام.

٨ ـ الإمام الغزالي (سلسلة أعلام المسلمين).

٩ ـ الإسلام دين التيسير.

١٠ ـ رضيت بالإسلام ديناً.

١١ ـ فصول في إصلاح النفس والمجتمع، للإمام ابن الجوزي.

١٢ ـ الصلاةَ.. الصلاةَ (آخر ما تكلم به النبي ﷺ).

١٣ ـ الجمال في منهج الإسلام وتشريعه.